



مطبوعات كتابي

تقدم العدد الأول من:

مكتبة القصة القصيرة
ترجمة كاملة لمجموعة من روائع
أشهر كتاب القصة العالميين



قصص من
تولستوي

لیو تولستوی :
کلمات الله الثلاث
وقصص أخرى



MASTER AND MAN

BY

LEO N. TOLSTOI

عدد خاص ممتاز

الثنى : ١٥ قرشا

مجموعة كتابي

(الكتاب الشهري لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ستة وتسعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد في
أول كل شهر .

مطبوعات كتابي

(الترجمة الكاملة الآمنة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ستة وستون كتابا ، ومجلدان خارج السلسلة يحتويان
على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو » ، وطلب قائمة باسماء
الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• نطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :

ادارة « كتابي » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابي في ج.ع.م. والسودان والملكة

السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة

البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاخرى

فلاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل

وإن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوي المسجل ، أن يدفع

فراغ الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات في مصر بالبن بريد هادى .

وللمشتركين في البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك

القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، او كوبيونات بريد دولية فئة ١٠ مليمات ،

على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها في مصر . علما بان سعرها في مصر

٢٧ مليمات . ومن الممكن ان يرسل المرسل القيمة بحسبالة بريدية .

مطبوعات

كتاب

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد



الكتاب السادس والستون

كلمات الله الثلاث

وقصص اخرى

ترجمة : زكى شتوده الحامى

الإدارة : عمارة الجندول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

الموضوع	صفحة
كلمات الله الثلاث	٧
.. امقل من الكبار !	٤٠
الله والناس !	٤٣
خاطيء على ابواب الفردوس !	٤٧
القاتل	٥١
حبة القمح	٦٤
شوط الحياة	٦٩
حكمة سولون	٩٥
الشیطان الصغير	٩٩
السعادة	١٠٥
هذه هي الحياة	١١٣
السمعة	١٨١

كلمات الله التي



« نحن نعلم اننا قد انتقلنا من الموت الى الحياة لاننا نحب الاخوة . من لا يحب اخاه يبق في الموت .. واما من كان له معيشة العالم وداى اخاه محتاجا وافلق احشاه عنه فكيف تثبت محبة الله فيه .
 « يا اولادى لا تحب بالكلام ولا باللسان ، بل بالعمل والحق .
 « ايها الاحباء لنحب بعضنا لان المحبة هى من الله ، وكل من يحب فقد ولد من الله ، ويعرف الله . ومن لا يحب لم يعرف الله لان الله محبة .
 « الله لم يره احد . ان احب بعضنا ، فالله يثبت فينا .
 « الله محبة ومن يثبت في المحبة ، يثبت في الله والله فيه .
 « ان قال احد انه يحب الله وابغض اخاه فهو كاذب ، لان من لا يحب اخاه الذى ابصره فكيف يقدر ان يحب الله الذى لم يبصره . »

(رسالة يوحنا الاولى - اصحاح ٣ و ٤)

- ١ -

• حدث ذات مرة ، ان كان اسكاف يقطن مع زوجته واولاده في دار أحد الفلاحين ، لانه لم يكن يملك دارا ولا ارضا ، وانما كان يعيش من السكافة وحدها .. وكان الخبز غاليا ، والعمل رخيصا ، فكان - من ثم - يعيش من اليد للفم ، ويشغل زوجته ثوبا واحدا من جلد الشاة ، وكان هذا الثوب مع ذلك باليا رثا . الا انه راح - في العامين الأخيرين - يقتصد ليشتري جلدا يصنع منه ثوبا جديدا . فلما اقبل الخريف ، كان قد اجتمع لديه مبلغ ضئيل - قدره ثلاثة روبلات ورقية - خباها في صندوق زوجته .. فضلا عن خمسة روبلات وعشرين « كوبيك » ، كان يدين

بها بعض الفلاحين فى القرية .

وفى ذات صباح ، نهض من نومه ، فافطس ، ثم ارتدى سترة زوجته فوق قميصه ، وليس عباءته الصوفية فوقهما . وأودع الروبلات الثلاثة جيبه ، وقطع لنفسه عصاة للسير . ثم مضى ، وهو يفكر فى نفسه قائلاً : « سوف أحصل - قبل كل شئ - على الروبلات الخمسة من أولئك الفلاحين ، ثم أضيف إليها الروبلات الثلاثة التى معى ، فأشتري بلمبلغ جلد شاة أصنع منه ثوباً جديداً » .

واذ بلغ القرية ، راح يطلب الفلاح الأول . ولكنه لم يجده فى داره ، وان وعدته زوجته بأنها ستبعث إليه بالنقد قبل انقضاء الاسبوع . فذهب الى كوخ فلاح آخر ، الا أن هذا أقسم بالله العظيم أنه مفلس . ومن ثم فإن كل ما يمكنه - فى ذلك اليوم - هو اقتضاء دين صغير قدره عشرون كوبيك ، أجر رتق حذاء .

وازاء عجز الاسكاف عن الحصول على نقوده ، راوده الأمل فى أن يقبل بائع الجلود أن يعطيه جلدًا ويمهله فى دفع ثمنه . الا أن البائع رفض قائلاً : « أعطنى المبلغ كله نقداً ، تأخذ أى جلد تشاء . . أنا جميعاً نعلم كم يصعب اقتضاء دين » .

وهكذا عجز الاسكاف عن أن يفعل شيئاً فى ذلك الصباح ، أكثر من حصوله على العشرين « كوبيك » أجر رتق الحذاء ، فوق أنه تسلم حذاء آخر لأصلاحه . فاكتاب لهذه النتيجة أيماء اكتئاب ، وذهب الى الحانة فاتفق العشرين كوبيك فى احتساء « الفودكا » ، ثم انكفا عائداً الى بيته . وكان الجو قد بدا له - فى الصباح - بارداً زمهريراً ، الا أنه أحس - وهو عائد - بالدفء يسرى فى أوصاله ، فلم يعد بحاجة

حتى لاى رداء . ومن ثم راح يحدث نفسه ، وهو يمشى ضارباً أكوام الجليد بعصاه التى كان يمسكها بأحدى يديه ، ومؤرجحاً الحذاء من رباطه باليد الأخرى ، قائلاً :
 - أننى لأشعر بالدفع التام دون جلد شاة . لقد شربت قدراً ضئيلاً جداً ، ومع ذلك فإنه يفور ويفلى فى عروقى .
 نعم ، لست بحاجة الى جلد شاة . فانا الآن على خير ما يرام . فما الذى يضايقنى ؟ .. ان فى امكانى ان أروح وأجئ دون هذا التوب . فلن أريده طول حياتى . فقط هنالك - بالطبع - زوجتى .. فأنها لن تفتأ مكتئبة لذلك .
 حقاً ، أنه إن الأخرى أن تصنع شيئاً لشخص ما ، ثم لا يعطيك شيئاً ! .. ولكن ، صبرك يا صديقى الفاضل .
 فان لم تأتنى بنقودى هذا الاسبوع فسأطبخ بقطاء رأسك .. بالله العظيم سأفعل ذلك ! .. وذاك الآخر كذلك ، لقد دفع لى عشرين كوبيك حقيرة ، فماذا يملك المرء أن يفعل بعشرين كوبيك ؟ .. يشرب بها . هذا كل ما هناك . لقد أقسم أنه مفلس .. ولكن ، كان يجب أن أقول له : « أنت مفلس اذن ، ولست على ما يرام ؟ .. ولكنك تملك كوخاً ، وقطيعاً من الأغنام ، وكل شيء . إما أنا فلا أملك الا الجلباب الذى على بدنى .. انت تزرع قمحك ، أما انا فمضطر لأن اشتريه .. مضطر لأن أدفع ثلاثة روبلات فى الاسبوع لأجل الخبز وحده . وحين أبلغ بيتى اليوم سيكون الخبز قد نفذ .. ولا مناص من أن أنفق روبلاً ونصف روبل أخرى .. ادفع لى ما عليك !



هكذا راح الاسكاف يحدث نفسه وهو يمشى ، حتى اقترب من الكنيسة القائمة على جانب الطريق ، عند المنحنى

.. وهنالك لفت نظره شيء ما ، يبدو أبيض اللون في الظلمة الجائمة ، فراح يحلق ثم يحلق في ذلك الشيء الذى لم يكن يتبينه ، قائلا في نفسه : « لم تكن هنا أية صخرة أو ما إليها ، فهل هو ثور يا ترى ؟ .. كلا . انه لا يبدو كذلك . انه يبدو ذا رأس كراس الانسان ، ولكنه أبيض .. كله . ثم ، ما الذى يجيء بأنسان هنا ؟ »

اقترب خطوة أو اثنتين ، وقد اصبح فى امكانه الآن ان يميز ذلك الشيء . فيا للعجب ! .. انه رجل .. انه - سواء أكان حيا أو ميتا - رجل يجلس بلا حراك ، وهو عريان تماما ، وظهره الى الكنيسة .. اضطربت أعصاب الاسكاف وهو يقول في نفسه : « لابد ان احدا قتله ، واخذ نقوده ، ثم ألقي جثته هنا .. فاذهب ، حتى لا تكون الضحية التالية ! »

وانطلق الاسكاف مبتعدا عن الكنيسة ، حتى اختفى الرجل عن نظره .. الا انه ما لبث أن توقف ، ورجع خطوة أو اثنتين ، ثم راح يحلق مرة أخرى ناحيته ، وقد رآه يجلس منتظبا ، ويحرك جسده جيئة وذهابا كأنما يتفرس فيه ويحاول أن يبصره . فازداد خوفه وراح يحاور نفسه قائلا : « هل اقترب منه أو اذهب ؟ .. اذا اقتربت منه فالله وحده يعلم ما الذى قد يحدث لى ، من أين لى أن أعرف من عساه يكون .. انه لا يمكن أن يقصد خيرا فى هذا المكان ، واذا اقتربت منه فقد يشب على ويخنقنى قبل ان أنجو بنفسى .. وحتى اذا لم يخنقنى ، فقد تنشب بيثنا معركة حامية . ماذا يملك للمرء أن يفعل مع رجل عريان ؟ لن أستطيع أن أنخلص منه حتى ياخذ كل ما عندى .. فليحمنى الله ! »

وأسرع الخطى ، حتى أوشك أن يتجاوز الكنيسة ، إلا أن ضميره بدأ يؤنبه ، وراح يقول في نفسه : « ماذا جرى لك يا سيمون ؟ .. قد يكون الرجل بائسا يعالج سسكزات الموت ، فمالك تبعد عنه هكذا ، كما لو كنت خائفا منه ؟ .. هل أنت الى هذا الحد عظيم الثروة ، حتى تتحوط ممن عساه أن يسرق كنوزك ونفائسك ؟ .. يا للعار يا سيمون ! »

٢ -

• وعاد فاقترب من الرجل ، وراح يتفرس فيه ، واذذاك تبين أنه شاب في مستهل حياته ، وإن جسمه سليم لا أثر فيه لأي اعتداء أو عنف .. وقد بدا مرتجف الاوصال من البرد والخوف ، وهو جالس يحرق أمامه دون أن يلتفت الى الاسكاف الذي راح يقترب منه .. وكأنما كان من الضعف بدرجة يعجز معها عن أن يحول عينيه ناحيته . على أنه - ما ان وصل سيمون اليه - حتى رفع رأسه فجأة ، وكأنه أفاق لتوه من أغماء طويل ، وفتح عينيه على سعتهما وحقق بهما في وجه سيمون . وعندئذ بادى هذا في الحال ، فالقى بالحداء الذي كان في يده ، وراح يخلع العباءة التي عليه قائلا : « ما هذا ؟ .. ينبغي أن يكون لك ما تستتر به . هيا ! » . وأمسك بالرجل من تحت ابطيه ، وحاول أن يرفعه . بيد أن الرجل انتصب دون معاونة ، وقد تبين سيمون - عندئذ - أنه نحيف ونظيف ولا أثر في رجله أو ذراعيه لأي اعتداء ، ووجهه هادئ ولطيف . وقد القى الاسكاف عباؤه على كتفي الرجل ، حتى اذا ألفاه يجد صعوبة في العثور على كميتها ، أعانه على ادخال ذراعيه فيها ، وحبك الرداء وأحكمه حوله . ثم خلع قلنسوته البالية وكاد

أن يضعها على رأس الرجل العاري ، لولا أن شعر في هذه اللحظة بالبرد يقرص جلد رأسه ، ففكر في نفسه قائلا : « انني أصليح تماما ، في حين انه ذو شعر طويل مجعد » . . ثم أعاد قلنسوته الى رأسه ، وعاد يقول في نفسه : « لعل الأفضل أن البسه هذا الحذاء » . ثم جلس والبسه اياه ، والتفت اليه قائلا : « والان قم يا اخي ، وسر معي لتشعر بالدفء . ولكن ، هل تقوى على الحركة ؟ »

فنظر الرجل بلطف الى سيمون ، ولكنه لم يقل شيئا ، فسأله هذا قائلا : « لماذا لا تتكلم ؟ . لن يمكننا أن نقضي الشتاء هنا ، فتعال معي الى بيتي ! . . توكا على عصاي اذا كنت تستشعر الضعف » وهيا يا صديقي !

وعندئذ نهض الرجل ومشى في سهولة ، دون ان يتمهل . . وفيما كانا يسيران ، سأله سيمون قائلا : « من اين ابنت ؟ » . فأجابه قائلا : « من غير هذا المكان » .

— انني ادرك هذا ، فانا أعرف اهل هذه الناحية جميعا . ولكن ما الذي القى بك هنا بجانب الكنيسة ؟
فأجابه قائلا : « لست أملك أن أقول » .

— لا بد أن أحدا هاجمك اذن !

— كلا . لم يهاجمني أحد . وانما كان الله يعاقبني !

— طبعاً ، كل شيء يأتي من الله ، علينا أن نلصق لشيئته . ومع ذلك فالي أين كنت ذاهبا ؟
— الى هنا !

واستولت الدهشة على سيمون ، لأن الرجل لم يكن يبدو مأكرا ولا خبيثا ، بل كان مؤدبا في كلامه ، وان أبي أن يقول شيئا ابدا عن نفسه . فقال سيمون في نفسه : « هيهات للانسان أن يعرف كيف تجري الامور في هذا

العالم ! » . ثم استطرد قائلا لرفيقه : « حسنا . تعال الى منزلى الآن .. ولك أن تمضى الى حيث شئت فيما بعد » .
 وواصل السير ، فلم يبد الغريب أية محاولة لأن يتركه ،
 وانما سار بجانبه . وكانت الريح قد بدأت تهب وتتسرب
 خلال ثوب سيمون ، فأودت بأثر الخمر التى كانت تدفئه
 وتركته يرتجف ويلهث من البرد ، وهو يوسع الخطى ،
 ويحكم لف نفسه بستره زوجته ، قائلا فى نفسه : « هذا هو
 الذى صنعه بى ذلك الجلد العزيز ! .. لقد خرجت لابتياعه ،
 وها انذا عائد بلا شيء ، ولا حتى برداء ادثر به ظهرى ..
 فضلا عن اننى اتيت معى برجل عسريان ! .. اننى لخائف
 من غضب مائرينا » .. واريكته هذه الفكرة الاخيرة وأذت
 اعصابه .. الا انه حين أدار عينيه الى الرجل الغريب ، تذكر
 النظرة التى رمقه بها عند الكنيسة ، ووثب قلبه من الفرح .

- ٣ -

كانت زوجة سيمون قد انتهت من واجباتها مبكرة
 فى ذلك اليوم ، فقطعت الاخشاب للنار ، وأحضرت الماء ،
 وأطعمت الاطفال ، وأعدت لنفسها شيئا تأكله . ثم راحت
 تسائل نفسها : هل تضيع الخبز اليوم أو غدا ؟ .. كانت قطعة
 كبيرة منه قد تبقت ، فقالت لنفسها : « اذا تناول سيمون
 الغداء فى الخارج ، فلن يأكل كثيرا فى العشاء ، ومن ثم
 فسيتبقى من الخبز شطر للغد » .. وراحت تدبر قطعة
 الخبز بين يديها ، ثم حزمت رايها قائلة : « لن أصنع خبزا
 اليوم ، فلم يبق من الادماء الا ما يكفى رغيفا واحدا . وعلى
 ذلك ففى امكاننا أن ننتظر الى يوم الجمعة » .
 ومن ثم وضعت قطعة الخبز جانبها ، وجلست الى المنضدة

تخيط رقعة في قميص زوجها . وبينداك راحت تفكر في سيمون ، متسائلة عما اذا كان قد اشترى جلد شاة لصنع ثوب جديد . وقالت في نفسها : « أرجو ألا يفشه بائع الجلود ، فزوجى ساذج جدا ، ولا يمكنه أن يفش أحدا ، وإن كان في وسع طفل صغير أن يقوده من أنفه . وليست الثمانية روبلات بالمبلغ البسيط ، فهي كافية لشراء جلد جيد . لقد قضيت الشتاء كله بفقر ثوب . لم يكن بوسعى أن أذهب الى التربة ، او الى أى مكان .. وحتى هذا الصباح ، خرج سيمون بكل ثيابنا ، ولم يترك لى ما البسه . وهاهوذا قد تأخر في العودة كذلك .. لقد آن له أن يعود ، وأرجو ألا يكون قد ذهب يلهو ويسكر ، ذلك العريد ! »

على ان هذه الفكرة لم تكد تخطر لها ، حتى سمعت وطأ الاقدام على السلم في الخارج ، فخرجت الى السرددة . وهناك أبصرت شخصين يدخلان .. أحدهما زوجها ، والآخر رجل عارى الرأس ، يغيب قدميه في خفين من اللباد . وللتو ، نلحت تلك البسمة التى ترسم على وجه زوجها حين يشرب الفودكا ، فقالت في نفسها : « لقد كان يعربد اذن ! .. حتى اذا تبينت أن عبائه ليست عليه كذلك ، ولا شيء في يده ، تأوه قلبها بين ضلوعها ، وقالت في نفسها : « لقد سكر بالنقود جميعا ، وقد كان يتسكع مع هذا الافاق . وهاهوذا يأتي به الى البيت كذلك ! »

وادخلتهما الى الكوخ ، ودخلت خلفهما . وراحت تتطلع الى الفريب وقد بدا لها نحيفا ، ضعيفا ، يرتدى عباءتهما ، وليس على بدنه سواها ، ولا على رأسه غطاء .. وكان يقف ساكنا ، وعيناه الى الأرض ، فقالت مائتينا في نفسها :

« انه ليمدو مرتبكا ، ولا يمكن ان يكون شريفا ! »

وعبست وجهت .. ووقفت قسرب الموقد ترقب ما يفعلان . وقد خلع سيمون قلابسوته ، وجلس على المقعد كأنما لم يكن في الأمر ما يهم . ثم قال : « حسنا يا ماترينا ، هاتى لنا شيئا نعيشى به .. هل لديك بعض الحساء ؟ » . ولكن ماترينا ظلت واقفة عند الموقد ، تنظر اليهما - الواحد بعد الآخر - وتهز رأسها هزة تنذر بالشر . وتبين سيمون ان زوجته كانت غاضبة لأمر ما ، ولكنه لم يبد ما ينم عن انه لاحظ شيئا ، وانما أخذ الغريب من ذراعه ، قائلا له : « اجلس يا أخى ، لتاكل شيئا ! » .. فجلس الغريب على المقعد بجانب سيمون . والتفت هذا الى زوجته قائلا : « هل عندك أى شيء مطبوخ تقدميه لنا ؟ »

اذذاك انفجرت « ماترينا » قائلة : « نعم ، نعم .. عندى شيء مطبوخ » ولكنه ليس لك . انك - على ما أرى - قد سكرت وفقدت وعيك .. فيالك من مأفون ! .. أذهب لتشتري جلد شاة ، فتعود بغير عشاءك ، ومع شريد عريان . كلا ، ليس عندى عشاء لعريدين مثلكما ! »

فقال سيمون : « حسبك ، حسبك يا ماترينا ! لماذا تديرين لسانك هكذا بحماسة ؟ أما كان ينبغي أن تسألينى - أولا - من يكون الرجل ؟ » .. فأجابته قائلة : « حسنا .. هب انك أنبأتى ، فماذا فعلت بالنقود ؟ » . فأمسك سيمون بالعباءة ، وأخرج الروبلات من أحد جيوبها ، وهو يقول : « هذه هى النقود .. ان تروفينوف لم يدفع اليوم ، ولكنه وعد بأن يدفع غدا » .



الا ابن « ماترينا » ازدادت غضبا مع ذلك . فهو لم يات معه بالجلد ، وقد القى مباءتها الوحيدة على ظهر رجل عريان ، وجاء به الى البيت كذلك !

واختطف النقود من على المنضدة ، وجرت لتخفيها وهى تقول : « ليس عندى عشاء لكما .. ليس بوسعى أن أقدم الطعام لكل عبيد عريان يأتى الى هنا » . فقال سيمون : « امسكى لسانك يا ماترينا ، وأتيجى لى فرصة اوضح لك فيها الامرا » . ولكنها صاحت : « ياى احساس يمكن للانسان أن يستمع الى سكير مجنون ؟ .. لقد كنت على حق حين آبيت - فى البداية - أن اتزوج حيوانا عريدا مثلك ! .. لقد اعطتنى امى بعض الثياب فذهبت انت وشربت بها ! .. وأخذت نقودا لتشتري جلد شاة ، فذهبت وشربت بها كذلك ! »

وقد حاول سيمون هبشا أن يبين لزوجته انه لم يشرب الا بعشرين « كوبيك » ، وان يقول لها أين وجد الرجل الفريب ، الا انها لم تمكنه من أن يقول كلمة واحدة ، وراحت تقاطعه فى كل كلمة ، وتنكأ قروح عشر سنوات .. وراحت تقترب منه ثم تقترب ، حتى انقضت عليه أخيرا وامسكت برذنيه وهى تصيح فيه : « اعطنى سترتى ، فليست املاك غيرها ، وقد سرقتها منى فى الصباح لتلبسها ! .. اعطينيها ايها الوغد الزنيم ، قتلك الله ! »

فسارع سيمون بخلع السترة ، ولكن زوجته لم تنتظره حتى يخرج ذراعيه من كميتها ، وانما تشبثت بها وراحت تنتزعها انتزاعا حتى تفتت مرة أخرى .. وجرت بها ، حتى اذا كانت على وشك أن تغادر الغرفة ، توقفت فجأة ..

فقد بدأ قلبها يلين ، وأرادت - وقد انكسرت حدة غضبها - أن تعرف من كان ذلك الرجل .

- ٤ -

• لهذا وقفت ، وقالت : « اذا كان المرء شريفا ، فانه لا يسير هكذا بلا قميص يستره . ولو أنك كنت أهلا اليوم لأى خير ، لقلت لى فى الحال من اين التقطت هذا الفندور ! » . فأجاب سيمون : « حسنا جدا . سأقول لك ذلك الآن : فحين كنت مارا بالكنيسة ، وجدت هذا الرجل يرقد عريانا . وينتفض من البرد . ولا بد أنك تدركين أننا لسنا فى الصيف حتى يمكن لانسان أن يظل عريانا ، ولولا أن قادنى الله اليه ، لكان قد هلك من البرد . أما وقد رأيته على هذه الحال فقولى لى ماذا كان فى وسعى أن افعل ؟ . . . لقد اخذته ، والبيسته ، وجئت به هنا . هذا كل شئ . فهدئى أعصابك ياماترينا لأن انسياقك وراء الغضب هكذا خطيئة واثم . وتذكرى أننا جميعا لابد أن نموت يوما ما ! » وكانت ماترينا على وشك أن تنفجر نائرة مرة أخرى ، إلا لأنها نظرت الى الغريب وظلت سائلة . وقد كان يجلس هناك على حافة المقعد ، لا يبدى حراكا ، ويداه مشتبكتان على ركبتيه ، ورأسه منكس على صدره ، وعيناه مغلقتان ، ووجهه يتقلص ثم ينبسط كأن شيئا يخنقه أو يلوى أمعاءه . فاستطرد سيمون قائلا : « ماترينا . . أليس ثمة شئ من الله فيك ؟ »

واذ سمعت هذه الكلمات ، رنت مرة أخرى الى الغريب ، وانفطر قلبها - فجأة - من الرحمة والأشفاق . وعادت من حيث كانت عند مدخل الباب ، واتجهت نحو الموقد ،

فأخرجت شيئا من الطعام ، ووضعت ابريق الشاي على المائدة ، وصبت بعض « الكفاس » ، المصنوع من القمح والشعير . وجاءت بآخر قطعة من الخبز . واعطت كلا من الرجلين سلعة وسكينا وقالت لهما : « تناولوا عشاءكما ! » . فهتف سيمون بالغريب قائلا : « اقرب ! » ثم قطع من الخبز واعطاه ، وشرعا يأكلان ، وقد جلست ماترينا عند ركن المائدة ، ورأسها على يدها ، وراحت تنظر الى الغريب . وسرعان ما استشعرت العطف عليه والاسى من أجله . وحين اشرق وجهه فجأة ، واختفت الغضون من بين حاجبيه ، وارتفعت عيناه وابتسم في عينيها ، قفز قلبها بين جنبيها . وبعد العشاء غسلت الاواني ، ثم بدأت تسأله قائلة : « من اين اثبت ؟ »

فاجاب قائلا : « من مكان غير هذا المكان » .
 - اذن كيف سقطت على جانب الطريق ؟
 فاجاب قائلا : « لست املك ان اقول ! »
 فقالت : « فمن اخذ ثيابك منك ؟ »

فقال : « كان الله يعاقبني » .
 فقالت : « ولكنك كنت ترقد هناك عاريا . فاجابها قائلا : « نعم ، كنت أرقد هناك عاريا وانتفض من البرد ، حتى رأتى سينمون وعطف على وخلع رداءه ووضعه على كتفى ، ورجأتى ان أصبح به الى هنا . وهانئذى أعطيتنى مأكلا ومشربا وإبديت نحوى شفقة . فليفعل الله لكما مثلما فعلتما لى ! »

وعندئذ نهضت « ماترينا » ، وأخذت من كوة قميصا قديما لسيمون - هو ذات القميص التى كانت ترفوه - واعطته للغريب . كما وجدت سروالا اعطته اياه ، قائلة :

« أراك بغير ثياب ، فخذ هذه البسها ثم استرح حيث تشاء ... على المقعد أو فوق الموقد ! »

فخلع الغريب العباءة ولبس القميص والسروال ، ونام على المقعد . أما « ماثرينا » فاطقات النور ، وأخذت العباءة ، وذهبت حيث رقدت بجانب زوجها بعد أن غطت نفسها بأطراف العباءة . ولكن النوم لم يطرق جفניה ، لأن الغريب لم يفارق فكرها . وحين تذكرت أنه أكل آخر كسرة لديهم ، ولم يعد ثمة خبز للفد ، وإنها كذلك أعطته القميص والسروال ، شعرت بالضيق .. إلا أنها حين تذكرت - بعد ذلك - إبتسامة الغريب قفز قلبها في داخلها . وقد جفاها التعاس وقتا طويلا ، واذ شعرت أن زوجها كان مسهدا - هو الآخر - لا يفتأ يسحب العباءة فوقه ، همست : « سيمون ! » . فأجابها قائلا : « نعم ! »

- لقد أكلتما آخر كسرة لدينا وليس عندي ما أصنعه .. فلا أدري ماذا سنفعل في الفد .. لأبد من أن أسأل جارتنا « مالاينا » بعض الخبز .

فأجابها سيمون قائلا : « هونى عليك ، فسوف ندبر امرنا لنعيش ، ويكون لدينا ما يكفيننا » . فصمتت بعض الوقت ، ثم قالت أخيرا : « انه ليبذو شابا لطيفا للغاية . ولكن لماذا لم يقل لنا شيئا عن نفسه ؟ » . فقال زوجها : « اعتقد انه لا يستطيع ! »

وعادت تهتف : « سيمون ! » . فعاد يجيب : « نعم ؟ » قالت : « اننا نعطي الآخرين ، ولكن لماذا لا يعطينا نحن أحد ؟ » .. ولم يجد سيمون جوابا ، فقال : « يمكننا أن نتحدث عن ذلك في وقت آخر » . ثم استدار واستغرق في النوم .

- ٥ -

• استيقظ سيمون فى الصباح ، فاذا الاطفال مازالوا نائمين ، وقد خرجت زوجته لتستعر بعض الخبز من الجيران . وكان الغريب - الذى جاء بالامس - يجلس وحيدا على المقعد ، مرتديا القميص القديم والسرwal ، وهو ينظر الى أعلى . وقد ازداد وجهه تألقا وبهاء عما كان بالامس . فقال له سيمون : « حسنا ، يا صديقى الصالح ، ان الامعاء تطلب الخبز ، والجسد يطلب الثياب ، وعلى المرء أن يكسب ثمن الاثنين . فهل تعرف أية حرفة ؟ » . فاجابه الغريب : « كلا ، على الاطلاق » .

ودهش سيمون لذلك ، وقال : « ولكن عليك أن تحاول ، ليس كذلك ؟ . فى استطاعة الانسان أن يتعلم أى شئ لو أراد » . فاجابه : « نعم . ان الناس يعملون ، وسأعمل أنا كذلك » .

وسأله سيمون : « ما اسمك اذن ؟ » . فقال : « ميشيل » .
- حسنا يا ميشيل . انك لم تقل لنا أى شئ عن نفسك ، وهذا شأنك . الا ان علينا أن نكسب عيشنا ، ولو انك فعلت ما اعلمك آياه ، فسوف تجد لدينا ما نأكله .
فقال الغريب : « جزاكم الله خيرا . . . ولسوف أتعلم لو انك علمتنى » .

ومن ثم أخذ سيمون خيطا وعقده بأصبعه قائلا : « ليس العمل بالأمر العسير ، قراقبنى ! » . . . وراح ميشيل يراقبه ، وما لبث أن ربط الخيط على أصبعه وعقده . ثم علمه سيمون بعد ذلك كيف يلحم الجلدة ، ويفرس الأبرة ، ويدخل الخيط . ففهم كل ذلك فى الحال . ولم تمض ثلاثة أيام حتى كان فى إمكانه أن يعمل كما لو كان اسكافا .

طول عمره ، وقد اتقن الفن كل الاتقان .
ولم يكن يأكل الا النزر اليسير ، ولا يستريح الا قليلا ،
وهو ينظر الى أعلا في هدوء .. ولم يكن يخرج أبدا ، او
يتكلم عن نفسه أو يمزح أو يضحك على الإطلاق .. وكانت
المرّة الوحيدة التي شوهد فيها يتنسم هي تلك المرّة الاولى
ليلة مجيئه ، حين أتت اليه « ماترينا » بالعشاء .

- ٦ -

• ومضى الوقت يوما بعد يوم ، وأسبوعا بعد أسبوع ،
حتى انقضى عام بأكمله ، وميشيل يعيش مع سيمون ،
ويعمل له . وقد اشتهر في الاقليم كله بأنه أحذق صانعي
الأحذية جميعا ، وأكثرهم اتقانا لصنعتة . وبدأ الناس
يأتون الى سيمون من كل أنحاء الاقليم لاصلاح أحذيتهم ،
حتى لقد ازداد من جراء ذلك دخله .

وفي يوم من أيام الشتاء ، كان سيمون وميشيل جالسين
يعملان معا ، حين أقبلت زحافة تجرها ثلاثة خيول نحو
الكوخ ، يتعالى رنين أجراسها . فلما اطل صانعا الأحذية
من النافذة رآيا المركبة تقف تجاه الكوخ .. وقفز منها
حارس ، فتح بابا فخرج منه سيد يتدثر بثوب من الفراء ،
واتجه صوب مسكن سيمون ، فارلقى الدرج . وهرعت
« ماترينا » لمقابلته . وفتحت الباب على مصراعيه . فأحنى
السيد رأسه ودخل الكوخ ثم انتصب ثانية ، فاذا رأسه
يكاد ان يلمس السقف . وملأ جسمه الضخم ركنا بأكمله
من الغرفة .

فنهض سيمون وحياه ، مأخوذا بعظمته ، فانه نادرا ما
راي مثل هذا الرجل هناك .. كان هو ذاته أكبر الوجه ،

بينما كان « ميشيل » ضامرا نحيفا ، وكانت « ماثرينا » عجفاء كمركب من الخشب .. اما هذا الرجل ، فقد جاء من عالم آخر بوجهه الاسفنجى الاحمر ، وعنقه الذى يشبه عنق الثور ، وبنيته الحديدية الهائلة . وزفر السيد بعمق ، وخلع رداءه الفرو ، ثم جلس على المقعد وهو يقول : « من منكما صانع الاحذية ؟ » . فتقدم سيمون قائلا : « انا يا صاحب السعادة » .

فصاح السيد الى الحارس الذى يتبعه قائلا : « تيدكا ! هات ما معك هنا ! »

ودخل الحارس ومعه لفافة أعطاها للسيد ، فوضعها هذا على المنضدة قائلا : « فكها ! » . ففعل الحارس . وعندئذ نقر السيد الجلد الذى كان فى اللفافة باصبعه ، وقال لسيمون : « انظر ايها الاسكاف . هل ترى هنا ؟ » . فأجابه سيمون : « نعم يا صاحب السمو !! »

— وهل تعلم ما هو ؟

فنقره سيمون باصبعه ، وأجاب قائلا : « انه جلد جيد » . فصاح السيد قائلا : « جلد جيد بالطبع ! .. ايها الفبي ، ارايت مثل هذا الجلد فى حياتك من قبل ؟ .. انه صناعة المانية ويساوى عشرين روبلا » .

وأجفل سيمون بعض الشيء وتمتم قائلا : « آه . حسنا .. آية فرصة تتيح لنا أن نرى مثل هذا الجلد ؟ » . فقال السيد : « حسنا . حسنا . ولكن هل يمكنك أن تصنع لى حذاء منه ؟ » .. فأجابه : « يمكننى يا صاحب السمو » .

— يمكنك ؟! .. ولكن ، فلتفهم جيدا ماذا انت صانع به . اريد حذاء يعيش سنة . ويجب الا يتشقق أو يفتكك . فاذا كان

في امكانك أن تصنع لى مثل هذا الحذاء ، ابدأ العمل واقطع الجلد الآن حالا . أما اذا لم يكن ذلك في امكانك ، فلا تفعل شيئا . اننى افترض مقدما بأن الحذاء الجديد اذا تشقق أو تلف قبل سنة كاملة ، فسوف ألقى بك فى السجن . أما اذا لم يحدث له ذلك ، فاننى سادفع لك عشرة روبلات نظير عملك !

فتردد سيمون ، ولم يدر ماذا يقول ، وقد نظر الى ميشيل ، ووكزه بكوعه وهو يهمس اليه قائلا : « ماذا ترى أيها الأخ ؟ » . فأجابه ميشيل بأصالة من رأسه ، كانما يريد أن يقول له : « نعم . خذ العميلة » . وأطاعه سيمون فقبل أن يصنع حذاء لايتشقق ولا يتفكك سنة كاملة .



واذ ذاك دعا السيد حارسه مرة أخرى ، وأمره بأن يخلع عنه حذاءه . ومد قدمه اليسرى قائلا : « خذ قياس قدمي ! » . فقطع سيمون شريطا من الورق يبلغ عشرة « فرشوكات » (وهو يساوى ١٨٨ قدم) . ثم ركع ، وجفف يده جيدا فى متزره كى لا يوسخ جورب السيد ، وراح يأخذ قياسه . . فقامس أولا القدم ، ثم المشط . وكان مزعما بعد ذلك أن يقيس بطن الساق ، إلا أن شريط الورق ، لم يكف لأن يلتف حولها ، اذ كانت ضخمة كالعمود . وعندئذ قال السيد العظيم : « حذار أن تجعل الحذاء شديد الضيق عند الساق ! »

فجاء سيمون بشريط آخر من الورق ، وقد جلس السيد وراح يلوى أصابع قدمه داخل الجورب ، والموجودون فى السكوخ ينظرون اليه . وما لبث أن رأى ميشيل ، فسأل

سيمون قائلا : « من هذا الذى معك ؟ » . فأجابته : « هذا هو العامل البارع الذى يشتغل معى ، وهو الذى سيصنع لك حذاءك » . فقال السيد لميشيل : « اسمع أنت الآن .. تذكر هذا الذى أقوله لك .. ينبغي أن تصنع الحذاء بحيث يعيش عاما كاملا ! »

ونظر سيمون الى ميشيل ، فرأى أنه لم يكن ينظر الى السيد ، وإنما راح يحملقي فيما وراءه ، وكأنه كان ينظر الى شخص هناك . وما فتئ هكذا حتى اشرقت على وجهه فجأة ابتسامة أضاعت أساريره بأسرها . فسأله السيد : « لماذا تنظر هكذا أيها المجنون ؟ .. الأحسن لك أن تنتهى من الحذاء حين أريده ! » . فأجاب ميشيل : « ستجده حاضرا فى أى وقت تريده ! »

فقال السيد : « حسنا جدا » ، ثم وضع قدمه فى حذاءه ثانية ، ولبس معطفه الفرو ، وأحكمه حول جسمه ، وتحرك نحو الباب . إلا أنه نسي أن يحنى رأسه ، فارتطم بسدة الباب ارتطاما شديدة ، فحك رأسه وهو يسب ويلعن ، ثم استقل العربة ورحل ..

فقال سيمون : « ياله من حجر صوان ! لقد أوشك أن يقتلع السدة برأسه ، ومع ذلك لم يابه للأمر ! .. » . فأجابت ماترينا قائلة : « كيف امكن أن يكون صلبا هكذا ؟ ان الموت نفسه لا يستطيع أن يأخذ هذا الرجل الذى يشبه مسمارا من حديد » .



• والتفت سيمون الى ميشيل قائلا له : « حسنا ، لقد أخذنا العملية الآن ، وينبغى ألا تقصر فيها ، فانه لجلد لمين ، والسيد سريع الغضب . كلا . ينبغى ألا ترتكب أى

خطأ . وإن لك لعينين واعيتين ، وقد غدت أصابعك بارعة
أيما براعة . فخذ هذه المقاييس واقطع الجلد ، بينما أنا
ارتق هذا الحذاء ! » . فأخذ ميشيل الجلد طائعا ، وبسطه
على المنضدة ، ثم ثناه من وسطه ، وتناول سكيننا ، وبدأ
يقطعه .

وفي هذه اللحظة ، اتفق أن اقتربت « مائرينا » من
ميشيل ، ولحت الطريقة التي يعمل بها ، فدهشت أشد
الدهشة مما رأت ، لأنها كانت على المام كبير بفن صناعة
الأحذية . وقد أدركت في التو أنه يقطع الجلد ، لا على
الهيئة المعهودة في صناعة الأحذية ، وإنما على هيئة شرائح
مستطيرة . ومن ثم أحست بالميل لأن تقول شيئا ، ولكنها
ما لبثت أن فكرت في نفسها قائلة : « لا بد أنني لا أعرف
كيف تنهى صناعة أحذية السادة . ولا بد أن ميشيل يعرف
خيرا مما أعرف . ولذلك فأنى لى أن أدخل » .

حتى إذا انتهى ميشيل من قطع الشريحتين ، أخذ خيطا
وبدأ يخييط الحذاء ، لا من الطرفين - كما هو معهود في
صناعة الأحذية - وإنما من طرف واحد فقط ، كما يخاط
الخف الذى توضع فيه قدم جثة الميت . وازدادت دهشة
« مائرينا » إذ رأت ذلك ، إلا أنها لم تتدخل كذلك ، وظل
ميشيل منهمكا في العمل حتى جاءت ساعة الغذاء . وعندئذ
نهض سيمون ، ونظر إليه ، فوجد أنه صنع من جلد السيد
زوجا من « البوسوفيكى » ، وهو خف الميت ! وتأوه
« سيمون » هلعا ، وفكر في نفسه قائلا : « كيف حدث أن
ميشيل - بعد أن عاش معى سنة كاملة ، لم يرتكب خلالها
غلطة واحدة - يرتكب الآن هذه الغلطة ؟ . لقد أمر السيد
بصنع حذاء متين ، ولكن ميشيل صنع زوجا من البوسوفيكى

واتلف الجلد، فماذا عساي أن افعل مع السيد ؟ .. ليس بوسع الانسان أن يحصل على مثل هذا الجلد كل يوم . « ، ثم قال بصوح مسموع لميشيل : « ماذا فعلت يا صديقى الفاضل ؟ .. لقد اوردتنى مورد التهلكة . فقد أمر السيد بصنع حذاء . فما هذا الذى صنعت انت ؟ »

وشرع فى توبيخه ، لولا أن ارتفع - فى هذه اللحظة - صوت طرقات على الباب ، واطلوا من النافذة ، فراوا رجلا يترجل عن حصانه ويربطه . ثم ما لبث أن فتح الباب ودخل الحارس اثنى رافق السيد ، قائلاً : « طاب يومكم ! » فقالوا : « طاب يومك ، اية خدمة يمكننا أن نقدم لك ؟ » . فأجاب قائلاً : « ان سيدتى ارسلتنى بشأن الحذاء ! »

فقالوا معاً : « نعم . ماذا عن الحذاء ؟ » . فأجاب : « ان سيدى لن يحتاج اليه بعد . فقد مات منذ حين » . واذا ذاك صاحوا : « ماذا تقول ؟ » . فأجاب :

- انها الحقيقة . لقد مات فى العربة وهو عائد الى البيت من كوخكم . وقد كنا - حين وصلنا - نوشك ان نعيه على النزول ، الا أنه انزلق الى الارض ككيس الدقيق ، ولغظ النفس الاخير ، وتمدد ميتا ، فرفعناه بصعوبة عظيمة من على الارض ، ومن ثم قالت لى سيدتى : « اذهب وقل لصانع الأحذية ان السيد الذى طلب صنع الحذاء ، وترك الجلد لذلك ، لن يحتاج اليه ، فليصنع منه خفا لجنته ، بأسرع ما يمكن ! » . وقالت لى : « انتظر عنده حتى يصنعه ، وعد به » .. ومن ثم بادرت بالحضور لغورى .

فجمع ميشيل قطع الجلد من على المنضدة ، ولفها فى حزمة ، ثم أخذ الخف الذى كان موضوعاً وقد تم صنعه ،

وخاط أحدي فردتيبسه في الاخرى ، ثم مسح بمشره ،
واعطاه الرجل ، فآخذه هذا وانصرف قائلا : « طاب يومكم
يا سادة ، وحظا سعيدا ! »

- ٨ -

• ومضى عام آخر ، ثم عامان آخران .. اكمل ميشيل
ست سنوات مع سيمون . وكان يعيش طيلة الوقت كما
كان أولا . فلم يكن يغادر البيت أبدا ، ولم يكن يتكلم عن
نفسه أبدا ، ولم يبتسم الا مرتين اثنتين منذ أن جاء الى
البيت : الأولى حين قدمت اليه الزوجة الفاضلة العشاء
ليلة وصوله ، والثانية اثناء وجود السيد الفنى هناك .
وكان سيمون مسرورا جدا بذلك الرجل الذى راح
يعمل معه ، ولم يعد يسأله من أين جاء . وكان جل خوفه
ينحصر في أن يذهب ثانية ويتركه .

وذاث يوم ، كانوا يجلسون معا في البيت ، والزوجة
الفاضلة تلحم قطعة حديد على الموقد ، في حين اعتلى الأطفال
المقاعد وراحوا يتطلعون من النوافذ .. وكان سيمون
يرسم ، وميشيل يثبت كعبا في حذاء .. وفجأة قفز الولد
الصغير من فوق المقعد على ميشيل ، وهو يتكلم
على كتفه - يتطلع من النافذة ، ثم صاح : « انظر يا عمي
ميشيل ! .. هناك سيدة وفتاتان في طريقهن الى كوخنا ،
واحدى الفتاتين عرجاء ! » . وما أن قال الولد الصغير
ذلك ، حتى ألقى ميشيل بها في يده جانبا ، واسرع الى
النافذة ، ونظر الى الطريق .

وقد دهش سيمون لذلك . فان ميشيل لم يسبق له
أبدا أن نظر الى الخارج . ومع ذلك ، فقد التصق بالنافذة

- فى هذه المرة - وراح يحرق فى شىء ما . فنظر سيمون كذلك ، ورأى سيدة تتجه مباشرة نحو الفناء الامامى . وكانت حسنة اللبس ، تقود ابنتيها الصغيرتين ، وقد ارتدت كل منهما سترة من الفرو ، ووضعت شالا على راسها . وكانت البنتان متشابهتين بدرجة يصعب معها تمييز احدهما عن الأخرى . الا ان عيبا كان يشوب القدم اليسرى لاحدهما ، فكانت تخرج فى سيرها .

وصعدت السيدة درجات السلم ، حتى اذا بلغت عتبة الباب ترددت قليلا ، ثم ادارت المقيض ودخلت ، وهى تدفع الصغيرتين امامها ، قائلة : « طاب يومكم يا سادة » . فقال سيمون : « عفوك يا سيدتى .. اية خدمة يمكننا ان نقدمها اليك ؟ »

وجلست السيدة الى الخضدة ، فى حين التصفت الفتان الصغيرتان بركبتيهما . وراح ساكنو الكوخ ينظرون اليهما فى فضول . وما لبثت السيدة أن قالت : « أريد زوجا من الباشماكى (وهى احذية الاناث) لكل من هاتين البنتين الصغيرتين ، لفصل الربيع » . فقال سيمون : « حسنا جدا يا سيدتى . لم يسبق لنا أن صنعنا مقاسات صغيرة كهذه من قبل ، الا أن فى امكاننا ان نصنعها . ولك ان تختارى ما اذا كان الحذاءان من الجلد الخالص ، أو الجلد المبطن بالقماش .. وهاهو ذا ميشيل .. الصانع الماهر الذى يعمل معى » .

والتفت سيمون حينئذ الى ميشيل ، فرآه قد القى بالعمل - الذى كان فى يده - جانبا ، وجلس ينظر بعينين ثابتتين الى البنتين الصغيرتين . فتوكله الدهشة : كانتا تبدوان - حقا - جميلتين ، بعيونهما السودا المستديرة ،

ووجنائهما المتوردة ، وستريتهما الأنيقتين . الا انه - مع ذلك - لم يستطع أن يفهم لماذا راح ميشيل ينظر اليهما هكذا ، كأنما كان يعرفهما من قبل . بيد أن سيمون ، راح يتحدث مع السيدة عن الحذاءين اللذين تريدهما ، حتى اذا انتهى من ذلك ، راح يعد شريطا من الورق لقياس قدمي الفتاتين . وهنا رفعت السيدة الفتاة العرجاء الى ركبتيها قائلة : « خذ قياس هذه الفتاة ، واصنع فردة لقدمها الملتوية ، وثلاث فردات عادية متساوية القياس لأن الطفلتين توأمتان ! »

فأخذ سيمون القياس ثم أشار الى الطفلة قائلا : « ما الذى اصاب قدمها ؟ .. انها لسيدة صغيرة جميلة ! .. هل ولدت هكذا ؟ » . فأجابته السيدة : « كلا ، وانما هرستها امها »

وعندئذ اقتربت « ماترينا » - وهى تتطلع لأن تعرف من هى السيدة ومن البناتان - قائلة : « فانت اذن لست امهما ؟ » . فأجابتها قائلة : « كلا يا سيدتى ، فهما - فى الحقيقة - لاتمتان لى بأية قرابة على الاطلاق ، وانما تبنيتهما » .

فقالت ماترينا : « انك لست امهما ، ومع ذلك يبدو انك تحبينهما حبا جما » .

فأجابتها قائلة : « كيف يمكن الا أحبهما وقد ارضعتيهما ؟ .. لقد كان عندى - فى يوم من الايام - طفل من دمي ولحمي ، وقد اخذه الله اليه .. ومع ذلك فانى لم أحبه بدرجة حبي اياهما ! »

- ٩ -

« وتساءلت « ماثرينا » : « وابنتا من هما ؟ » .. اذ ذاك
فتحت السيدة قلبها ، وقصت القصة التالية :
(« منذ ست سنوات ، فقد لهاتين الطفلتين إن تفقدا
أباهما وأمهما ، فى أسبوع واحد . فقد دفن أبوهما يوم
الثلاثاء ، وماتت أمهما يوم الجمعة الذى أعقبه . نعم ..
مكثتا بغير أب ثلاثة أيام . وفى اليوم الثالث ، ماتت أمهما
كذلك . وكنت - فى ذلك الوقت - أعيش مع زوجى فى
الريف ، بجوارهم .. فقد كان فناء منزلينا متلاصقين .
وكان أب هاتين الطفلتين فلاح يعيش من كده وجده .
وحدث أن كان يعمل ذات يوم فى القنابة ، فسقطت عليه
شجرة وقضت عليه فى الحال . وحملت جثته الى بيته .
وكانت زوجته قد ولدت فى ذلك الأسبوع توأمتين ، هما
هاتان الفتاتان . وقد ولدتا فى الشقاء والوحدة : فلم تكن
مع أمهما امرأة أخرى لا عجوز ولا شابة ، لتعتنى بها . كانت
وحيدة حين رقدت فى الفراش ، وكانت وحيدة كذلك حين
ماتت !

« واتفق فى الصباح التالى ان ذهبت لازورها أداء لواجب
الجوار ، فما ان دخلت الكوخ ، حتى رايت المرأة المسكينة
ميتة - وقد تصلب جسمها وبردت أطرافها ، وسقطت
- وهى فى سكرات الموت - على احدى الطفلتين فهرست
قدمها . وعندئذ أرسلت فى طلب النجدة .. وغسلوا الجثة ،
وأرقدوها فى تابوت ، ثم دفنوها . ولكن ، ما نصير الطفلتين
الييتيميتين ؟ .. من يأخذهما ؟ .. كنت الوحيدة - بين
النسوة - أَرْضِعُ طفلا ولد قبل ثمانية أسابيع .. ذلك كان
طفلى الأول . ومن ثم فقد تكفلت بالطفلتين كذلك ، بعد

أن تناقش الفلاحون فيما ينبغي أن نصنع بهما. وقالوا لى :
« خديهما عندك الآن يا ماريبا ، حتى نقرر فى أمرهما شيئا » .
وقد بدأت أرضع الطفلة غير المصابة وحدها ، اذ لم أتوقع
أن تعيش الأخرى . الا أننى ما لبثت أن قلت لنفسى : « لماذا
أترك روح هذا الملاك الصغير حتى تذبل ؟ » . ورحت
أرضعها - هى الأخرى - وأنا ممثلة بالحنان نحوها ..
وأخذت أضعها - مع اختها وطفلى - على صدرى . وكنت
اذا ذاك شابة وقوية وقادرة على الارضاع ، وقد ملا الله يديى
بالبن حتى فاضا . فكنت أرضع اثنين منهما معا ، بينما
يرقد الثالث منتظرا ، حتى اذا اكتفى واحد من الاثنين ،
أخذت الثالث وأعطيته ليدى . ومع ذلك ، شاء الله أن
أظل أرضع هاتين الطفلتين حتى تكبرا ، وأن أدفن طفلى
أنا خلال عامه الثانى . ولم يعطنى الله طفلا آخر بعد ذلك ،
وقد ازداد - فى ذات الوقت - دخلى ، فانا الآن أظن عند
الطاحونة هنا مع الطحان ، وأعيش عيشة هائلة رخية ، الا
أننى - واأسفاه - لم أوت أطفالا من أحشائى . فكيف
يمكننى أن احتمل الحياة وحيدة ، بدون هاتين الصغيرتين ؟
وماذا يبقى لى بعدهما لأحب وأعتنى به ؟ أننى لا أستطيع
أن أفكر فى ذلك ، لأنهما لى كالشمع للشهمدان ؟ »
وجدبت السيدة باحدى يديها الطفلة المرجاء ، وباليـد
الأخرى مسحت الدموع عن وجنتيها . ثم أضافت قائلة :
« يقينا ، أنه لحق قول القائل أننا بدون أب أو أم قد نعيش ،
ولكننا بدون الله لا يمكن أن نعيش ! »
وبعد أن تحدثوا هنيهة ، نهضت السيدة لتنصرف ، وقد
رافقها الجميع الى الباب .. حتى اذا التفتوا الى ميشيل ،
راوه جالسا - ويداه مشتبكتان على ركبتيه - يحرق أمامه
فى ثبات ، وابتسم !

- ١٠ -

♦ واقترب منه سيمون ، وقال له : « ماذا هناك يا ميشيل ؟ » . فنهض عن مقعده ، ونحى العمل الذى بيده جانبا ، ثم خلع مئزره ، وانحنى أمام السيد وزوجته قائلا : « سامحانى يا سيدى ويا سيدتى . لقد سامحنى الله ، فهل تسامحانى انتما كذلك ؟ »

وعندئذ أبصر سيمون وزوجته النور يشع من ميشيل ، فانحنى سيمون أمامه حتى كاد يمس الأرض ، وقال : « يا ميشيل . انى أراك أكثر من مجرد انسان ، ولن أقف فى وجهك ، ولن أسألك ، ولكن .. قل لى شيئا واحدا : لماذا - حين وجدتك أول الامر ، وجئت بك الى هنا - كنت مكتئبا ، حتى اذا قدمت لك زوجتى العشاء ، ابتسمت وغدوت عندئذ أكثر بهاء ؟ .. ثم ، لماذا ابتسمت مرة أخرى ، حين كان السيد الفنى يأمرنا بصنع الحذاء ، وغدوت أكثر بهاء منك فى المرة السالفة ؟ .. وأخيرا ، لماذا ابتسمت للمرة الثالثة - وغدوت أكثر بهاء ، حين جاءت السيدة بالطفتين ؟ .. قل لى يا ميشيل ، لماذا ابتسمت فى هذه المرات الثلاث ، ولماذا يشع هذا النور منك الآن ؟ »

فأجاب ميشيل قائلا : « هذا النور يشع منى الآن لأننى عوقبت ، وقد صفح الله عنى ثانية . وقد ابتسمت فى هذه المرات الثلاث لأنه كان ينبغى أن أعلم ثلاث كلمات من كلام الله . وهذه الكلمات الثلاث تعلمتها الآن . الكلمة الأولى تعلمتها حين عطفت زوجتك على . لذلك ابتسمت فى المرة الأولى . والكلمة الثانية تعلمتها حين كان الرجل الفنى يأمر بصنع الحذاء . لذلك ابتسمت فى المرة الثانية . والكلمة الثالثة والأخيرة تعلمتها الآن حين رأيت الفتاتين الصغيرتين ؛

وحينئذ قال سيمون : « قل لى كذلك يا ميثيل : لماذا عاقبك الله ، وما هى هذه الكلمات الثلاث من كلام الله ، حتى اتعلمها أنا ! » . فأجاب ميثيل قائلا : « لقد عاقبنى الله لاننى عصيته . كنت ملاكا فى السماء ، وعصيت الله . فقد بعث بى الى الارض لآخذ روح امرأة ، فطرت الى الارض ، وهناك رايت المرأة راقدة مريضة ، وقد ولدت فى الحال نوامتين . وكانت الطفلتان تتحركان بجانب امهما ، ولكنها لا تعلم ان تعطيهما ثدييهما ، فصاحت باكية : « يا ملاك الرب ، لقد دفنوا منذ قليل زوجى الذى قتلته شجرة فى الغابة . وليس لى أخت ولا عمّة ولا جدة ، فليس ثمة من يعول صغيرتى . لا تأخذ روحى ، واتركنى أرضع الطفلتين وأربيهما ، واجعلهما تقفان على أقدامهما . ان الصغار لا يمكنهم ان يعيشوا بلا أب ولا أم ! » . فاصغيت للأم ، ووضعت طفلا من طفليها على صدرها ، ووضعت الثانى بين ذراعيها وصعدت ثانيا الى الله فى السماء . طرت الى الله ، وقلت : « لا يمكننى ان اقبض روح تلك الام ذات الطفلتين . ان الاب قد قتلته شجرة . وقد ولدت الام - فى الحال - نوامتين ، وقد تضرعت الى الّا آخذ روحها قائلة : دعنى أرضع الطفلتين وأربيهما ، واجعلهما تقفان على أقدامهما . ان الصغار لا يمكنهم ان يعيشوا بلا أب ولا أم . وعلى ذلك لم آخذ روح الام » . وعندئذ قال الله لى : « اذهب واقبض روح هذه الام ذات الطفلتين ، وسوف تتعلم ثلاث كلمات : سوف تتعلم ما يسكن فى الناس ، ومالم يوهب للناس ، وما يحيا به الناس . . . » . حين تتعلم هذه الكلمات سوف تعود الى السماء » . وعلى ذلك طرت عائدا الى الارض ، وقبضت

روح المرأة ذات الطفلتين . وقد انزلت الطفلتان عن ثدييها ، وارتمى الجسد الميت على السرير ، فطمم احدى الطفلتين وهرس قدم الاخرى . وبعد ذلك صعدت فوق القرية ، وحاولت أن أحمل الروح الى الله ، ولكن ريحا دهمتنى فاذا جناحاي ينفصلان عنى ويتطوحان بعيدا ، فى تلك الاثناء . وعادت الروح وحيدة الى الله . اما انا فسقطت الى الارض مرة اخرى على جانب الطريق » .

- ١١ -

والآن وقد فهم « سيمون » و « ماتريينا » - اخيرا - حقيقة ذلك الذى اوباه وكسياه واطعماه ، بكيا رهبة وقرحا . ولكن الملاك استرسل قائلا :

« وهكذا تركت عريانا وحيدا فى الارض الجرداء . ابدا ما عرفت من قبل احتياجات البشر . . ابدا ما عرفت من قبل البرد والجوع ، فاذا بى أصبح بشرا ، وارتجف من البرد والجوع ، ولا أعرف ماذا أفعل . وعندئذ رأيت على جانب الطريق كنيسة مبنية من اجل الله ، فاقتربت من مبنى الرب ، يساورنى الامل فى أن اجد لى هنالك مأوى . ولكنها كانت مغلقة موصدة ، فلم استطع دخولها . وجلست قبالتها احتمنى بها من الريح . وجاء المساء ، وشعرت بالبرد والجوع ، وبالالم يفرى كل جسدى . وفجأة اصفيت . فهنا هو ذا رجل مقبل عبر الطريق ، يحمل حذاء فى يده ، ويكلم نفسه . وحينذاك - للمرة الاولى منذ أصبحت بشرا - ابصرت وجه رجل يشبه الاموات ، وقد بدا لى هذا الوجه مخيفا ، فادرت وجهى عنه . ولكنى - اذ فعلت ذلك - سمعت الرجل يكلم نفسه متسائلا كيف يمكنه أن يحمى

جسده من برد الشتاء ، ويطعم زوجته وأطفاله . ففكرت في نفسي قائلاً : « ها انذا اهلك من البرد والجوع ، وهذا - في ذات اللحظة - رجل يفكر متسائلاً كيف يكسو نفسه وزوجته بالجلد ؟ وكيف يطعم نفسه واسرته بالخبز ! .. بوسمعي بالتأكد ان أسأله العون » .. وفي هذه اللحظة رأى الرجل ، فقد حاجبيه ، واصبح شكله مخيفاً اكثر من ذي قبل ، ومضى . فتملكنى اليأس . على اننى فجأة سمعته يعود ، فنظرت امامى . ومع اننى كنت لا اكاد اراه ، الا اننى تبينت انه - من قبل - كان يحمل على وجهه معالم الموت ، اما الآن فقد عادت الى وجهه الحياة ، وفي هذا الوجه رايت الله ! .. وقد جاء الرجل الى ، والبسنى ، واخذنى معه الى بيته . فلما دخلت البيت ، قابلتنا امرأة ، وبدأت تتكلم . فبدت لي المرأة اكثر بشاعة مما كان الرجل .. كانت الانفاس الخارجة من فمها كأنفاس جيفة ، فكدت اختنق من رائحة الموت التى تنبعث منها . كانت تريد ان تلقى بى الى البرد مرة اخرى ، وكنت أعلم انها - ان قطعت - موقاً تموت . الا أن زوجها ما لبث أن ذكرها بالله ، فاذا بها في لحظة تغيرت .. حتى اذا قدمت لنا بعد ذلك العشاء ، وجلست تنظر الى ، نظرت اليها بدورى ، فاذا بى لا ارى أثراً للموت في وجهها ، وانما تمثلت الحياة .. وفي هذا الوجه رايت الله !

«وعندئذ ، تذكرت الكلمة الاولى من كلام الله حين قال لى : « سوف تتعلم ما يسكن فى الناس » .. وعلمت ان مايسكن فى الناس هو الحب . وقد شعرت بالفرح لان الله رأى ان يظهر لى ما وعدنى به . ولذلك ابتسمت اول مرة . ولكننى لم اكن بعد قد تعلمت كل ما ينبغى ، اذ كان على ان اتعلم كذلك « ما لم يوهب للناس » ، و « ما يحيا به الناس » .

« ومن ثم فقد جئت لأعيش معكم . وبعد أن مكثت هنا سنة ، جاء رجل وأمر بصنع حذاء .. حذاء يعيش سنة كاملة دون أن يتشقق أو يتفتق . فلما نظرت إليه فجأة ، رأيت خلف كتفه زميلى ملاك الموت . لا أحد غيرى رأى ذلك الملاك ؛ وقد عرفته ، وعرفت كذلك أن الشمس لن تغيب قبل أن تقبض روح هذا الرجل . ففكرت فى نفسى قائلاً : « ها هو ذا رجل يأخذ حيطته لعام قادم ؛ ولا يعلم أنه لم يبق من عمره ما يحياه حتى مجيء الليل » . وعندئذ تذكرت كلمة الله الثانية حين قال لى : « سوف تتعلم ، ما لم يوهب للناس ! »

« وهكذا تعلمت من قبل ما يسكن فى الناس ، والآن كذلك تعلمت ما لم يوهب للناس : لأنه لم يوهب للناس أن يعرفوا ما هو مقدر لأجسادهم . وعندئذ ابتسمت لثانى مرة ، لأننى اذ رأيت زميلى الملاك ، أدركت أن الله قد كشف لى كلمته الثانية ..

« الا اننى لم اكن بعد قد تعلمت الكلمات كلها . فقد كان على بعد ذلك أن أتعلم ما يحيا به الناس . وعلى ذلك عشت وترقبت الوقت الذى يشاء الله أن يكشف لى فيه كلمته الأخيرة . حتى اذا كانت السنة السادسة لى معكم هنا ، جاءت امرأة مع فتاتين توأمتين . وعندئذ تذكرت الفتاتين ، وعلمت أنهما قد بقيتا على قيد الحياة . واذ عرفتهما ، فكرت فى نفسى قائلاً : « لقد تضرعت أمهما الى من أجلهما ، وقد استمعت إليها حاسباً أن الصغيرتين بلا أب ولا أم لا بد أن تموتا .. الا أن هذه المرأة - وهى غريبة عنهما - أرضعتهما وربتهما » .. وحين رأيت المرأة تحنو على الطفلتين ، وتلوف الدمع من أجلهما ، رأيت فيها الله الحى ، وعلمت ما يحيا به

الناس . وبهذا عرفت أن الله قد كشف لى كلمته الثالثة والاخيرة ، وصفح عنى . . ولذلك ابتسمت للمرة الثالثة .

- ١٢ -

• وفجأة ، تجردت هيئة الملاك من الملابس : واكتسى كله بالنور ، حتى أن العين لم تكن تحتل أن تنظر اليه ، وازداد صوته جلالا وكأنه كان ينبعث من السماء ذاتها - وليس من فمه - وهو يقول :

« نعم . تعلمت أن كل انسان يحيا ، لا بالتفكير فى نفسه ، وانما بالحب !

« ان المرأة ذات الاطفال ، لم توهب معرفة ما هو لازم للمحافظة على حياة طفلها . والرجل الفنى لم يوهب أن يعلم ما هو مقدر لجسده . . كذلك لم يوهب أى انسان أن يعلم ما اذا كان الذى يلزمه - قبل أن تقرب الشمس - حذاء لجسده الحى ، او خف لجسده الميت .

« حين كنت بشرا ، حفظت لى حيلتى ، لا بالتفكير فى نفسى ، وانما بالحب الذى سكن عابر الطريق وزوجته ، حتى امكنهما أن يشعرا نحوى بالشفقة والعطف . . واليتيمتان كذلك ، حفظت لهما حياتهما ، لا بأى تفكير بشأنهما ، وانما بالحب الذى سكن فى قلب امرأة غريبة ، حتى امكنها أن تشعر نحوهما بالشفقة والعطف . . لأن كل الناس يحيون - فى الحقيقة - لا بالتفكير فى انفسهم ، وانما بالحب الذى يسكن فى البشرية كلها .»

« لقد علمت من قبل أن الله أعطى الناس الحياة ، وانه سيحفظ الحياة لهم ، ولكننى الآن فهمت شيئا آخر . . فهمت أن الله لن يحفظ الحياة للناس - وهم متباعدون أحدهم عن

الآخر - لأنه لم يكشف لهم ما هو لازم لكل منهم بمفرده .
 وانما يحفظ الحياة لهم متحدين جميعا ، لأنه كشف لهم
 ما هو لازم لهم ولذويهم معا ، فقط . . نعم . أخيرا فهمت
 أن الناس يحيون بالتفكير في انفسهم حسب الظاهر . فحسب ،
 وانما الحقيقة انهم يحيون بالحب وحده . من يثبت في الحب
 يثبت في الله والله فيه . لأن الله محبة » .



ورتل الملاك تسبيحة حمد لله ، وقد ارتج الكوخ من
 نبرات الصوت . . ثم انشق السقف نصفين ، وانطلق عمود
 نار من الارض الى السماء ، فخر سيمون وزوجته وأطفاله
 على وجوههم ساجدين في تعبد وقنوت . وفي هذه اللحظة
 انبثق للملاك جناحان ، وانطلق الى السماء .
 وحين فتح سيمون عينيه بعد هنيهة ، رأى الكوخ وقد
 عاد كما كان من قبل ، ولم يكن ثمة أحد الا اهل بيته ۞

« اعقل من الكبار ! »

« ان لم تكونوا كالاطفال الصغار ،
فلن تدخلوا ملكوت السموات » .

♦ جاء الاسبوع المقدس مبكرا ، وقد انتهى بالكاد اوان استعمال مراكب الجليد ، وما زال الثلج متراكما في الافنية ، او منصهرا ينساب في جداول نحو شارع القرية ، وقد تجمعت منه بركة كبيرة في الطريقة الواقعة بين فناءين . . ومن هذين الفناءين انطلقت فتاتان صغيرتان ، احدهما فكبر الأخرى قليلا . . كانت أم كل منهما قد البستها - في التو - ثوبا قشيبا ، فالصغرى البستها أمها ثوبا أزرق ، والكبرى البستها أمها ثوبا أصفر موشى . وقد ربطتا منديلين أحمرين على راسيهما ، وخرجتا بعد الغداء ، ووقفتا على جانبي البركة . . وبدأت كل منهما - أول الأمر - تدعو الأخرى لرؤية ثوبها الجميل . ثم راحتا بعد ذلك تلعبان .

وخطر لهما ان تخوضا البركة . وبدأت الصغرى تفعل ذلك ، فاندفعت الى البركة بحذاءيها وكل ملابسها . فصاحت الكبرى قائلة لها : « لاتفعل ذلك يا مالاأش ، والا تهرتك أمك . . اخلعي حذاءيك أولا . . وسافعل أنا كذلك ! » . ومن ثم

أصل عنوان هذه القصة : « قد يكون الاطفال اعقل من ابائهم ! »

خلعتا حذاءيهما ، وثنيتا رداءيهما ، وخاضتا فى البركة من جانبيها المتقابلين . وقد توغلت مالاشا حتى رسفيها ، ثم صاحت قائلة : « انها عميقة جدا يا عزيزتى اكولكا .. اننى خائفة . » ، فاجابتها الاخرى قائلة : « كلا . كلا . انها لن تزداد عمقا ، فتعالى راسا ناحيتى » . ومن ثم اقتربت كل منهما من الاخرى . ثم قالت اكولكا : « على مهلك يامالاشا ، ولا تشرى الماء على .. على مهلك ! »

ولم تكذب تفوه بهذه الكلمات ، حتى ضربت مالاشا الماء برجليها فتناثر على ثوب « اكولكا » ، وغطاه بالوحل كله ، واصاب عينيها وانفها .. ففضبت « اكولكا » من « مالاشا » غضبا شديدا ، وجرت نحوها تريد ان تضربها .. الا ان اللعز كان قد تولى مالاشا ، اذ رأت ما سببته من تلف ، فقفزت خارجة من البركة ، وانطلقت هاربة الى منزلها . وتصادف ان كانت ام « اكولكا » مارة فى الطريق ، فرائت ابنتها وقد تلطخ ثوبها كله بالوحل ، فسالتها قائلة : « ماذا فعلت حتى صرت قلدة هكذا ابنتا البنت الشريفة ؟ » ، فاجابتها ابنتها الصغيرة : « لقد رشتنى مالاشا .. انها فعلت ذلك متعمدة ! » .. فامسكت ام اكولكا بمالاشا ، وصفعتها صفعة شديدة ، جعلتها تملا الشارع ببكائها وصراخها ، فخرجت امها على صوتها ، وصاحت غاضبة فى جارتها : « لماذا تضربين طفلى ؟ »

وراحت الراءتان تتبادلان السباب ، فخرج الفلاحون من اكوخهم وتجمعوا حولهما . واخذ الجميع يصيحون ، وما من احد يسمع ، حتى كاد الشجار ان ينشب بينهم . وعندئذ ظهرت امرأة عجوز - وهى جدة اكولكا - وراحت تصيح محتجة ، وهى تجرى وسط الفلاحين قائلة : « ايها القوم

الصالحون ، اهكذا تفعلون في الاسبوع المقدس ؟ .. انه لاخلق بكم أن ترفعوا الشكر لله ، لا أن تجتمعوا على الشر هكذا » .. ولكن الفلاحين لم يستمعوا اليها ، ودفعوها جانبا ..



وبينما كان الجميع يتشاجرون ، دخلت «أكولكا» وجفت ثوبها ، ثم خرجت ثانية الى البركة في الطريق ، والتقطت حجرا صغيرا مدببا ، وبدأت تحفر الأرض لتصنع قناة صغيرة عند حافة البركة . وبينما هي تفعل ذلك ، انضمت اليها مالاشا ، وبدأت تساعد في الحفر بقطعة من الخشب . وكان الفلاحون مافتنوا يتشاجرون ، حين اتسابت اليها من البركة في القناة الصغيرة التي حفرتها الفتاتان ، وتدفقت الى حيث تجمع الفلاحون . وجاءت الفتاتان مندفعتين من الزقاق ، كل منهما على جانب من جانبي المجرى الصغير .. وصاحت أكولكا : « كفى يا مالاشا ! كفى ! » .. وحاولت مالاشا كذلك أن تقول شيئا ، ولكنها لم تتمكن وهي تكظم الضحك .

ثم انطلقت الصغيرتان تجريان وتضحكان على الخشبة التي كانت تتمايل كالركب في القناة ، واندفعتا وسط الفلاحين . فما رآتهما العجوز حتى صاحت في المراتين المتشاجرتين : « الا تحترمان الرب قليلا ؟ .. ها انتما متماسكتان تتشاجران بشأن هاتين الصغيرتين ، في حين انهما نسيتا الامر كله من وقت طويل ، وهاهما تلعبان معا في سلام ووثام . انهما اعقل منكما ! »

فنظرت المتشاجرتان للبنتين الصغيرتين ، وخجلتا من نفسيهما ، في حين انفجر الفلاحون جميعا ضاحكين من حماقتهم ، وتفرقوا في أكواخهم .

لهدهم والناس!

♦ كان اهل (باتاجونيا) يتداولون فيما بينهم القصة التالية :

في البدء ، خلق الله الناس في غير حاجة لان يعملوا او يهيئوا لانفسهم المسكن او اللبس او المأكل . وكانت حياة الانسان محددة بمائة عام ، ولم يكن يصيبه المرض .

ومضى الزمن .. فلما اطل الله على العالم ليرى حال البشر ، وجد انهم — بدلا من ان يفرحوا بنصيبهم — راحوا يتخاصمون ، ولا يفكر كل منهم الا في نفسه ، حتى ان الحياة لم تعد — كما كانوا يحيونها — نعمة ، بل تحولت الى نقمة . فقال الله في نفسه : « ان علة هذا انهم يعيشون متفرقين ،

ولا يحيا كل منهم الا لنفسه » . ولكي يضع حدا لهذا قرر ان يجعل حياتهم مستحيلة ان لم يكدوا ويعملوا ، فان ارادوا ان يتجنبوا غصة البرد والجوع ، فليبنوا لانفسهم مساكن ، وليفلحوا الارض ، ويرعوا القطعان والسائمة .

وقال الله لنفسه : « ان العمل سيوحد بينهم ، فما من انسان يستطيع بمفرده ان يقطع الاخشاب ، او يبنى المساكن ، او يصنع الادوات ، او يزرع او يحصد ، او يغزل او ينسج او يحيك الثياب .. ومن ثم ، فسوف يضطر الناس لان يدركوا انهم بقدرة ما يتعاونون يزداد انتاجهم وتسهل حياتهم .. ولن يمكن لغير العمل ان يوحد بينهم » !

العنوان الاصلي لهذه القصة : « العمل والموت والمرضى » :

ومضى الزمن .. واطل الله - مرة أخرى - على العالم ، كى يرى ماذا يفعل البشر ، وما اذا كانوا قد أصبحوا راضين بنصيبهم .. فإذا به يجدهم يعيشون فى أسوأ من الحال الاولى . كانوا حقا يعملون معا ، ولكن لأنهم لم يكونوا يستطيعون الا ذلك .. على انهم لم يكونوا جميعا معا ، اذ انقسموا الى جماعات ، كل جماعة منهم تحاول أن تلقى عبء عملها على عاتق الاخرى . ومن ثم فقد ظل الصراع فيما بينهم مستمرا : والوقت والجهد فى ذلك ضائع .. هكذا كانت حالهم جميعا .



واذ رأى الله ذلك ، قرر ان يحرم الناس من معرفة اللحظة المتدرة لوتهم : بحيث يكون من المحتمل ان ياتيهم الموت فى أية لحظة من لحظات العمر ، بعد ان كان مقررا للحياة مائة سنة محددة . وقال الله لنفسه : « ان الناس حين يعرفون انهم قد يموتون فى أية لحظة ، سيصيرون اكثر حرصا على حياتهم المهددة على الدوام ، فلا يشور الواحد منهم على الآخر ، معرضا للخطر حياته التى قد لا يكون نصيبه منها الا ساعات معدودات ! »

ومع ذلك ، فقد سارت الأمور بالعكس تماما . اذ ان الله حين اطل على العالم - بعد ذلك - ليرى ما يفعل الناس ، وجدهم فى أسوأ حال .. كان بعضهم أقوى من سواهم ، ومن ثم استطاع الاقوياء ان يستفيدوا من احتمال مجيء الموت فى أية لحظة ، كى يرهبوا الضعفاء ، فأخذوا يقتلونهم بغضا منهم ، ثم يهددون بالقتل باقيهم ، ان لم يرضخوا لمشيئتهم .

وهكذا ظهر فى الحياة نظام جديد ، يخلد فيه الاقوياء

واتباعهم الى الراحة ، فلا يعملون على الاطلاق .. ويساق الضمءاء قسرا لان يعملوا فوق طاقتهم ، فلا يدقون طعم الراحة ابدا . وما فتئت كل من هاتين الطبقتين تخاف الاخرى وتكرهها ، حتى اصبحت الحياة انعس منها فى اى وقت مضى .

وما ان رآى الله كيف تجرى الامور ، حتى قرر ان يلجأ لآخر دواء يعالج به حال الناس .. فارسل اليهم كل انواع الامراض ، قائلا فى نفسه انهم حين يقعون تحت وطأة المرض ، قد يقتنعون بأن الرجل السليم يجب أن يشفق على المريض ويعينه ، حتى اذا مرض هو ذاته وجد من يشفق عليه ويعينه .



ثم ترك الله الناس بعض الوقت .. الا انه حين اطل — بعد ذلك — على العالم ، كى يرى كيف تجرى الامور ، وجد أن الناس — منذ أن أصبحوا عرضة للمرض — قد ازدادت حالهم سوءا على سوء . فان المرض الذى ارسله الله ليوحدهم ويجمع شملهم ، لم يؤد الا الى ازدياد اسباب التناؤ والفرقة بينهم ..

ذلك أن اولئك الذى اعتادوا اكراه الآخرين على العمل بدلا منهم ، أصبحوا الآن يكرهونهم على خدمتهم انشاء مرضهم ، مع أنهم هم انفسهم لا يفكرون على الاطلاق فى آلام غيرهم .. وفى الوقت ذاته ، كان اولئك الذين يساقون قسرا للعمل من اجل غيرهم ولخدمتهم كذلك فى مرضهم ، قد انهكوا بالعمل بدرجة لم يعد فى استطاعتهم معها رعاية المرضى من ذات اهلهم وذوئهم ، فهم من ثم يتركونهم بلا راع

ولا معين . فضلا عن ان بعض الامراض عرفت بانها معدية ..
لذلك فان كثيرا من الناس اخذوا - خوفا من العدوى -
ببتعدون جهدهم عن المرضى المعذبين ولا يخالطون من
يعاشرهم .

وعندما رأى الله ذلك ، قال فى نفسه : « مادمت لم
استطع - بهذه الوسائل - ان اجعل الناس يفهمون ان
تكن سعادتهم الحقيقية ، فاقضى سائرهم ليصلوا الى ذلك
بانفسهم ، خلال محنتهم وبلاياهم ! »

ومنذ ذلك الحين ، ترك الله البشر وشأنهم .

فلما أصبح الناس يدبرون امرهم بانفسهم ، ظلوا زمنا
طويلا يتخبطون ، لا يدركون الوسيلة التى يستطيعون بها
ان يعيشوا سعداء .

على ان بعضهم بدأ يدرك اخيرا ، ان العمل فى حقيقته
ليس - بالنسبة لفئة من الناس - وسيلة يسيطرون بها
على غيرهم ، وبالنسبة لفئة اخرى نوعا من الاشغال الشاقة ،
وانما هو - بالاجرى - مصدر سعادة للناس جميعا ، لانه
يوحد بينهم ويجمع بعد الفرقة شملهم .. كما بدأوا يدركون
ان السبيل الوحيد امامهم - ازاء ذلك الموت الذى يهددهم
فى كل لحظة - ان يجتهدوا فى قضاء ما قدر لهم من اعوام ،
او شهور ، او ايام ، او ساعات ، او دقائق ، فى محبة
ووثام وسلام . واخيرا تحققوا ان المرض لا ينبغى ان يكون
سببا للتباعد والتناذب بين الناس ، بل انه - على العكس -
ينبغى ان يكون سببا للتآلف والتعاطف وقبل الاحساس .

خاطي على أبواب الفردوس!

• حدث ذات مرة ، ان عاش رجل في الدنيا سبعين عاما ، قضاها كلها في الخطيئة ، حتى رقد آخر الامر مريضا . . ومع ذلك ، فانه لم يتب أو يندم . . ولكنه - حين جاءه الموت - لم يتمالك نفسه ، فانهمرت الدموع من عينيه ، في ساعته الاخيرة ، وصرخ قائلا : « سامحني يا رب كما سامحت اللص على الصليب ! »

وكان هذا هو كل ما انفسح له الوقت لان يقوله ، قبل ان تفارقه الروح . ومع ذلك ، فان روحه كانه تحب الله ، وتثق في رحمته . ومن ثم فقد انطلقت الى ابواب الفردوس . وهناك راح الخاطيء يقرع ملتمسا الدخول في ملكوت السموات ، فسمع صوتا من خلف الابواب يقول : « اى نوع من الرجال ذلك الذى يطرق ابواب الفردوس ، واى اعمال صنعها في حياته ؟ »

فاجاب صوت المدعى العام ساردا كل الاعمال الشريرة التى ارتكبها الرجل ، ولم يذكر عملا صالحا واحدا . وعندئذ تكلم الصوت الصادر من وراء الابواب - مرة اخرى - قائلا : « ان الخطاة لا يدخلون ملكوت السموات » ، فاذهب من هنا ! »

وصاح الرجل : « ايها القاضى ، اننى اسمع صوتك

العنوان الاصلى لهذه القصة هو : « كيف دخل
الخاطيء ملكوت السموات »

ولكننى لا ارى وجهك ، ولا اعرف اسمك .
 فأجاب الصوت قائلا : « انا بطرس الرسول »
 فقال الخاطيء : « اى بطرس الرسول ارحمنى
 وتذكر ضعف البشر ومفطرة الله !.. الم تكن تلميذا
 للمسيح ؟.. الم تسمع من ذات شفثيه تعاليمه ؟.. الم
 تر استلوب حياته ؟.. الا تذكر حين كان هو فى محنة الروح ،
 وقد عاتبك ثلاث مرات لانك تنام ولا تصلى ، ومع ذلك فقد
 نمت لان عينيك كانتا ثقيلتين ، وثلاث مرات وجسدك
 نائما ؟.. الا تذكر - كذلك - كيف وعدته بالآ تنكره حتى
 الموت ، ومع ذلك فقد انكرته ثلاث مرات ، حين جىء به الى
 قيافا ؟.. هذا هو الذى حدث معى .. الا تذكر كيف صاح
 الديك ، وكيف ذهبت خارجا وبكيت بكاء مرا ؟ هسنا هو
 الذى حدث معى .. فليس لك ان ترفض دخولى ! »
 ولكن الصوت الاتى من وراء ابواب الفردوس سكت ولم
 يتكلم .



وبعد فترة قصيرة ، بدا الخاطيء يلتمس الدخول فى
 ملكوت السموات ، مرة اخرى . فارتفع صوت ثان من وراء
 الابواب قائلا : « من ذلك الرجل ؟.. وكيف عاش فى
 الدنيا ؟ »

فأجاب صوت المدعى العام ساردا مرة اخرى كل الاعمال
 الشريرة التى ارتكبها الخاطيء ، ولم يذكر عملا صالحا
 واحدا .

وعندئذ أجاب الصوت من وراء الابواب قائلا : « اذهب
 من هنا . ليس للخطاة مثلك ان يعيشوا معنا فى الفردوس ! »
 ولكن الخاطيء صاح قائلا : « ايها القاضي ، اننى اسمع

صوتك ، ولكن وجهك لا اراه .. واسمك لا اعرفه .
فقال له الصوت : « أنا الملك داوود (النبى) » .
فلم ينكص الخاطيء أو يفادر الابواب ، وإنما صاح -
مرة اخرى - قائلاً :

« ايها الملك داوود ، ارحمنى ! .. تذكر ضعف البشر
ومغفرة الله . لقد احبك الله ورفعك فوق قومك .. أفلم
يكن لك كل شيء ؟ .. ألم يكن لك مملكة ، ومجد ، وثروات ،
وزوجات ، وابناء .. ومع ذلك فانك نظرت من سطح بيتك
الى زوجة رجل فقير ؟ .. ألم يدخلك ملكوت السماء برغم
ذلك ؟ .. ثم ألم تأخذ زوجة « يوريا » وتذبحه بالسيف ؟ ..
انت الرجل الفنى ، ألم تأخذ من الرجل الفقير نعبته ثم
تقتله ؟ .. هكذا الحال معي .. ألا تذكر كذلك أنك لم تنب
بل قلت : « ابن آتلى وذنوبى امامى فى كل حين » ؟ .. هكذا
الحال معي .. فانت لا تعلم ان ترفض دخولى ! »
ولكن الصوت الاتى من وراء ابواب الفردوس سكت ولم
يتكلم .



وبعد فترة قصيرة ، بدأ الخاطيء يقرع الابواب من جديد ،
ويلتمس الدخول فى ملكوت السموات .
فارتفع صوت ثالث من وراء الابواب قائلاً : « من هذا
الرجل ؟ وكيف جاش فى الدنيا ؟ »
وأجاب صوت المسمى العام ، ساردا - للمرة الثالثة -
الاعمال الشريرة التى ارتكبها الرجل ، ولم يذكر له عملا
صالحا واحدا .
وعندئذ تكلم الصوت مرة اخرى من وراء الابواب قائلاً :
« اذهب من هنا .. ان الخطاة لا يدخلون ملكوت السموات » .

٥٠. خاطيء على ابواب الفردوس ١

ولكن الخاطيء. صاح قائلا : « ايها القاضي ، صوتك
اسمعه ، ولكن وجهك لا اراه ، واسمك لا اعرفه » .
فاجاب الصوت قائلا : « انا يوحنا اللاهوتي » التلميز
الذي كان يسوع يحبه » .

وعندئذ فرح الخاطيء وتهلل قائلا : « اذن لن يمكنك ان
ترفض دخولي . ان بطرس وداود رفضا ذلك ، لانهما
يعرفان ضعف البشر ومقبرة الله .. اما انت فستسمح
لي بالدخول ، لان فيك الكثير من الحب . الم تكتب - اي
يوحنا اللاهوتي - قائلا في الكتاب ان الله محبة ، وان الذي
لا يحب ، لا يعرف الله كذلك ؟ .. الم تقل للناس في الزمن
القديم : « ايها الاخوة ، حيوا بعضكم بعضا » ؟ .. فكيف
يمكن - اذن - ان تكرهني او تطردني من هنا ؟ .. انك اما
ان تحبني وتقبل دخولي ملكوت السموات ، واما ان تنكر ما
قلته انت نفسك » .

ومندئذ فتحت ابواب الفردوس ، ودخل الخاطيء التائب
ملكوت السموات .

القائل



♦ كان يعيش في مدينة (فلاديمير) تاجر شاب ، يدعى « اكسينوف » ، يملك حانوتين ومنزلا .. وكان أحمر البشرة ، أجعد الشعر ، وسيما في جملته . فضلا عن انه كان رخيم الصوت ، محلثا من الطراز الأول .. غير أنه اكتسب - منذ صغره - عادة شرب الخمر ، حتى غدا سكريرا عرييدا . لكنه لم يكد يتزوج حتى هجر الخمر ولم يعد يقربها ، الا بين الحين والحين .

وذات صيف ، كان مزمعا ترك عائلته والرحيل الى مكان الاحتفال بـ « المولد » في (نيزنى) ، حين قالت له زوجته : « لاتذهب اليوم يا ايفان ديمتريفيتش ، فقد حلمت عنك حلما مزعجا في الليلة الماضية ! » .. ولكن اكسينوف ضحك وقال : « أخافه انت ؟ .. اننى سأذهب فأقضى وقتا ممتعا في المولد » .

- لست اعرف ما يخيفنى ، غير اننى رايت في حلمي رؤيا مرعبة .. رايتك آتيا من المدينة ، فلما رفعت قبعتك ، رايت شعرك قد استعمل شيئا !

فضحك اكسينوف - مرة أخرى - وقال لها : « لا تخافى ، فلسوف أعقد هناك بعض صفقات رابحة ، وآتى لك ببضع هدايا ثمينة » .

وقبل أفراد عائلته ، ثم رحل .



وفي منتصف الطريق ، التقى بتاجر آخر من معارفه ، وانفقا على قضاء الليل في خان هناك .. ومضيا الى فراشهما في غرفتين متلاصقتين . غير ان « اكسينوف » - الذى لم يكن مولعا بالنوم - استيقظ في منتصف الليل . ولما كان

السفر بهيجا في نسمة الليل الرطبة ، فقد انقظ سائس الخيل ، وطلب اليه اعداد جواده للرحيل ، ثم ذهب الى مكتب صاحب الخان فلدفع ما عليه ، وواصل رحلته .

وبعد ان ابتعد حوالى اربعين فرسخا ، توقف ليطلع جواده في خان آخر . . وأخذ الى النوم بعض الوقت ، ثم دخل الى الشرفة ليتناول فيها غداءه . وطلب ابريقا من الشاي ، وتناول الجيتار (القيثارة) وبدأ يعزف عليه . وفجأة دخلت الفناء عربة ذات ثلاثة جياذ - (ترويك) - مجهزة بالاجراس . . وترجل منها ضابط وجنديان . ثم تقدم الضابط من « اكسينوف » وساله من هو ومن اين جاء . فاجاب اكسينوف عن ذلك في الحال . ثم سال بدوره الضابط عما اذا كان يتفضل ويشاطره ابريق الشاي . وكان الجواب الوحيد للضابط ان امطره بأسئلة اخرى ، قائلا له اين تام في الليلة الماضية ، وهل كان وحده او معه تاجر آخر ، وهل راي التاجر في الصباح قبل ان يرحل ، ولماذا رحل مبكرا هكذا ، وغير ذلك من الأسئلة . .

ودهنس اكسينوف ايما دهشة لاستجوابه بهذه الطريقة ، الا انه اتبأ الضابط بكل ما كان يعلم . ثم قال له : « لماذا تريد معرفة هذه الخصوصيات . . . لست لصا ولا قاطع طريق ، وانما انا تاجر مسافر في عمل يخصنى ، ولم افعل ما أستحق أن استجوب عليه هكذا » . فلم يفعل الضابط الا ان دعا الجنديين ، وقال لأكسينوف : « اننى مفتش الشرطة ، والسبب الذى من اجله اسالك هو أن التاجر الذى كنت معه في الليلة الماضية قد قطعت رقبتة . . ارنى كل امتعتك » . . ثم استدار الى الجنديين وقال لهما : « فتشاهما ! » . . وهكذا قادوا اكسينوف الى الداخل ، واخذوا منه حقيبته

ومحفظته وفتحوهما وفتشوهما .. وفجأة أخرج الضابط سكيناً من الحقيبة وصاح قائلاً : « ما هذه السكين التي في حقيبتك ؟ » .. فحمل أكسينوف بعينيه ، ورأى سكيناً ملطخة بالدم ، أخرجها الضابط من الحقيبة .. ومن ثم شعر بأن صاعقة انقضت عليه .. واسترسل الضابط قائلاً : « وكيف حدث أن تلطخت السكين بالدماء ؟ »

وحاول أكسينوف أن يجيب ، ولكن الكلمات وقفت في حلقه . وفي النهاية أخذ يدمدم قائلاً : « أنا .. أنا لا أدري .. هذه السكين ليست .. ليست لي على الإطلاق » . فرد عليه الضابط : « في هذا الصباح ، وجد التاجر مقتولاً في فراشه ، ولا أحد غيرك يمكنه أن يفعل ذلك ، لأن باب غرفة النوم كان مغلقاً من الداخل ، ولم يكن فيها أحد معه غيرك .. وها قد وجدنا هذه السكين الملوثة بالدماء في حقيبتك ، فضلاً عن ذلك ، فإن وجهك يفتضحك .. قل لي كيف قتلت هذا الرجل وكم من المال سرقت منه ؟ »

وأقسم « أكسينوف » بالله أنه لم يرتكب هذا الفعل ، وأنه لم ير التاجر بعد أن تناول الشاي معه ، وأنه لم يكن يحمل سوى ثمانية آلاف روبل مملوكة له ، وأن السكين ليست سكينه .. بيد أن صوته كان متهافياً ، ووجهه في صفة الموت ، وهو يرتعد من الخوف ، شأن الرجل الذي ارتكب جريمة .. وعلى الرغم من دموعه واحتجاجاته ، أمر الضابط الجنديين بأن يضعا القيد في يديه ، وأن يقوداه خارجاً إلى العربة . وأخذوا منه كل أمتعته ونقوده ، وأرسلوه إلى السجن في المدينة المجاورة . وأجريت المباحث في فلاديمير للاستعلام عن أخلاقه ، فأجمع كل سكان البلد وتجاره على الشهادة بأنه - وإن اعتاد الاكثار من شرب الخمر من

صفرة - كان رجلاً محترماً كل الاحترام .. ثم جاءت
الحاكمة ، وادين - آخر الامر - بالقتل وبسرقة عشرين
الف روبل .



وتملك الحيرة والدهشة زوجته .. ولم يكن في مقدورها
ان تعرف الحقيقة . ومع ان اولادها كانوا صغاراً ، وكان
احدهم رضيعاً بعد على صدرها ، فقد اخذتهم الى المدينة ،
حيث كان زوجها محبوساً . وفي مبدا الامر ، لم تستطع ان
تحصل على تصريح برؤيته « ولكنها - بعد ان قدمت عدة
استرجاعات الى السلطات العليا - استطاعت اخيراً دخول
السجن .. فما ان راته يرتدى ملابس السجن ، والحديد
في يديه ورجليه ، والمجرمون يحيطون به ، حتى سقطت على
الارض مغمى عليها ، ولم تفق الا بعد وقت طويل .. وعندئذ
جمعت اطفالها حولها وجلست معهم بجانب زوجها ، وبدأت
تحدث معه في الشؤون العادية ، وتسأله عن كل ما حدث
له . فلما اجابها ، قالت له : « وماذا عسانا نفعل الآن ؟ » .
فقال : « لنستعطف الرؤساء ، فانه لا يمكن ان يسجنوا رجلاً
بريئاً ! »

فقالت له انها حاولت ذلك بالفعل ، وانهم رفضوا
استعطفانها .. فلم يقل شيئاً ، وانما جلس ناظراً الى
الارض . واستطردت هي تقول له : « وهكذا ترى اننى كنت
على حق حين حذرتك من الرحيل بسبب العلم الذى رايت
فيه شعورك قد اشتعل شيباً .. فما هو ذا شعورك قد بدا
يشيب فعلاً ، من جراء متاعبك . آه لو انك فقط لم تذهب
فى ذلك اليوم ! » .. ثم راحت تربت على راسه وهى تقول :
« يا جيبى ايقان ، قل لى ، انا زوجتك ، حقيقة الامر .. »

هل جفا ارتكبت هذا الجرم ، ألم تتركبه ؟ » .
فقال لها : « اخطر ببالك أنت - من بين الناس جميعا -
اننى افعل هذا ؟ »

كان ذلك كل ما استطاع اكسينوف ان يقوله . وقد غطى
وجهه يديه وانفجر باكيا . . وفي هذه اللحظة ، دخل جندي
وقال ان وقت انصراف الزوجة واولادها قد حان . وهكذا
راى اكسينوف عائلته ، للمرة الاخيرة .

وعندما انصرفوا ، بدأ اكسينوف يفكر فى المحادثة التى
دارت بينه وبين زوجته . فلما تذكر ان فوجته نفسها ظننت
انه مجرم ، وسألته بالفعل عما اذا كان لم يقتل التاجر ،
قال لنفسه : « من الواضح ان الله وحده يعلم الحقيقة . .
فله وحده يجب ان اصلى ، ومنه وحده اطلب المغفرة . .
ومنذ تلك اللحظة ، استبعد اكسينوف كل اهل ، وكل تفكير
فى ان يتظلم مرة اخرى ، وراح يصلى لله وحده .

وحكم عليه بالجلد والاشغال الشاقة ، وفى الحال نفذ
الحكم : فجلد اولاً ، حتى اذا اندملت جراح الجلد ارسل مع
مذنبين آخرين الى سيبيريا .

وفى سيبيريا ، قضى «اكسينوف» فى الاشغال الشاقة ستا
وعشرين سنة ، غدا خلالها شعر رأسه اينض كالثلج ،
واستطالت لحيته واسترسلت ووظفها الشيب . . وقد
بارحه مرحة القديم ، وانضت قامته ، واصبح صموثا
رصيئاً . ولكنه ظل مداوما على الصلاة لله .

وتعلم - فى السجن - صنع الاحذية ، واشترى بالنقود
التى كان يكتسبها كتاباً مقدساً ، اعتاد ان يقرأ فيه كلما كان
الضوء متوفراً فى السجن . وكان - فى ايام الأعياد - يذهب
الى كنيسة السجن ، فيقرأ الانجيل ههناك ، ويرتل مع

المرتلين ، اذ ظل صوته رخيما . وقد احبه رجال السلطة في السجن بسبب حسن سلوكه ، وثال احترام الضباط حتى لقد كانوا يلقبونه « ديديشكا » اى الجدد ، كما كانوا يدعونه رجل الرب . واصبح كل راغب - من زملائه - فى ان يقدم تظلمة فى السجن ، يلجأ اليه ويأخذه معه للسلطات . وحيثما كانت تحدث مشادات بين المسجونين ، كانوا دائما يسمعون اليه لينهيها .

ولم يصل ابدا اى خطاب لأكسينوف من عائلته . وعلى ذلك لم تكن لديه وسيلة للتأكد مما اذا كانت زوجته وابناؤه على قيد الحياة ، ام طواهم الموت .



وذاث يوم ، وصلت الى السجن شردمق من المدينين الجدد . فلما كان المساء ، تجمع المسجونون القدماء حول هؤلاء القادمين الجدد ، ليسألوهم من هم ، ومن اية مدينة أو قرية جاؤا ، ومن اجل اية جرائم حكم عليهم . وجاء أكسينوف كذلك ، فجلس على فراش من القش بالقرب من القادمين الجدد ، واستمع - وعينه الى الأرض - لما راحوا يقولونه . وراح سجين طويل القامة ، قوى البتيان ، متقدم السن - فى حوالى الستين من عمره - ذو لحية سنجابية مشدبة .. راح يحكى قصة الجريمة التى سجن من اجلها ، وختم قصته قائلا : « وهكذا يا أصدقائى ترون اننى أرسلت الى هنا من اجل لاشيء .. كل ما فعلته اننى اخذت جواد صبي من صبيان البريد ، من غربة فى فناء الخان . وقد اعتقلونى قائلين اننى سرقتهم .. فقلقت لهم طبعاً ، ان خزنضى الوحيد من اخذ الجواد كان هو ان اصل بأسرع ما يمكن لغابى ،

و كنت مزعما ان اعيده بعد ذلك لصاحبه . ومع ذلك قالوا :
« كلا . انك سرقتة ! » .. قالوها هكذا دون ان يعرفوا كيف
وحتى سرقتة ! .. وقد حاكموني . ولو كانوا حصلوا على
الدليل اللازم لادانتى ، لكنك هنا من زمن طويل ، ولكنهم لم
يستطيعوا الحصول عليه ، فاخذوني مخالفين القانون » .
ثم صمت قليلا وقال : « حسنا . لقد كنت فى سيبيريا من
قبل ، ولم اقص هنا زمنا طويلا » . فسأله احد المسجونين
الاخرين : « من اين جئت ؟ » . فأجابه : « من فلاديمير ،
حيث كنت مسجلا .. واسمى مقار ، ولقبى سيمنوفيتش » .
وعند ذلك رفع اكسينوف رأسه وسأله : « ألم تسمع فى
فلاديمير عن عائلة تاجر اسمه اكسينوف ؟ .. أما ذال أفرادها
أحياء ؟ » . فأجابه : « كيف لم أسمع عنهم ؟ .. انهم قوم
ميسرون ، الا ان والدهم لسوء الحظ فى سيبيريا .. انه
— فى الواقع — فى نفس المحنة التى نحن فيها . ولكن أنت ..
ماذا كانت جريمتك ؟ »

ولم يكن اكسينوف يحب ان يتحدث عن متاعبه ، ولذلك
اكتفى بأن تأوه وقال : « انا هنا من أجل ذنوبى ، قد قضيت
الآن فى الاشغال الشاقة حوالى ست وعشرين سنة » .

وسأله مقار : « ولكن أية ذنوب ؟ » .. فقال اكسينوف :
« ذنوب استحققت من أجلها هذا » .. ولم يقل شيئا آخر
.. الا ان زملاءه حكوا لمقار قصة التاجر الذى وجد مقتولا
اثناء سفره ، والسكين التى دست لأكسينوف ، وما أدى
اليه ذلك من الحكم بالسجن عليه خطأ من أجل جريمة لم
يرتكبها . فما أن سمع مقار هذا ، حتى حملق فى اكسينوف ،
وخبط يديه على ركبتيه وقال : « عجيب ! عجيب ! ..
ولكن الأمر يطول كعلا جدا ، يا أبى الصغير ! » .. فلما

سألوه عما أدهشه هكذا ، وعما إذا كان قد رأى اكسينوف من قبل ، لم يجب . وإنما قال فقط : « انه لأمر مدهش يا أصدقائى .. كيف يلتقى الناس فى هذا العالم ؟ »

وفى الحال ، خطر لأكسينوف انه من الممكن أن يكون هذا الرجل على علم بالقاتل الحقيقى .. ومن ثم قال له : « أما سمعت أبدا عن هذا الأمر من قبل يا سيمينوفيتش ؟ أو لم ترنى من قبل ؟ » . فأجابه : « بالتأكيد سمعت عن هذا الأمر من قبل ، فالناس جميعا قد تحدثوا عنه فى ذلك الوقت .. ولكن ، لقد حدث هذا منذ زمن بعيد .. وإذا كنت قد سمعت الشيء الكثير عنه يومذاك ، ألا أننى قد نسيت أكثره الآن » .

فلاحته اكسينوف بالسؤال : « ولكن ألم يحدث لك قط إن سمعت من القاتل الحقيقى للتاجر ؟ » .. فابتسم مقار وهو يقول : « لابد أن يكون الرجل الذى قتله هو الذى وجدت السكين فى حقيبته .. فلو أن رجلا دس عليك السكين ، لما قبضوا عليك كما حدث ، لأن هنالك السرقة ايضا .. وفضلا عن ذلك ، فانه لكى يدس القاتل السكين لك ، كان ينبغى عليه أن يقف بجانبك . أليس كذلك ؟ .. وحينئذ كان ينبغى أن تسمعه » .

وما أن قال مقار ذلك ، حتى بدأ اكسينوف يشك فى أن يكون مقار نفسه هو القاتل الحقيقى ، فنهض ومضى .. وظل هذه الليلة بطولها لا يطوف به النوم ، فأخذ الاجهاد منه كل ما أخذ ، وراح يستعيد فى ذهنه صور الماضى ، فترأت له - أولا - زوجته وهى تنظر اليه كما كانت تفعل حين رآته

يخرج لآخر مرة ، في طريقه الى احتفال المولد . وقد رآها كما لو كانت حية حقاً أمامه . . رأى عينيها ووجهها ، وسمع ضحكها وحديثها . ثم رأى أطفاله كما كانوا في تلك الأيام ، صفاراً ، وأحدهم في سترة جميلة من الفرو ، وأصفرهم يرضع لدى أمه . ثم رأى نفسه كما كان في تلك الأيام ، شاباً ممتلئاً بالحياة والروح المتوثبة . وتذكر جلوسه في الشرفة ، وعزفه على « الجيتار » في الخزان ، حيث قبض عليه . . كم كان سعيد القلب إذ ذاك ! . . وما لبث الفكر أن انتقل به الى مكان التنفيذ حيث جلدوه ، فتذكر الجلال ، والناس المتجمهرين حوله ، والقيود الحديدية ، والمسجونين الآخرين ، وكل الأعوام الستة والعشرين التي عاشها في السجن ، والسن التي تقدمت به ، وهذه الرجفة التي أصبحت تنابهه — من قُرط اليأس — كلما مس جسده يديه . . وراح يفكر في نفسه قائلاً : « كل هذا بسبب ذلك الوغد ! »

وكانت ثورته على مقار سيمنوفيتش كفيلة — في تلك اللحظة — بأن تدفعه لأن يهجم على الرجل ويثأر لنفسه منه الى الأبد . . وقد ظل طول الليل يتلو صلواته ، ومع ذلك لم تهدأ نفسه . وفي اليوم التالي ، لم يقترب أبداً من مقار ، ولم ينظر إليه .

ومر اسبوعان آخران ، لم يتسن لأكسينوف طوالهما أن ينام الليل . وكان هذا الإرهاق يضنيه حتى لم يعد يدرى ما يفعل بنفسه . وذات ليلة ، كان يجول في السجن ، حين رأى بعض التراب يقذف من تحت فراش من القش . فتوقف لينظر . وفجأة خرج مقار سيمنوفيتش من تحت

الفرائس ، فحججه بنظرة مرعبة . وكان اكسينوف على وشك ان يرمى ليتجنب النظر اليه ، حين أمسك مقار بدراعه ، وقال له انه كان يحفر همرا تحت الجدران . . . وانه اعتاد ان ينقل التراب الى الخارج كل يوم في قاع حدائيه ، ويتخلص منه في الطريق وهم ذاهبون للعمل . ثم استطرد قائلا : « لا تقل شيئا عن هذا . وسوف آخذك مئى . . اما اذا وشيت بى ، فلن أدعك حتى اقتلك ! »

وراح « اكسينوف » ينظر الى الرجل الذى اثم في حقه دائما شنيعا ، فارتعد من فرط الغضب ، وسحب ذراعه من قبضة الرجل ، وقال له : « ليس لى شيء اهرّب من أجله ، ولن يمكنك ان تقتلنى مرة أخرى . لقد فعلت ذلك ، من زمن بعيد . اما اذا كنت ساشى بك او لا اشى ، فذلك رهن بما يلهمنى الله ! »

وفى اليوم التالى « كان المسجونون يسرون الى العمل ، واذا بعض الجنود يلاحظون ان مقار سيمينوفيتش كان ينشر ترابا على الارض . وقد ادى ذلك الى تفتيش السجن واكتشاف الحفرة . . وجاء حاكم السجن ، فبدأ يسأل كل رجل بدوره ، بأمل العثور على صانع الحفرة . ولكنهم انكروها جميعا . ولم يش الذين كانوا يعلمون الحقيقة بمقار ، اذ كانوا يعلمون ان جزاء هذه الجريمة هو الجلد حتى الموت . . . وحينئذ ، استدار الحاكم الى اكسينوف ، وكان يعلم انه رجل يقول الصدق ، فقال له : « ايها الشيخ ، انك واحد من أولئك الذين يقولون الحق ، فقل لى الآن ، امام الله ، من فعل هذا ؟ »

وكان مقار واقفا وكأنما لا حيلة له فى الامر « وهو يحلق فى الحاكم ، دون أن ينظر قط الى اكسينوف . وكانت يدا

اكسينوف وشفتاه ترتعدان ، وقد مر وقت قبل ان يستطيع ان يجد كلمة يقولها .. في هذا الوقت ، راح يفكر في نفسه قائلا : « لو اننى تسترت عليه ، فاننى اكون قد عفوت عن الرجل الذى دمرنى واضاعنى . فلماذا افعل ؟ .. لادعه يدفع اخيرا ثمن كل ما قاسيته من آلام .. ولكن ، مع ذلك .. لو اننى وشيت به ، فمعنى ذلك انه سيجلد ، فماذا لو كان شكى فيه في غير محله ؟ .. وعلى اية حال ، اترانى ساشعر بآية راحة لو اننى فعلت ؟ »

وتكلم الحاكم مرة اخرى : « قل لى الحقيقة ايها الكهل .. من الذى حفر هذه الحفرة ؟ » . فنظر اكسينوف هنيهة الى مقار ، ثم اجاب : « لا أستطيع ان اقول لك يا صاحب السعادة .. ان الله لا يسمح لى بذلك ، ومن ثم فلن اتكلم .. افعل ما تشاء ، فانا تحت سلطانك ! » .. ولم يزد كلمة ، بالرغم من كل تهديدات الحاكم . وبذلك لم يعرفوا ابدا من الذى حفر الحفرة .



وفي ذات الليلة ، كان اكسينوف مستلقيا على فراشه القش ، نصف نائم ونصف صاح ، واذا به يسمع شخصا يقترب منه ، فيجلس عند مؤخر الفراش . وحملق خلال الظلام ، فعرف في القادم «مقار» ، فقال له : « ماذا تريد منى ايضا .. لماذا انت هنا على الاطلاق ؟ » . فلم يجب مقار . واستوى اكسينوف قليلا في فراشه ، وقال مرة اخرى : « ماذا تريد ؟ .. اذهب عنى والا دعوت الشرطة ا » . فقال مقار عليه وقال في همس : « ايفان ديمتريفيتش . اصفح عنى ! »

وساله اكسينوف قائلا : « اصفح عنك من اجل ماذا ؟ »

.. فأجابه : « لأننى أنا الذى قتلت التاجر ودسست السكين فى حقيبتك . لقد كنت أريد أن اقتلك أنت أيضا ، لولا أن ارتفع صوت فى الفناء ، فألقيت السكين فى حقيبتك و فررت من النافذة » .

لم يقل أكسينوف شيئا ، لأنه فى الحق لم يدر ما يقول ، فأنسل مقار من الفراش وجثا على الأرض ، وراح يقول : « ايغان ديمتريفيتش » أصفح عنى .. أصفح عنى .. من أجل خاطر الرب ! .. سأعترف بقتل التاجر ، وعندئذ يعفون عنك ، ويتركوك تذهب الى بيتك ! » .. ولكن أكسينوف أجابه : « لقد كان سهلا عليك أن تتكلم ، ومع ذلك ماذا بقى لى لأعانيه بعد ؟ .. ثم أين عساي أذهب ؟ .. لقد ماتت زوجتى ونسيتى اولادى ، ولم يعد (مامى الا الموت) » . وراح مقار يضرب رأسه فى الأرض ، وهو لا يزال جاثيا على البلاط ، يردد : « ايغان ديمتريفيتش ، أصفح عنى ! أصفح عنى ! .. حتى لو كانت الشياطين الهبتي ، لما آلمتني الجلادات كما يؤلمنى منظرى الآن .. ايمكن أن يكون فى قلبك رحمة نحوى ولا ترحمنى ؟! .. أصفح عنى ، من أجل خاطر المسيح ، بالرغم من أننى وغد تعيس ! » .. ثم انفجر باكيا .

فلما سمع أكسينوف مقار يبكى بكى هو الآخر ، وقال له : « ليفغر لك الله ! .. قد آكون أنا أنما قدر أئمتك مائة مرة » . وعندئذ أضاء النور قلبه .. وكف عن حنينه لأهله .. وشعر بأنه ما رغب قط فى مفادرة السجن .. وكل ما فكر فيه - بعد ذلك - هو نهايته الأخيرة .

وعلى الرغم مما قاله أكسينوف ، اعترف مقار بالقتل . ومع ذلك ، فحين أمر الضابط بأحضار أكسينوف لترجله الى بلده ، كان قد مضى بالفعل الى المنزل الآخر الذى يمضى اليه الناس جميعا .. كان قد مات !

حبة قمح !

• حدث ذات مرة ، ان عثر بعض الصبية - في وهدة من الوهاد - على شيء صغير مستدير ، يشبه البيضة ، الا انه اوتى فلقا في وسطه ، جعله أشبه بحبة القمح . وقد شهد أحد المارة هذا الشيء في أيدي الصبية ، فاشتراه منهم بخمسة كوبيكات ، وأخذه الى المدينة ، حيث باعه للملك على انه تحفة من التحف ، وطرفة من الطرف .

وأرسل الملك في طلب الحكماء من رجاله ، وسألهم ان يفحصوا هذا الشيء الصغير المستدير ، وأن يقرروا ما اذا كان هو بيضة أم حبة قمح . وقد تمنع الحكماء ثم تمنعوا ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يصلوا الى حل لهذا الاشكال .

ومن ثم فقد القى الشيء الصغير المستدير على رف ناقلة ، وترك هنالك ، حتى حدث - ذات يوم - ان قفرت الى الرف دجاجة ، فنقرت هذا الشيء بمنقارها ، وحفرت فيه حفرة . وعندئذ تسنى للجميع ان يقطعوا بأنه كان حبة قمح .. فأسرع الحكماء الى الملك مؤكدين له ان الشيء الصغير المستدير اما كان حبة قمح !

ودهش الملك لذلك ايما دهشة ، وطلب الى حكمائه ان يفكروا ويقرروا : أين ومتى نبتت هذه الحبة .. فتمنع الحكماء ، ثم تمنعوا . وراحوا ينقبون في كتبهم ، ولكنهم لم يستدلوا على شيء . فعادوا الى الملك قائلين : « ليس بوسعنا ان نجيب عن هذين السؤالين ، لاننا لم نجد شيئا في كتبنا

عنهما . فابعثوا جلالتم برجالكم يستعلمون بين الفلاحين ،
عسى أن يكون بينهم واحد قد سمع من أسلافه أين ومتى
نبتت هذه الحبة ! »



وعلى هذا ، أرسل الملك في طلب أحد الطاعنين جدا في
السن ، من الفلاحين . وبعد بحث طويل ، جرى في حضرته
برجل هرم ، اذكن اللون ، مخلوع الأسنان ، يمشى بصعوبة
على عكازين . فعرض عليه الملك حبة القمح التى لم تكن
تشبه أى شىء رآه العجوز من قبل . وبطبيعة الحال ،
كان من الصعب عليه أن يراها بوضوح بعينه ، أو يحس
بها كل الاحساس بيديه . وسأله الملك قائلا : « هل تعرف
- ايها الجد الطيب - أين زرعت هذه الحبة . وهل سبق
لك أن رأيت شىء سببها لها في حقلك أو اشتريت في زمانك
مثلا ؟ »

وكان الرجل فاقده السمع ، فلم يتمكن من أن يفقه كلام
الملك الا بصعوبة عظيمة . ومن ثم فقد أبطأ في الاجابة . ثم
قال أخيرا : « كلا ، لم يحدث لى قط أن زرعت مثل هذه
الحبة في حقلى ، أو حصدت مثلها أو اشتريتها . فحين كنا
نشتري القمح ، كان القمح صغيرا جدا » . ثم أضاف
قائلا : « ولكن يحسن أن تسأل أبى ، فربما يكون قد سمع
أين زرعت هذه الحبة » .

فطلب الملك احضار أبيه . وبعد بحث طويل ، وجدوه ،
وجاءوا به وهو يتوكأ على عكاز واحد فقط ، فاطلمه الملك

على الحبة ، وكانت عينا العجوز مازالتا سليمتين ، فامكنه ان يرى الحبة بقدر كاف من الوضوح . وحينئذ سأله الملك قائلا : « هل تعرف أيها العجوز الطيب ، أين زرعت هذه الحبة ، وهل سبق لك أن رأيت مثلها في حقك ، أو اشتريت مثلها في أيامك ؟ »

وكان العجوز ثقیل السمع قليلا ، ومع ذلك فقد كان أكثر مقدرة على السمع من ابنه ، فأجاب قائلا : « كلا . . لم يحدث لى قط ان زرعت مثل هذه الحبة ، أو جصدها أو اشتريت مثلها ، فلم تكن النقود على أيامى قد استعملت بعد فى التجارة . . وكان كل واحد يزرع قمحه بنفسه . وأما الحاجيات الأخرى فكان الناس يتقاسمونها . اننى لا اعرف أين عسى أن تكون هذه الحبة قد نمت ، لأن قمحنا - وان كانت حباته أكبر من حبات قمح اليوم ، وكانت تعطى قدرا أكبر من الدقيق - لم يكن فى حجم هذه الحبة التى لم أر قط فى حياتى مثلها . ولكننى سمعت أبى يقول : ان القمح فى أيامه كان أجود منه فى أيامى ، وأن حباته كانت أكبر ، وما يعطيه من الدقيق كان أوفر . فيحسن أن ترسلوا اليه وتسألوه » .

فطلب الملك احضار ابيه ، فجاء به الى حضرته ، وقد دخل دون عكاز الى الاطلاق ، بل كان يمشى فى يسر ، ويتكلم فى وضوح ، وعيناه ما زالتا سليمتين مبصرتين .



وإذ أحاطه الملك على الحبة ، أخذها بين يديه ، وراح يقلبها ثم يقلبها . وقال أخيراً : « لقد مضى زمن طويل جداً منذ أن رأيت حبة من حبوب العهد الغابر كهذه ! » ثم قضم الحبة ، وراح يلوك جزءاً منها ، وهو يقول : « إنها هي ذاتها ! »

فقال الملك : « قل لى اذن يا جلى ، أين ومتى زرعت هذه الحبة ؟ .. وهل سبق لك أنت ذاتك أن زرعت مثلها فى حقلك ، أو اشتريت مثلها من أى مكان ؟ »

فأجاب المعجوز قائلاً : « لقد كان مثل هذه الحبة على أيامى يزرع فى كل مكان . وكنت على مثلها أعيش وأعمل الآخرين .. لقد طالما زرعت وحصدت مثل هذه الحبة ! » وعاد الملك فسأله قائلاً : « قل لى أيها الجد الطيب ، هل اعتدت فى أيامك أن تشتري مثل هذه الحبة ، أو كنت تزرعها بنفسك فى حقلك ؟ »

فابتسم المعجوز وقال : « فى أيامى ، لم يكن هناك من يفكر - على الإطلاق - فى اقتراف هذا الاتم العظيم ، الذى هو بيع القمح أو شرائه .. فأتانا لم تكن نعرف شيئاً عن النقود .. وكان كل انسان يملك من الحنطة قدر ما يريد ! » فسأله الملك مرة أخرى قائلاً : « قل لى أيها الجد الطيب ، أين زرعت مثل هذه الحبة ؟ .. أين كان حقلك ؟ »

فأجاب المعجوز قائلاً : « كان حقلى هو أرض الله ، فحيث كنت أحرق كان ذلك هو حقلى . كانت الأرض للجميع ،

ولم يكن أحد يقول هذه أرضي . كان كل ما يملكه المرء هو عمل يديه ! »
 فقال الملك : « اجبني الآن عن سؤالين . . أولا : لماذا كان هذا القمح ينمو في تلك الأيام ، ولا ينمو الآن ؟ . . وثانيا : لماذا يمشي حفيدك بعكازين ، وابنتك بعكاز واحد ، بينما تمشي أنت نفسك بسهولة ، دون ما عكاز على الإطلاق . . وفوق ذلك فان عينيك ما زالتا سليمتين ، واسنانك ما زالت قوية ، وكلامك ما زال واضحا فصيحاً ؟ . . هلا عللت هذه الأمور ؟ »

فاجاب العجوز : « ان سبب هذه الأمور هو ان الناس لم يعودوا يعيشون بعملهم وحده ، وانما بدؤوا يشتهون ما لغيرهم . اما في الزمن القديم فلم يكونوا يعيشون هكذا . في الزمن القديم ، كان الناس يعيشون بمقتضى كلمة الله . . كانوا سادة انفسهم ، ولم يكونوا يشتهون ما للغير ! »

ثغرات الحياة



« كم يلزم الانسان من الارض ؟ »

- ٩ -

♦ جاءت الأخت الكبرى من المدينة لتزور أختها الصغرى . وكانت الكبرى متزوجة من تاجر ، والصغرى متزوجة من فلاح . وفيما هما تحتسيان الشاي وتحدثان ، راحت الكبرى تتباهى وتشيّد بحياتها في المدينة ، شارجة كيف تعيش وتنقل في راحة ويسر ، وتلبس أطفالها فاخر الثياب ، وتأكل وتشرب ما لذ وطاب من المأكول والمشروب ، وتذهب لتتزلق على الجليد ، وتتمشى ، وتشهد المسرح .

فاغتازت الأخت الصغرى من ذلك ، وانطلقت - وهي ترد على أختها - تندد بحياة زوجة التاجر ، وتتفاخر بحياة الريف التي تحبها ، قائلة لها : « اننى من جانبى لا يعينى ان استبدل حياتى بحياتك . واؤكد لك اننا نحيا حياة بديعة ، فلا نعرف الشورة او التذمر . أما انتم فعلى العكس . . مع كل حياتكم الرخية ، اما ان تصيبوا ربعا عظيما ، او يصيبكم الدمار . وانك لتعرفين الحكمة القائلة ان « الخسارة هي الأخت الكبرى للمكسب » . فمن الممكن ان تكونوا اغنياء اليوم ، ولكنكم قد تجدون انفسكم في الشارع غدا . اما نحن فحياتنا افضل من ذلك هنا في الريف . فقد تكون معدة الفلاح رخيعة ، ولكنها طويلة . . اى انه قد لا يكون غنيا ابدا ، ولكنسه مع ذلك يملك على الدوام كفايته ! »

وهنا بادرت أختها الكبرى الى مقاطعتها قائلة لها :
 « احقا تقولين كفايته ؟ .. كفايته ، مع لا شيء سوى
 خنزيرك وابقارك الفجاء ؟ .. كفايته ، مع لا شيء من الملابس
 الجميلة أو الصحبة الطيبة ؟ .. فلماذا اذن مع كل ما يقوم
 به زوجك من عمل شاق ، تجددين ان عليك ان تعيشى في
 الوحل الذى ستموتين فيه كذلك ، انت واطفالك من
 بعدك ؟ »

فأجابتها الصغرى قائلة : « كلا . كلا . ان الامر لا يجرى
 معنا هكذا ، فمع اننا قد نقضى حياتنا في عيشة جافية ، الا
 ان الارض على الأقل هى ارضنا ، ولا حاجة بنا لأن ننحنى
 ونتمسح بأى انسان .. اما انتم في المدينة ، فتعيشون في
 جو من الفضيحة .. فاليوم قد يكون كل شيء حسنا معكم ،
 ولكن العين الشريرة لا تلبث ان تصيبكم غدا ، فاذا زوجك
 يجد نفسه قد اغواه الميسر أو شرب الخمر ، أو خطف
 بصره بعض بريق الحب .. واذا بك تجددين نفسك وابناءك
 وقد ضعتم وتحطمتم .. اليس كذلك ؟ »

وكان « باخوم » - زوج الاخب الصغرى - ينصت
 للحديث بالقرب من الموقد .. فقال : « هذا حق . اتنى ما
 اتنا اقلب ارض امى منذ طفولتى ، فلا وقت لاية حماقة من
 الحماقات كى تنفذ الى راسى .. ومع ذلك فلدى هم واحد :
 هو ان رقعة ارضى صغيرة جدا .. فاعطينى ارضنا فقط ،
 وستجعينى لا اخاف انسانا .. كلا ، ولو كان الشيطان
 نفسه ! »

و فرغت المراتل من احتساء الشاي ، و ثررت قليلا بعد ذلك عن الملابس ، و غسلنا الآنية ، ثم ذهبنا الى فراشهما .
 وكان الشيطان جالسا خلف الموقد - في تلك الاثناء -
 وقد سمع كل شيء ، و امتلا برورا حين قادت زوجة الفلاح
 زوجها الى التفاحسر و التباهي ، و التبيج بانه - اذا هو
 حصل على الارض - فلن يتسنى للشيطان نفسه ان يأخذها
 منه . وقال الشيطان لنفسه : « بديع ! . . لسوف أحاول
 ان أوقعك . . فسأعطيك كثيرا من الأرض ، ثم أخذها مرة
 اخرى منك ! »

٢ -

• وكانت تقطن على مقربة من اولئك الفلاحين ، سيدة
 يسمونها « البارينا » ، تملك ضيعة صغيرة مساحتها مائة
 وعشرون « دسياتين » . . وهو يساوي ما يقرب من الثلاثة
 أفدنة . وكانت هذه السيدة تعامل الفلاحين معاملة حسنة ،
 ولا تسئ استعمال حقوقها ابدا . الا أنها لم تلبث ان اتخذت
 لها ناظرا كان في الاصل جنديا شكسا ، فبدأ يضايق الفلاحين
 و يضطهدهم ، و يثقل بالجزاءات عليهم . وعلى الرغم من
 الحرص الذي كان يلتزمه « باخوم » ، كان يحدث أن يدلف
 احد خيوله الى حقول الشوفان التي تملكها السيدة ، او
 تتسلل بقسرة من ابقاره الى حديقتها ، او تنطلق بعض
 صفار العجول في مروجها . ومن ثم كان يترقب على ذلك
 اقتضاء غرامات كثيرة من « باخوم » ، فكان « باخوم »
 يدفع الغرامات ، ثم يروح يضرب ويشتم اهل منزله .

وقد دخل في مشاجرات كثيرة مع الناظر من أجل ما حدث في الصيف ، حتى لقد شكر الله على أن رأى قطيعه واقفا في حقل العشب لا ينقلب إلى هنا أو هناك . وقد راح يأسف على الثمن الذى يدفعه لقاء اقامته في ذلك المكان ، على الرغم من أنه كان يتكلف فيه من القلق والجزع أقل مما يتكلفه في أى مكان آخر .

وفي ذلك الشتاء ، ذاعت إشاعة مؤداها أن السيدة مزمنة أن تباع أرضها ، وأن الناظر يعد العدة لأن يشتريها ، مع حقوق الارتفاق المتعلقة بها . وقد بلغت هذه الإشاعة أذان الفلاحين ، ومن ثم فقد تولاهم الهم والجزع . . وراحوا يفكرون قائلين : « لو حصل الناظر على الأرض ، فلسوف يزجنا ويشغل كواهلنا بالجزاءات والغرامات ، بصورة أبشع مما كان يفعل وهو تحت أمرة السيدة . . فيجب أن نحصل على ملكية الأرض بطريقة ما ، مادامنا كلنا نعيش حصولها ونحوط بها كالبائرة » .

وعلى ذلك ، ذهب وفد من القرية لمقابلة السيدة ، وتوسل إليها ألا تباع الأرض للناظر ، وأن تعطيتهم الحق في شرائها ، فيزايدون عليها ويكسبونونها من منافسهم . ووافقت السيدة على ذلك . فأعد الفلاحون العدة ليشتتروا الضيعة كلها ، وعقدوا لهذا الغرض اجتماعا ، ثم عقدوا اجتماعا آخر . إلا أن الأمر ظل مطلقا . وكانت حقيقة الأمر أن الرجل القدر كان يحبط دائما تدبيرهم ، ويقل عزيمتهم بأن يعرض عليهم من الشروط ما يجعلهم عاجزين عن الموافقة . إلا أن الفلاحين

قرروا ان يحاولوا شراء الارض صفقات بجزاة بحيث يشتري كل منهم ما يستطيع . وقد وافقت السيدة على ذلك أيضا . وسمع « باخوم » - ذات يوم - ان جارا له اشترى عشرين « دسياتين » ، وان السيدة وافقت على ان ترجىء دفع نصف الثمن علما . فاكل الحسد قلب باخوم ، وفكر في نفسه قائلا : « لو ان الآخرين اشترؤا كل الارض ، فليسوف اشعر بأننى متروك في البرد ! » . ومن ثم فقد استشار زوجته قائلا لها : « كل منهم يشتري جزءا من الارض ، فخير لنا ان نشتري نحن كذلك عشرة دسياتينات ، فليسبنا نملك ان نعيش والاحوال تجرى هكذا ، لان الناظر سيستنفد مالنا كله في الغرامات » . وهكذا راحا يفكران في الوسيلة التى يشتريان بها الأرض .

وكان ثمة مائة روبل فى أيديهما ، فبيع مهر ، ونصف ما لديهما من النحل - بالإضافة الى دفع ولدهما للعمل - يمكنهما الحصول على نصف المبلغ . . وقد جمع باخوم هذا النصف ، واختار خمسة عشر « دسياتين » ، ومساحة صغيرة من أرض الغابة ، ثم ذهب الى السيدة ليتفق معها فتمت الصفقة ، وتضافعا ، ودفع باخوم التأمين اللازم . . ثم انطلق الى المدينة ، فاستكمل اجراءات نقل الملكية - على ان يدفع نصف الثمن فى الحال ، والنصف الآخر خلال سنتين .

مرحى ! . . لقد أصبح باخوم مالك أرض ! وقد اقترض - كذلك - مبلغا صغيرا من شقيق زوجته ليشتري حبوبا .

قام فى الحال بيقرها فى ملكه الجديد ، فنتج له منها محصول جيد ، حتى لقد أوفى - فى بحر سنة واحدة - ما عليه للسيدة بالشقيق زوجته كذلك . وهاهنا الآن مالك مطلق !
لقد كانت الأرض التى ينفذ فيها الحب أرضه وحده ، المحصول الذى يحصده محصوله وحده ، والغابة التى يقطع منها الأخشاب غابته وحده ، والقطيع الذى يرعاه قطيعه وحده !

وكان كلما انطلق الى ملكه - الذى لا سبيل الى انتزاعه منه - كى يحرق الأرض ، أو يرقب المحصول ويجوس خلال المروج ، يشعر بسعادة لا نهاية لها ولا مزيد عليها . فالعشب كان يبدو له مختلفا عن كل عشب آخر ، والأزهار أكثر نضرة وتفتحاً . وقد كانت أرضه - ذات يوم - مجرد أرض بالنسبة اليه . أما الآن ، فطلى الرغم من أنها ما فتئت أرضاً ، أصبح يراها أرضاً مختلفة كل الاختلاف عن سائر الأراضى !

- ٣ -

• عاش باخوم هكذا زمناً . وكان سعيداً . . وكان خليقاً ان يكون سعيداً حقاً ، لو أن الفلاحين الآخرين تركوا حنطته وعشبه وشأنهما . فانه عبثاً احتج ، وعبثاً اعترض وكسر احتجاجاته واعتراضاته . اذ كان الرعاة يدلفون بقطعانهم الى مروجها ، وكانت الخيل تجد طريقها - بوسيلة ما - الى حقول القمح تحت جناح الليل . وكان باخوم لا ينى عن طردها وعن الرجوع فى ذلك لأصحابها . . الا أنه فقد آخر الامر السيطرة على أعصابه ، واستبد به الغضب ، ورفع شكوى الى المحكمة المركزية ، وهو يعلم حق العلم أن الفلاحين

انما يفعلون ذلك من قسرة هوزهم الى الارض ، وليس عن خبث أو بدافع الاذى . ومع ذلك ، فما كان يسمح بهذه الأمور ماداموا يأكلون خيرات ارضه . . فكان مضطرا الى أن يلقنهم درسا . . وقد التقى على أحدهم درسا في المحكمة ، ثم التقى درسا على آخر . اذ حكمت المحكمة بالفراطة على الأول ثم على الثاني . وقد أثار ذلك موجة الكراهية له ، وبدأ جيرانا يسرقون محصوله .

وحدث أن تسلل أحدهم ذات ليلة الى زراعته ، ونزع قشور ما لا يقل من عشرين من اشجار اليزفون . فلما ذهب باخوم - في اليوم التالي - الى تلك الجهة ، ورأى ما حدث ، امتقع لونه . واقترب من الاشجار فرأى أن قشرها قد انتزع وألقى بعيدا واستوصلت الجنود . ولم يترك اللثيم الا شجرة واحدة ، بعد أن اجتث كل فروعهما . . اما باقى الاشجار ، فقد نجح كل النجاح في الحاق الاذى بها . . ومن ثم فقد احتدم غيظ « باخوم » ، وهاج هائجه ، وفكر في نفسه قائلا : « آه ، لو اثنى فقط عرفت من فعل هذا » لطرحته في الحال وجعلته تحتى !

واستبدت به الدهشة والتساؤل عن يكون قد فعل هذا . وراح يقول انه لو كان شخصا معينسا ، فلا بد أن يكون « سيميكا » . ومن ثم ذهب يبحث عن « سيميكا » . الا أنه لم يحصل منه الا على شتائم ، جعلته أشد تأكدا منه في أي وقت مضى ، من ان « سيميكا » هو الذى ارتكب تلك الفعل . وقد قدم شكوى ضده ، واستدعى أمام المحكمة ، فتداول القضاة ثم تداولوا ، ثم رفضوا الدعوى - في النهاية - لافتقارها الى دليل . وقد زاد هذا من غضب باخوم ، فراح

يسبب رجال الشرطة والقضاة جميعا . وقال فيما قال : « انتم ايها القضاة شركاء اللصوص ، فلو انكم شرفاء ، لما حكمتم قط ببراءة سيميكا » .

نعم . لم يكن ثمة شك في ان « باخوم » كان ساخطا على القضاة وعلى جيرانه كلهم ، وقد بدأ يزداد انطواء على نفسه داخل حدود ارضه ، وقل شيئا فشيئا تعامله مع اهالى القرية ..

وذاعت في ذلك الوقت اشاعة مؤداها ان بعض الفلاحين في تلك الجهات يفكرون في الهجرة والرحيل ، مما جعل « باخوم » يفكر في نفسه قائلا : « اما انا فليس من سبب يدفعنى لان اترك ارضى .. بل ان رحيل بعض الآخرين يفسح لى مجالا اوسع هنا . اذ يمكننى من ان اشترى اراضيهم ، وبذلك اقيم لى سياجا من جميع الجهات من حولى ، واعيش فى راحة اعظم . فاننى فى الوقت الحاضر شديد الهم والضيق » .



وحدث بعد ذلك بزمان وجيز ، ان كان « باخوم » جالسا فى منزله - ذات يوم - حين اقبل عليه فلاح مسافر . فأتاح له « باخوم » مكانا يقضى فيه ليلته ، وقدم اليه طعاما . وسأله فى غضون الحديث عن المكان الذى جاء منه ، فأجابه الفلاح بأنه بئى من بلدة فى سهل يحف بنهر (القولجا) ، حيث كان يعمل . ثم استرسل يحكى كيف تكونت هناك مستعمرة ، وكيف ان كل مواطن يسجل اسمه فى سجل القرية ، يمنح عشرة « دسياتينات » من الارض يديعه ،

وحنطتها بالغة الجودة ، حتى لقد كانت عيدانها من الطول بحيث تخفى جوادا ، ومن الكثافة بحيث أن خمس قبضات منها تكون حزمة !! واستطرد الرجل يقول أن أحد الفلاحين كان قد وصل الى هناك فقيرا معدما ، لا يملك الا يديه اللتين يعمل بهما ، فأصبح يملك خمسين « دسيتين » يزرعها حنطة . ومن المؤكد أن هذا الرجل قد اكتسب خلال السنة الماضية - وحدها - خمسة آلاف روبل من حنطته ! وهنا احتدمت روح « باخوم » بحرارة النار ، وفكر في نفسه قائلا : « لماذا أبقى هنا ، فقيرا مملقا متضايقا ، في حين يمكنني أن أحيأ مثل هذه الحياة ؟ .. لسوف أبيع هذه الأرض . نعم ، سأبيع الأرض والبيت جميعا ، وأذهب الى هناك لأبنى لنفسى بيتا جديدا ، وأزرع هناك .. ما الحياة في هذه البقعة الشنيعة الا هم متصل ، فلأرحل الى هناك ، وأجمع المعلومات ، مهما يكبلنى هذا من ثمن ! »

وحين جاء الصيف ، تاهب للرحيل ، ثم استقل سفينة عبر (الفولجا) الى (سمارا) ، وقطع أربعمائة فرسخ حتى وصل الى المكان الذى يقصده ، فوجده كما وصف له . فالفلاحون يعيشون فى بسطة من العيش ، وقد خصصت لكل نفس منهم عشرة « دسيتين » . واستوثق من أنه سيجد من أهل القرية مودة وترحيبا . كما قيل له - فضلا عن ذلك - أن أى شخص يفسد الى هناك ومعه مال ، يستطيع أن يشتري قدر ما يريد من الأرض ، فوق القدر الممنوح له ، فتصير ملكا خالصا له الى الأبد .. ولقاء ثلاثة روبلات لكل « دسيتين » ، يستطيع المرء أن

ياخذ ما شاء من أجود الأرض !

كل ذلك علمه باخوم ، ثم عاد الى منزله فى الخريف ،
فبدأ - على الفور - يبيع ما لديه . وقد نجح فى أن يربح
أمر الأرض والمباني والماشية ، وحقق فى كل ذلك ربحا . .
ثم شطب اسمه من سجلات القرية وانتظر قدوم الربيع .
فلما أقبل ، بادى بالرحيل الى المكان الجديد مع أسرته .

- ٤ -

• وما أن وصلوا الى غايتهم ، حتى سجل « باخوم »
اسمه فى عداد سكان المستعمرة الكبرى - بعد أن بطل أفواه
الرؤوس الكبيرة طبعاً - وأتجز المستندات اللازمة . ثم
أخلوه ومنحوه خمسين « دسياتين » من الأرض - بواقع
عشرة « دسياتينات » لكل فرد من أفراد الأسرة - فى أماكن
مختلفة من المستعمرة ، فضلا عن المراعى العامة . وبنى
« باخوم » منزلا واثنه . وكانت أرضه المنوطة وحدها
ضعف ما كان يملك فى موطنه الاول ، فوق انها كانت
أرضا صالحة لزراعة القمح . وعلى العموم ، كانت الحياة
تفضل عشرة أضعاف ما كانت من قبل ، اذ بات تحت
تصرفه أرض صالحة للزراعة ، ومراعى خصبة معا . . فقد
كانت المراعى مساحة واسعة يطلق فيها من القطعان
ما يشاء .

وراح فى مبدأ الأمر - وهو بعد يشى ويؤثث - يرى كل
شئ بديما رائعا . الا أنه ما لبث ، حتى استقر به الأمر
قليلا ، أن بدأ يشعر بالضيق مرة أخرى . . فقد كان يريد

أن يزرع غلة قمح تركية بيضاء - كما يفعل الكثيرون غيره - ولكنه لم يجد أرضاً صالحة لزراعة القمح في حصصه الخمس .. إذ لابد للقمح من أرض جديدة معشبة ، أو أرض بور .. ومثل هذه الأرض ينبغي بذرها سنة ، وتركها بورا سنتين حتى ينمو العشب فيها مرة أخرى .. ولقد كان لديه من الأرض الرخوة ما يشاء ، ولكنها لم تكن تصلح إلا لزراعة « الجودار » ، وهو حب يشبه الحنطة . أما القمح فكان يحتاج إلى أرض صلبة ، والأرض الصلبة يكثر طلبوها ، وليس ثمة منها مساحة تكفى الجميع ، ولذلك فإنها كانت مصدر كثير من المشاحنات والمنازعات .. أما الفلاحون الميسرون ، فكانوا يبدرون أرضهم ، وأما الفقراء فعليه أن يرهنوا أرضهم للتجار !

وفي السنة الأولى ، بذر « باخوم » أرضه بالقمح ، وحصل منها على محصول رائع . ثم أراد أن يبدرها بالقمح سنة أخرى ، ولكنها لم تكن متسعة بقدر يكفى لأن يستبقى جزءاً من المساحة التى زرعها - فى السنة الماضية - بوراً . وبات لزاماً أن يحصل على قدر آخر من الأرض .. ومن ثم فقد ذهب إلى السوق ، وحصل على إيجار سنة لأرض صالحة لزراعة القمح ، وبذر فيها على قدر ما استطاع من المباشحة ، وفاز بمحصول عظيم .. غير أنه تصادف - لسوء الحظ - أن كانت الأرض بعيدة عن المستعمرة ، وكان عليه أن ينقل المحصول على العربات مسافة خمسة عشر فرسخاً . ولذلك فإن « باخوم » كان كلما رأى التجار المزارعين يقطنون بيوتا جميلة - ويزدادون غنى فى الأقليم الذى تقع فيه الأرض - فكر فى نفسه قائلاً : « ماذا عساها تكون الحال ، لو أتى حصلت على إيجار هذه الأرض لمدة أطول »

وَبُنَيْتَ فِيهَا بَيْتًا كَمَا يَفْعَلُونَ ؟ .. أَتَنَى عِنْدَكَ سَاعِدُو فِي
مَكَانِي الصَّحِيح ! »

وراح يدبر الأمر ليحقق فكرته .. بينما واصل العيش -
على هذا المنوال - خمس سنوات ، يأخذ على الدوام أرضا
ويبيلدها بالقمح . وكانت الأصوام كلها موائنة فنجح
القمح . وجاء المال .. ومع ذلك فقد بدت له الحياة - في
استرسالها على هذه الوتيرة - أمرا مملا ، قبلما يتعب من
تأجير الأرض كل سنة ، في إقليم غريب ، وينقل مآشيتة إليه
.. وكان هذا يضيع عليه الفرص . فحيث كانت تسنح
صفقة حسنة من الأرض ، كان الفلاحون يتزاحمون ، فيتم
تقسيمها قبل أن يتأهب هو لاستئجارها وبلدها جملة
واحدة .. وقد حدث أن ذهب - ذات مرة - ليشارك
تاجرا في استئجار مرج كامل لبعض الفلاحين وحرثه ،
قالفى الفلاحين قد فرطوا في المرج لآخرين بشمن بخس ،
وذهب كل تبعه هباء .. آه لو كانت هذه الأرض مملوكة
له ملكا خالصا !.. إذن لما احتاج لأن يعطيها لاحد ، ولا أن يقع
في أية متاعب !

ومن ثم بدأ يبحث عن ضيعة يشتريها في الحال . وإذا كان
يصدد هذه المحاولة ، وقع على فلاح تدهورت حاله ، فكان
على استعداد لأن يبيعه أملاكه البالغة خمسمائة «دسايين»
بشمن بخس . وما لبث باخوم أن دخل معه في ممارسة
ومباحثات . وبعد كثير من المحاوراة والدواورة ، اتفقا على
الف روبل تمنا للأرض ، يدفع نصفها في الحال ، بينما يدفع
نصفها الآخر على آجال . وتصادف - بعد أن اتفقا على
ذلك - أن جاء إلى بيت باخوم ، ذات يوم ، تاجر ليفحص
خيوله . وبعد أن شربا معا أبريقا من الشاي ، وراحا

يتحدثان ، قال التاجر - خلال الحديث - انه جاء من بلاد بعيدة جدا هي بلاد رجال « الباشكير » ، حيث - على حد قوله - اشترى خمسة آلاف « دسياتين » بألف روبل لاغير ! .. فراح باخوم يوجه اليه الأسئلة ، وراح التاجر يجيبه على أسئلته . وأخيرا قال له : « كل ما فعلت انني أعطيت كبار السن هناك بضع هدايا - هي عبايات ، وأبسطة ، وصندوق شاي - ووزعت قرابة مائة روبل وقدمت الفودكا لكل من وجدته يميل اليها . وكانت النتيجة انني حصلت على الأرض بواقع عشرين كوبيك للدسياتين » .. وقد أطلع باخوم على وثيقة البيع ، ثم ختم كلامه قائلا : « ان الأرض تقع على نهر ، وكلها أرض خلاء معشبة مخصبة » .

وراح باخوم يلحف عليه في السؤال ، فاسترسل التاجر قائلا : « انك لن تجد مثل هذه الأرض في سنة . وهكذا الحال بالنسبة لكل أراضي الباشكير . وفوق ذلك ، فان الناس هناك بسطاء كالأغنام . ويمكنك الحصول منهم على كل شيء لقاء لاشيء ! » .. ومن ثم فكر باخوم قائلا : « ما جدوى أعطائي ألف روبل لقاء خمسمائة دسياتين فقط ، ويبقى - مع ذلك - دين في رقبتى ، في حين يمكننى ان اغدو مالكا حقيقيا بالمبلغ ذاته ؟ »

- ٥ -

• سال باخوم التاجر عن الطريق الموصل الى بلاد « الباشكير » ، فما خرج هذا الأخير من عنده ، حتى تأهب للرحلة . وغادر بيته ، تاركا فيه زوجته ، ولم يأخذ معه سوى خادمه .. واتجه - أولا - الى المدينة ، فاشترى

منها صندوقا من الشاي ، وزجاجات من « الفودكا » وبعض الهدايا الأخرى ، كما نصحه التاجر . ثم انطلق الاثنان ، وظلا في سفر حتى قطعا خمسمائة فرسخ ، وفي اليوم السابع ، وصلا الى مضارب « الباشكير » ، فبدا لهما كل شيء كما قال التاجر . . كان الناس يعيشون في عربات مضبوطة على سيف نهر يجرى ، وهم لا يحرقون الأرض ولا يأكلون القمح ، في حين تتجول في الوادي قطعان من الماشية وخيول القوزاق . أما الافراس الصغيرة فكانت مقيدة في مؤخر العربات ، ويأتون لها بأمهاتها مرتين في اليوم لارضاعها . . وكان أهم غذاء للناس هناك هو لبن الفرس - وهى أنثى الخيل - الذى تحولت النساء الى شراب يسمى « الكوميس » ، ثم تمخضن « الكوميس » فتستخرجن منه الجبن . والواقع أن « الكوميس » كان الشراب الوحيد المعروف لدى « الباشكير » ، الى جانب الشاي . . أما الأكل الوحيد الذى كانوا يعتبرونه غذاءهم ، فهو لحم الضأن . . وكانت ملهاتهم الوحيدة هى العزف على المزمار . وكانوا جميعا يبدون لطافا مرحين ، يقضون العام كله في بطالة . أما التعطيم فكانوا متخلفين فيه بصورة محزنة ، ولم يكونوا ملمين باللغة الروسية ، ولكنهم كانوا قوما ودودين جذابين برغم هذا كله . . أو ربما بسببه !

وما أن رأوا « باخوم » حتى خرجوا من عرباتهم واحاطوا بضيفهم . وسرعان ما جاعوا بمترجم أنهى اليه « باخوم » أنه جاء ليشتري أرضا . . فما عرف القوم ذلك حتى تملكهم السرور ، وعانقوا باخوم في حرارة وحماس ، ورافقوه الى عربة فخمة ، حيث أجلسوه على كومة من الطناقيس تعلقوها وسادات ناعمة ، وجاءوا له ببعض الشاي و « الكوميس » .

وذبحوا شاة وأعدوا له غذاء من لحم الضأن . حتى اذا انتهى باخوم من ذلك كله ، جاء بالهدايا من عربته ذات العجلتين - وتسمى « التارتاس » - ووزعها ، وقسم الشاي . ثم راح رجال « الباشكير » يتكلمون فيما بينهم برهة ، ثم طلبوا من المترجم أن يتكلم ، فقال : « انهم يقولون أنك أسرتهم ، وأن من عاداتنا أن نلبى طلبات الضيف ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، في مقابل الهدايا التي يعطينا اياها . ولا كنت قد جئت لنا بهدايا فماذا تطلب منا حتى تمنحك اياه ؟ »

فاجاب باخوم قائلا : « الذى اريده - على وجه الخصوص - هو بعض اراضيكم » . ثم استطرد قائلا : « ليس في البلد الذى جئت منه الكفاية من الأرض ، وما هو موجود منها مزروع فعلا ، في حين ان لديكم الكثير . . وهى أرض جيدة لم أر لها نظيرا من قبل » . وترجم المترجم . . وتكلم رجال « الباشكير » فيما بينهم مرة اخرى . ومع ان باخوم لم يفهم ما كانوا يقولون ، فقد استطاع أن يرى أنهم يراحوا يتصايحون معبرين عن شيء ما بصوت مرح . ثم انفجروا ضاحكين . وأخيرا توقفوا ، ونظروا الى باخوم ، في حين راح المترجم يقول له : « يقولون لك أننا - في مقابل كرمك - على استعداد لأن نبيئك ما تشاء من الأرض ، فما عليك الا أن تشير بيدك مينا العدد ، وسوف يكون ما تطلبه ملكا لك » .

الا ان القوم - عند هذا الحد - بدؤوا يتكلمون فيما بينهم مرة اخرى ، ويختلقون فيما يتعلق بأمر ما . . فلما سأل باخوم عن جلية الأمر ، قال له المترجم : « ان بعضهم يقول أن الرئيس - الذى يسمونه الستارشينا - ينبغي أن يكون

له الراى الأعلى فيما يتعلق بالأرض ، وأنه ما من شيء يمكن إبرامه بدونه .. فى حين يقول الآخرون أن هذا ليس ضروريا .

- ٦ -

• وفيما كان رجال الباشكير يتناقشون هكذا « دخل العربة فجأة ، رجل يرتدى قبعة من فرو الثعلب ، فوقف الجميع لمقدمه ، فى حين قال المترجم لباخوم : « هذا هو الرئيس بنفسه » . وفى الحال ، تناول باخوم افخم عباءة فمنحها للقادم ، مع خمسة أرطال من السكر . وقبلها الرئيس فى الحال ، ثم جلس فى مكان الشرف . وبدأ رجال الباشكير يشرحون له الأمر ، فأنصت اليهم ، ثم ابتسم وتكلم مع باخوم بالروسية قائلا : « اختر البقعة التى تعجبك ، أينما تكون ، فإن لدينا الكثير من الأرض » .

ففكر باخوم فى نفسه قائلا : « اذن لى أن آخذ ما اشاء ، فعلى رسلك !.. لسوف أؤكد هذه الصفقة بعض الشيء ، فمن يدري ؟.. لعلهم يقولون ، أن الأرض لى ، ثم يأخذونها منى مرة أخرى ! » . ثم قال للرئيس بصوت مرتفع : « اننى اشكرك من أجل قولك المشرب بالعطف .. ولما كنت تقول : أن لديك كثيرا من الأرض ، وأنا فى حاجة الى بعض منها ، فأننى أريد أن أعرف أينما تكون لى بالتعيين ، لذلك يحسن أن نقيسها بطريقة ما ، ثم أن نتخذ اجراءات نقل ملكيتها لى .. فإن الله وحده هو سيد الحياة والموت ، ومن يدري ؟.. انكم قوم طيبون اذ تعطونها لى الآن .. ولكن »

قد يأتى من بعدكم أبناء ، يأخذونها منى مرة أخرى ! » فابتسم الرئيس وقال : « ان نقل الملكية قد تم بالفعل ، وهذا الاجتماع هو وسيلتنا فى فعل ذلك ، وما من شيء

ادعى منه للتأكد والثقة . فقال باخوم : « ولكننى سمعت أن تاجراً زاركم أخيراً ، وأنكم يعتموه أرضاً ، وأعطيتوه وثيقة تفيد نقل الملكية ، فأرجوكم أن تفعلوا المثل معى » . إذ ذاك فهم الرئيس قصده ، فأجابه : « حسناً جداً ، إن لدينا كاتباً هنا : وسوف يذهب إلى المدينة ويحصل على الأختام اللازمة » .

وسأله باخوم قائلاً : « ولكن ما الثمن الذى تريدونه للأرض ؟ » . فأجابه الرئيس : « الثمن الذى نريده هو ألف روبل فى اليوم فقط ! » . ولم يكن باخوم قد ألف أن يحدد الثمن باليوم ، فتساءل :

— وكم « دسيتين » يعنى هذا ؟

— اننا لانحسب بهذه الطريقة ، وانما نبيع فقط باليوم ، أى أن الأرض التى يمكنك أن تمشى حوالىها فى اليوم ، تكون لك . هذا هو طريقنا فى القياس ، والثن ألف روبل !

فقال باخوم مندهشاً : « ولكن الانسان يستطيع أن يمشى حول مساحة كبيرة من الأرض فى اليوم ؟ » . فابتسم الرئيس مرة أخرى ، وقال : « حسناً ، فانها على أى حال ستكون لك ، ولكن بشرط واحد فقط ، وهو أنك إذا لم تعد فى ذات اليوم إلى النقطة التى بدأت بها ، ضاعت عليك النقود ! »

— ولكن ، كيف تحكمون فى هذا ؟

فقال الرئيس : « اننا نقف عند موضع تختاره أنت ، فاطل مع رجالى هناك ، بينما تمشى أنت ملتفاً حول الأرض ، وبعض شباننا يتبعك ليفرس عصاً فى كل مكان تريده . ولك عندئذ أن تصنع الدائرة التى تروق لك . . كل ما هنالك أنك يجب أن تعود إلى النقطة التى بدأت منها عند

غروب الشمس .. واية مساحة من الأرض تحوطها انشاء
سيرك ، تكون لك ! »

وقبل باخوم هذه الشروط .. وتم الاتفاق على ان تبدأ
فى الصباح الباكر . ثم تحلث القوم مرة أخرى ، وشربوا
مزيذا من « الكومينس » ، واكلوا قدرا اكبر من لحم
الضأن ، ثم انتقلوا الى شرب الشاي . واستمر احتفالهم
حتى ارخى الليل سدوله .. ثم ذهب باخوم الى فراشه ،
وتفرق رجال « الباشكير » بعد ان تواعلوا على التجمع
- فى الصباح - عند النهر ، حيث ينطلقون الى المكان المعين
قبل طلوع الشمس .

- ٧ -

استلقى باخوم فى فراشه ، ولكن النوم لم يوافه
بسبب تفكيره فى الأرض .. وقد استرسل يقول لنفسه :
« لقد عزمت على أن افوز بمساحة كبيرة جدا ، وللملك فان
فى أمكانى أن أسير على الاقل خمسين فرسخا فى اليوم ،
وهذه تقدر - فى أى مكان - بعشرة آلاف دسياتين .
وبعدها لن أكون تحت امره انسان ، ولسوف أكون قادرا
عند ذاك على استخدام زوج من الثيران وعاملين ، وسوف
أحرق أجود الأرض وأرعى الماشية فيما تبقى منها » .
وهكذا لم يغمض لباخوم - طيلة ذلك الليل - جفن ،
ولكنه أغفى قبيل الفجر اغفاءة قصيرة . وفى اللحظة التى
فعل فيها ذلك ، حلم حلما . قرأى قيما يرى الناس
يستمع الى شخص يضحك ويتكلم فى الخارج . واذ أراد
أن يرى من ذلك الذى يضحك هكذا كثيرا ، خرج ورأى
رئيس الباشكير يجلس على الأرض وهو يضع يديه على
جبينه ويتأرجح من فرط السرور . وسأله عن الأمر الذى

اضحكه ، ولكنه تبين أنه لم يكن هو الرئيس الذى عرفه ،
وانما التاجر الذى زاره وحدته عن هذه الأرض ، ورأى
نفسه وهو يقول للتاجر : « ألم أرك فى بيتى منذ وقت
قصير ؟ » . الا ان التاجر تحول فجأة ، فاتخذ صورة
الفلاح الذى جاء من (الفولجا) وتكلم عن حقله هناك .
واخيرا ادرك باخوم ان هذا الفلاح لم يكن فلاحا على
الإطلاق ، وانما كان هو الشيطان نفسه بجوارى وقرنين ،
واته كان ينظر بامعان الى شيء وهو يجلس ويضحك .
وفندئذ فكر باخوم فى نفسه قائلا : « الى أى شيء ينظر ؟ ..
ولماذا يضحك هكذا كثيرا ؟ » .. وتراجع - فى حلمه - خطوات
قليلة الى الداخل لينظر ، فرأى - حيث كان الشيطان
يتطلع - رجلا عارى القدمين ، لا يرتدى الا قميصا وسروالا ،
وقد نام على ظهره ، ووجهه أبيض كالقرطاس .. فلما نظر
بامعان الى الرجل ، رأى فيه نفسه .. رأى أنه هو ذاته !
وأرسل صيحة ، ثم استيقظ من نومه .. استيقظ
شاعرا كأن الحلم حقيقة . ثم نظر ليرى ما اذا كان النهار
قد طلع . فلما رأى الفجر اقترب ، فكر قائلا : « ان الوقت
أزف .. يجب ان اوقف اولئك الرجال الطيبين ! »

- ٨ -

• قام باخوم وأيقظ خادمه - الذى كان نائما فى
العربة - وطلب اليه أن يعد الجواد ، وان يذهب ليدعو
رجال « الباشكير » .. اذ كان الوقت قد حان لينطلقوا الى
الأحراش ويقيسوا الأرض . واستيقظ رجال « الباشكير » ،
وتأهبوا للذهاب . كما وصل الرئيس .. وأفطروا على
« الكوميس » ، وأعطوا باخوم بعض الشاي ، ولكنه لم يطق

ان ينتظر ، قائلا : « اذا كان علينا ان نذهب ، فلنذهب ،
 فقد جاء الوقت ! » . ومن ثم جهز رجال الباشكير خيلهم ،
 واستطى بعضهم ظهورها بينما استقل بعضهم الاخر العربات
 . . فى حين استقل « باخوم » عربته الخفيفة مع خادمه .
 ووصلوا الى الاحراش عند طلوع الفجر ، فتقدموا نحو
 تل صغير يسمى فى لغة الباشكير « التيشيشيان » . وهناك
 ترجل الذين كانوا فى العربات ، وتجمعوا . . والتفترب
 الرئيس من باخوم فطوقه بنراعيه قائلا له : « اى ارض يقع
 بصرك عليها هنا ارضا ، فاختر منها اى اتجاه تريد ! » .
 فبرقت عينها باخوم ، لان الارض كلها كانت مغطاة ، مبهدة
 ككف يده ، سسوداء تحت الخضرة كراس الخشخاش .
 الا انه كان ثمة خندق يخف عنده العشب . اما فى بقية
 الارعاء فكان العشب بارزا كصدر الحساء . وخلع الرئيس
 قبعته المصنوعة من فرو الثعلب ، فوضعها فى وسط التل ،
 ووجه الكلام الى باخوم قائلا : « ستكون هذه علامتنا ،
 خضع فيها نقودك ، وسيظل خادمك بجانبها فى الوقت الذى
 تنطلق فيه انت . . ومن هذه العلامة سوف تبدأ ، واليهما
 تعود . . وقلنا ما تحوط من الارض ، سيكون لك ! »
 وأخرج باخوم نقوده فوضعها فى القبعة ، ثم خلع رداءه
 وارتردى صدريته ، وأحكم شد حزامه حول خصره ، ودس
 بعض الخبز فى صدره . وربط زجاجة ماء على شريط الجلد
 المحيط بكتفه ، وأحكم رباط حذائه الطويلين ، وثبها لبسده
 الرحلة . . وراح يشاور نفسه اية وجهة من الافضل ان
 ينتجه ، لان الارض كانت جيدة حيثما اذار بصره . وأخيرا
 حزم رايه قائلا : « بادامت كلها سوداء ، فسانتجه مع النهر
 الصاعد » . .

وولى وجهه شطر الناحية ، وراح يدرب اطرافه وهو ينتظر مشرق الشمس ، ويفكر قائلا : « ينبغي الا اضيع وقتا ، ولسوف أبذل كل جهدى فى السير منتهزا فرصة الجو الزطيب فى فترة الصباح » .. ووقف رجال الباشكير بجانب ياخوم ، فما أرسلت الشمس اول اشعتها عبر الافق ، حتى بدأ ياخوم رحلته خلال الاحراش ، وسار الرجال راكبين خلفه ..



سار فى اول الامر فى غير بطء وفى غير اسراع . وبعد ان قطع نحو فرسخ واحد ، توقف وغرس عصا .. ثم واصل السير مرة اخرى ، وقد بدأ يفقد جموده الاول ، ويطيل خطواته . ثم وقف مرة ثانية ، وغرس عصا اخرى . ونظر الى الشمس - التى كانت الآن تضىء الاحراش وتكشفها - وقد بدأ على ضوئها القوم الواقفون على التل . وقدر انه مشى حوالى خمسة فراسخ . ولما كان قد بدأ يستشعر الحرارة ، فقد خلع صديريته ، وشد حزامه مرة اخرى ، ثم سار خمسة فراسخ اخرى وتوقف . وكان القيظ قد بدأ يشتد . فنظر الى الشمس مرة اخرى ، ورأى أن الضحى قد حان . ففكر فى نفسه قائلا : « هل أتجه وجهة اخرى .. ثمة اربع وجهات امامى اقطعها فى سحابة النهار ، ولكن الوقت مازال مبكرا لأفصل ذلك . ومع هذا فلا خلع حذائى ! » . وخلع حذاءه ، ثم نهض وواصل السير مرة اخرى ، وقد أصبح السير ايسر عليه . وقكر قائلا : « سأقطع خمسة فراسخ اخرى ، ثم أتجه الى الشمال » . وهذا التقدير حسن جدا ، فعلى قدر ما أتوغل ، تكون الأرض أكثر جودة » . ومن ثم فقد ظل محتفظا باتجاهه

الأول . ومع ذلك فانه - حين تلفت حوالبه - رأى ان النمل قد اختفى عن النظر ، وقد غدا الرجال الواقفون هناك كأنهم النمل الاسود الصغير .

وأخيرا قال لنفسه : « الآن ، أصبحت المسافة التي رسمتها متسعة اتساعا كافيا ، وينبغي لى الآن أن أتجه وجهة أخرى » . وكان الجهد قد أخذ منه ، وانتابه العطش . فرفع الزجاجاة ويمل حلقه بجرعة من الماء ، ثم غرس عصا أخرى في النقطة التي وصل إليها ، واتجه الى الشمال بميل شديد ، وراح يفذ السير بين العشب المرتفع والحرارة المتقدة . وقد بدأ يتعب .. فلما نظر الى الشمس ايقن أن وقت الغداء قد حان ، ففكر في نفسه قائلا : « الآن ينبغي لى أن أجازف بالاستراحة قليلا » .. ومن ثم توقف وأكل قطعة من الخبز ، وان لم يجلس . اذ قال في نفسه : « لو أنني جلست مرة ، فلسوف أستلقي ، وينتهى بى الحال الى أن أستغرق في النوم » . على أنه انتظر قليلا حتى شعر بأنه أخذ قسطا من الراحة ، ثم واصل السير مرة أخرى .

ووجد السير سهلا بعد ذلك اذ جدد الأكل قواه . ولكنه مالبث بعد برهة أن أحس أن حرارة الشمس تزداد حدة وهي تميل نحو مغربها . وكان قد غدا قريبا من الإرهاق ، وان راح يقول في نفسه في مرح : « ساعة ألم يعقبا زمان من الراحة والكسب ! » .

وكان قد اجتاز حوالى عشرة فراسخ من دائرة الأرض ، وهم أن يتجه مرة أخرى نحو الشمال ، حين وقعت عينة على رقعة أرض رائعة حول واد جاف . كان من الحباقة ترك هذه الرقعة . وفكر قائلا : « أن الكتان ينمو ثموا رائعا هنا » .. ومن ثم فقد واصل السير حتى عبر الوادى

وغرس عصا في تلك البقعة ثم غير اتجاهه مرة أخرى ، فلبدة صوب نظره تجاه التل ، لم يعد يكتبه أن يميز القوم هناك . . كانوا على بعد لا يقل عن خمسة عشر فرسخا . وعلى ذلك فكر قائلا : « لقد قطعت المرحلة الكبرى ، وينبغي لى أن أقطع هذه المسافة الأخيرة في أقصر وقت ممكن » .

وشرع في الحال ، وأسرع الخطى . ومرة أخرى ، نظر نحو الشمس . . كانت تنحدر انحدارا سريعا نحو مغربها ، ولم يكن قد قطع من تلك المسافة سوى فرسخين . وكانت نقطة الابتداء على ثلاثة عشر فرسخا ، فقال في نفسه : « يجب أن أسرع الآن . فقد طوقت مساحة كافية ! » . ثم اتجه رأسا الى التل .

- ٩ -

• وحث الخطى رأسا في اتجاهه ، ولكنه بدأ يحس بمشقة السير ، وغدت قدماه ثقلان لما شديدا ، لأنه أرهقهما واذاعهما « فبدأتا تترنحان من تحتة . وكان على استعداد أن يعطى أى شيء في نظره أن يصمد بعض الوقت في رحلته هذه ، فقد كان يعلم أن الشمس لن تنتظره ، بل إنها كانت كسائق لا يكف عن الهابة بالسياط . وأخذ يترنح من وقت لآخر ، وهو يفكر في نفسه : « اننى بالتأكيد لم أخطئ التقدير . . بالتأكيد لم آخذ قبرا من الأرض أكبر من أن يجعلنى أقدر على بلوغ الهدف مهما أسرعت . . أن أمامى كل هذه المسافة لأصل وقد قتلتى التعب ، ولا يعقل أن مالى وتعبي قبل ذهب كله سدى . . آه . . حسنا . يجب أن أبلل كل جهنئ ! »

وراح يجر نفسه محاولا أن يجرى . . ومزق قميصه حتى ادماهما ، ومع ذلك ظل يجرى ويجرى ويسرع ثم يسرع .

وقد أمسك بالصديري ، والحذاء والزجاجة والقبعة وربما
جميعا .. وكان يفكر قائلا : « آواه ! .. لقد سررت أول
الأمر أعظم السرور بما رأيت . والآن قد ضاع كل شيء ،
ولن أصل أبدا إلى السلامة قبل الغروب ! » . وعملت
مخاوفه على أن تزيد من تقطع أنفاسه ، ولكنه - مع ذلك -
ظل يجرى ، وقد التصق قميصه وسرواله بأطرافه من
التعب ، وجف حلقه . وكأنما راح يعمل في صدره منفاخ
حداد ، وأخذ قلبه يدق كمطرقة بخارية ، في حين أحس
بأن قلبه كانا يتفتتان تحته وكأنهما ليسا قلبيه . وفقد
كل تفكير في الأرض .. كل ما بات يفكر فيه هو أن يتجنب
الموت من فرط الاجتهاد . ومع ذلك ، وبالرغم من أنه كان
خائفا جدا من الموت ، فإنه لم يقو على أن يتوقف . وراح
يفكر قائلا : « اذهب هكذا بعيدا ثم أقف .. لسوف
يعتبروننى مجنوناً إذن ! » .

وبات في وسعه أن يسمع الرئيس الواقف عند التل ،
وهو يضحك ويصيح له مع رجاله ، فأخذت صيحاتهم تبعث
روحا جديدة فيه .. وراح يجرى ويجرى بما تبقى لديه من
قوة ، في حين كانت الشمس تلمس حافة الأفق . آه ! ..
لقد أصبح قريبا من العلامة الآن ! .. ان في استطاعته أن
يرى القوم على التل وهم يلوحون له بأيديهم ويستحثونه ..
وبات في أمكانه أن يرى القبعة المصنوعة من فرو الثعلب
ملقاة على الأرض ، والنقود فيها ، والرئيس بجانبها ويدها
على جيبه .. وفجأة تذكر بأخوم حلمه .. وراح يستفز
قائلا : « ولو اننى أصبحت مالكا لأرض كثيرة الآن ، فكم
أتمنى على الله فقط لو أوصلنى سالما لأتمتع بها .. ولكن
قلبي يحدثنى بأننى قد قتلت نفسى ! »

وما فتئ يجرى .. وفي آخر لحظة - نظر نحو الشمس ،
فاذا بها تبدو كبيرة ، وحمرء ، وقد مسّت الأرض وبدأت
تفوص خلف الأفق .. ووصل الى التل في الوقت الذي
غربت فيه ، فصاح في يأسه قائلاً : « آه ! .. » اذ ظن ان كل
شيء قد ضاع . وفجأة ، تذكر ان الرجال فوق التل على
مرتفع منه ، وان الشمس بالنسبة اليهم لم تغرب بعد ..
فاندفع الى الرابية : وامكنه ان يرى - وهو يزحف - ان
القبعة مازالت هناك . ثم كبا وسقط . ولكنه مد ذراعيه
- وهو يسقط - نحو القبعة أمسك بها !

وصاح الرئيس قائلاً : « آه . لاشك انك - أيها
الشاب - قد حزت لنفسك كثيراً من الأرض » .

وجرى خادم باخوم نحو سيده ، وحاول ان يرفعه ،
ولكن الدماء كانت تجري من فمه . وقد رقد ميتاً ..
وصاح الخادم في فزع .. ولكن الرئيس ظل جالساً يضحك ،
ويدها على جنبه . وأخيراً ، وقف وأخذ معولاً من الأرض ،
والقى به الى الخادم . وكان كل ما قاله له : « ادفنه ! »

ووقف رجال « الباشكير » فترة ، ثم انصرفوا . ولم
يبق الا الخادم ، الذي حفر قبراً على قدر طول « باخوم »
- من رأسه الى قدميه - وكان ثلاثة أذرع روسية ..
فدفنه فيه !

حكمة سولون

• في قديم الزمان ، قبل مجيء المسيح بوقت طويل ،
نولى حكم بلد من البلدان ملك عظيم يسمى «كروسوس» ،
كان يمتلك كثيرا من الذهب والفضة ، وعددا وفيرا من
الاحجار النفيسة .. وتحت امرته ما لا يعد ولا يحصى من
العسكر والعبيد . وكان يعتقد موقنا انه ليس في العالم
كله من هو اسعد منه .

واتفق ذات يوم ، ان زار البلد الذي كان ذلك الملك
يحكمه . فيلسوف يوناني عظيم اسمه « سولون » ، اشتهر
في البلاد كلها بأنه عادل وحكيم . واذا كانت شهرته قد بلغت
مسامع « كروسوس » . فقد أمر بأحضاره لمثل امامه .
وكان الملك متربعا على عرشه ، ومتسربلا بأبهى حله ،
حين جاء سولون . فسأله الملك : « أرايت من قبل افخر
او اكثر ابهة مما ترى ؟ » .

فاجاب سولون قائلا : « بالتأكيد .. رايت كثيرا من
الطواويس والديكة ، تتالق بأبهى الاردية وأزهى الالوان ،
التي لا يمكن أن تضاهيها صنعة أو يحاكيها فنان » .
فصمت كروسوس ، وراح يفكر في نفسه قائلا : « مادامت
هذه لم تبهره أو ترضيه ، فلاطلعنه على المزيد ، ولاثيرن .

دهشته ! » . . ومن ثم انطلق يعرض أمام عيني الفيلسوف كل ثرواته ومقتنياته ، وراح يزهو ويتباهى بعدد من ذبح من الأعداء ، وما فتح من البلاد ، وما سجنى من العبيد والاماء . ثم التفت الى الفيلسوف قائلاً : « لقد قدر لك ان تعيش كثيراً من السنين ، وان تزور كثيراً من البلدان ، فقل لى ، من ذا الذى تعتبره أسعد انسان فى الدنيا ؟ »

فأجابه قائلاً : « ان الذى اعتبره أسعد انسان فى الدنيا هو رجل فقير يعيش فى آتينا » .

فدهش الملك من هذا الجواب ، لانه كان واثقاً من ان الفيلسوف سيذكره هو بالذات ، فاذا به - برغم ما رأى - يذكر انساناً مغموراً لا يعرفه احد . ومن ثم سأله قائلاً : « لماذا تقول ذلك ؟ »

فقال سولون : « لان الرجل الذى اتكلم عنه قد كافح كل حياته ، وقنع بالقليل ، وقد قام بتربية اطفاله باخلاص ، وخدم اهل مدينته بشرف ، وجعل لنفسه احلوثة طيبة وسمعة نقية طاهرة » .

فلما سمع كروسوس ذلك قال محتداً : « واذن فهل تعتبر سعادتى غير ذات قيمة » وتعتبرنى غير اهل لان اقارن بالرجل الذى تتحدث عنه ؟ »

فأجابه سولون قائلاً : « كثيراً ما يحدث ان يكون رجل فقير أسعد من رجل غنى . ولا ينبغي لك ان تصف رجلاً بأنه سعيد ، حتى تنتهى أيامه ويموت ! »

فاستاء الملك من كلمات سولون ، واستشاط غضباً من

حكمته فطرده ، قائلا فى نفسه : « انه لجنسون ! وان على الانسان طالما هو حى ان يفتزق قدر طاقته من المسرات » .



ونسى الملك بعد ذلك « سولون » ، تمام النسيان .
الا انه لم يمض وقت طويل ، حتى حدث ان ذهب احد
ابناء الملك ليصطاد « فأصيب - لسوء الحظ - بجرح مات
من جرائه . ثم جاءت الانبياء الى « كروسوس » بأن
الامبراطور القوى « سيروس » قادم ليحاربه .
وخرج « كروسوس » على رأس جيش عظيم للقاء
« سيروس » . . ولكن العدو ما لبث ان تفوق عليه ، وافنى
جيشه ، ودخل ظافرا الى عاصمة ملكه .
وبدا الجنود الاغراب ينهبون املاك الملك كروسوس
ويذبحون رعيته ويحرقون المدينة . وقبض احد الجنود على
« كروسوس » نفسه ، وكان على وشك ان يطعنه ، لولا ان
اندفع ابن للملك متصديا للذود عن ابيه ، وصرخ قائلا : « لا
تلمسه ! انه كروسوس الملك ! » . .

ومن ثم احاط الجند بكروسوس واوثقوه وحملوه الى
الامبراطور . ولكن هذا كان يحتفل بنصره فى مائدة عظيمة ،
فلم يتمكن من مخاطبة الأسير ، واصدر الامر باعدامه .
وفى وسط ميدان المدينة ، اعد الجنود كومة كبيرة من
الخطب ، ووضعوا الملك على قممتها ، وقد ربطوه فى صارية ،
وأشعلوا النار فى الخطب .

وتطلع كروسوس حواليه الى مدينته ، والى قصره ،
وعندئذ تذكر كلمات الفيلسوف اليوناني ، فانفجرت الدموع
من عينيه وهو يردد قائلا : « سولون ! .. سولون ! » .

وكان الجنود يحيطون بالحطب المشتعل حين وصل
الامبراطور «سروس» بشخصه ليشهد الاعدام ، فالتقطت
أذناه الكلمات التي فاه بها كروسوس ، ولكنه لم يفهما ،
فامر باقضائه « كروسوس » عن الحطب ، وطلب اليه ان
يحدثه عما كان يقول ، فأجاب كروسوس قائلا : « انما كنت
أردد اسم رجل حكيم ، كان قد ذكر لي حقيقة عظيمة ..
حقيقة تسلي أكثر من كل ثروات الأرض .. اكسر من
سجنا الملكى ! »

وروى « كروسوس » حديثه مع سولون ، فمست
القصة قلب الامبراطور ، لأنها علمته أنه هو الآخر لا يعلم
ان يكون بشرا .. وانه كذلك لا يعلم ما يخبئه له القدر من
احداث .

ولم يتمالك - فى نهاية الامر - ان عفا عن « كروسوس »
واكرمه ، وقربه اليه ، فأصبحا صديقين حميمين .



اصل عنوان هذه القصة : « كيف كفر الشيطان
الصغير عن حادث كسرة الخبز » !

• خرج فلاح فقير يوما ليحرث أرضه ، ولم يكن لديه ما يفطر به ، فلم يأخذ معه إلا كسرة خبز للفداء .. وفي الحقل ، وضع الكسرة فوق اكمة ، وقطاعها بثوبه ، ثم أمسك بالمحراث ، وبدأ يشق بطن الأرض .. حتى اذا عضه الجوع ، ترك محراثه وذهب لياتي بفدائه ، فما ان رفع الثوب حتى أجفل .. **فأين كسرة الخبز ؟ .. أنها لم تكن هناك ..** وأخذ يبحث عنها ، وقلب الثوب وهزه ، ولكنه لم يجدها .. فدهش ايما دهشة .. وبدأ له الامر عجيبا غاية العجب ، وقال في نفسه : « لم أر احدا ياتي هنا ويأخذها ! »

الا ان واقع الامر ان شيطانا صغيرا اتى وسرق الكسرة حين كان الفلاح يحرق ، وقبع خلف الاكمة ليستمتع بسماع الفلاح وهو يسب ويلعن بسبب ما فقده .

وقنط الفلاح واكتاب جدا « الا ان كل ما فعله هو ان قال : « حسنا ، اننى لن أموت من الجوع . ولابد ان الذى اخذ الكسرة محتاج اليها ، فليأكلها وليهنأ بها » .. ثم ذهب الى النبع ، وشرب جرعة ماء ، واستلقى قليلا على الأرض حتى استراح ، قبل ان يعود الى المحراث مرة اخرى ، ويستأنف عمله .

ومن ثم فقد خاب أمل الشيطان الصغير ، اذ فشل في دفع الفلاح الى ارتكاب الخطيئة . وانطلق مسرعا الى الجحيم ليرى لرئيس الشياطين كيف انه سرق كسرة الفلاح ، فلم يفعل هذا الا أن دعا للسارق ويباركه . فلما سمع رئيس الشياطين ذلك منه غضب غضبا شديدا ونهره قائلا : « اذا كان الفلاح قد انتصر عليك فلا بد أنك أنت المخطيء دون سواك ، ولا بد أنك لم تسلك قيما فعلت سواء السبيل » .
وانها لسابقة خطيرة - ولا شك - أن يمتنع الفلاحون عن

السبب واللعم ، ثم يتبعهم في ذلك المعجائز من نساءهم .
وتكون النتيجة اننا يستحيل علينا أن نعيش على الإطلاق .
كلا . ان الأمر لا يحتمل اى تهاون ، من جانبنا ، ولا ينبغي
أن يترك هكذا » . . ثم أردف قائلا : « اذهب مرة أخرى
واعد للفلاح كسرته ، واذا عجزت خلال ثلاث سنوات منذ
اليوم ، عن أن تحصل منه على نتيجة أفضل ، فائنى
سأغطسك في الماء المقدس ! »

وفزع الشيطان الصغير فزعا شديدا لمجرد ذكر الماء
المقدس ، فمرك مسرعا نحو الأرض . وهناك استغرق في التفكير
منقبا في ذهنه عن الوسيلة التى يصلح بها خطاه . . وراح
يفكر ثم يفكر ، وأخيرا اهتدى الى الخطة الكفيلة بذلك . .
فاتخذ لنفسه مظهر أحد الحجاج ، واشتغل عاملا عند
الفلاح . وقد اشار عليه اول الأمر بأن يأخذ حذره من شدة
حرارة الصيف القادم ، فيبذر حبوبه في الأرض المنخفضة .
وبالفعل جاء الصيف قانطا فاحترقت محاصيل الفلاحين
جميعا من شواظ الشمس ، الا حنطة فلاحنا هذا ، فانها
ما فتئت تنمو وتطول عيذاتها ، ثم انبجست الحبوب آخر الأمر
في اطرافها مكتنزة وفيرة ، حتى لقد كفى محصولها الفلاح
طول الموسم ، وفاض مته بعد ذلك الكثير .



• واذا جاء الصيف التالى ، اشار الحاج على الفلاح بأن
يبذر غلته في الأرض المرتفعة . وقد كان الفصل بالفعل غزير
الأمطار ، فحترقت محاصيل الفلاحين جميعا أو عطنت فلم
تنضج أبدا ، الا محصول فلاحنا . فوق التل - فقد كان
محصولا رائعا ، غل من القمح قدرا يفيض عن حاجته ، ولم
يكن ليعرف ماذا يفعل به . فأشار عليه الحاج بأن ينتفع

بالفائض ، فيستقطر منه شراب « الفودكا » . . وقد استقطره الفلاح فعلاً ، ثم شربه . وما لبث أن دعا جيرانه ليشربوا معه . وعند ذلك أسرع الشيطان الصغیر الى رئيسه ليقول له مختالاً بأنه قد كفر عن ذنبه في حادثة كسرة الخبز ، فيجاء رئيس الشياطين ليرى بنفسه .

. واذ بلغ رئيس الشياطين كوخ الفلاح ، وجده قد دعا بعض أثرياء الفلاحين ، وأعد لهم وليمة « فودكا » . فلما جاءت زوجته بالشراب ، زلت قدمها فانقلبت إحدى الزجاجات ، وانسكب على الأرض كل ما كان فيها ، فكاد الفلاح أن ينشق غضباً . وراح يعنف زوجته أشد التعنيف ، قائلاً لها : « ماذا فعلت إبتها المجنونة الخرقاء ؟ . . اثريقين كل هذا الشراب على الأرض ؟ »

. فوكز الشيطان الصغیر رئيسه بكوعه قائلاً له : « انظر ! . . انها ليست كسرة خبز التي يسب من أجلها الآن ويلعن ! » وعاد الفلاح - بعد أن نهر زوجته - يوزع « الفودكا » ويلبوز بها على ضيوفه بنفسه . وفي هذه الأثناء ، دخل الكوخ عامل فقير عائد من عمله . ولم يكن أحد قد دعاه ، إلا أنه حيا الجماعة وجلس . وما لبث أن أدرك أن الضيوف يشربون « الفودكا » فتاقت نفسه لجرعة منها ، لأن التعب كان قد أنهكه . إلا أن الجلوس طال به ثم طال ، وراح لعابه يسيل ثم يسيل ، ولم يقدم له أحد شيئاً !

وانشرح رئيس الشياطين أيما انشراح بما رأى ، إلا أن تابعه قال في زهو : « انتظر قليلاً ، ولسوف ترى ما هو أفضل ! »

وشرب الفلاحون زجاجتهم الأولى من « الفودكا » ، واشترك مضيقهم معهم ، ثم بداوا يطردون بعضهم بعضاً في رياء وملق ، ويتبادلون الكلمات الناعمة المعسولة . . ورئيس

الشياطين ينصت بانتباه ، وقد أعجبه ذلك ، فغمز قائلا :
 « اذا كانوا قد أصبحوا مكرين هكذا بعد اول زجاجة ،
 فسوف نراهم - بعد هنيهة - يوغلون في خداع بعضهم
 البعض . وعندئذ سنكسبهم جميعا ! » . فقال الشيطان
 الصغير : « انك لم تر شيئا بعد ، فانتظر وانظر ما سيحدث
 بعد ذلك . . سترى منافيه الكفاية بعد ان يشربوا زجاجتهم
 الثانية ، فهم الآن يتمسحون - كل بفروة الآخر - كما تفعل
 الثعالب . ولكن انتظر وانظر اى ذئب مفترسة سيفدون
 بعد حين ! »



وشرب الفلاحون زجاجة أخرى ، فازداد حديثهم ارتفاعا ،
 وقل تأديبا . . وبدلا من الكلمات المعسولة ، بدأوا يقدفون
 بالشتائم والتهديدات ، ويلكزون بعضهم البعض ، ويقرصون
 الواحد منهم أنف الآخر . واشترك مضيفهم كذلك في
 المعمة ، وساهم في المعركة . فلما رأى رئيس الشياطين
 ذلك ، استخفه السرور وصاح قائلا : « عظيم ! » . . الا أن
 الشيطان الصغير اعترضه قائلا : « انتظر حتى يحتسوا
 زجاجتهم الثالثة . فهم الآن كالذئب المزجرة ، ولكن . .
 صبرا قليلا ، واعطهم زجاجة أخرى ، فسوف تراهم قد
 انقلبوا محض خنازير ! »

وشرب الفلاحون زجاجة ثالثة اذاروها بينهم ، فسكروا
 تماما . وراحوا يصرخون ويصخبون دون أن يدري أحدهم
 ما يقول ، أو يفقه ما يقول الآخرون . وأخيرا ، غادروا
 الكوخ ، وذهب كل منهم في طريقه . . فسار بعضهم منفردا ،
 والبعض الآخر اثنين اثنين ، أو ثلاثة ثلاثة . . وهم جميعا
 يتمايلون ويتارجحون . وقد خرج مضيفهم ليودعهم ، فوقع

منبطحا على أنفه في بركة موحلة ، وتطبخ من رأسه الى قدميه ، وظل مستلقيا مكانه كالخنزير البري ، وهو يخور ! وأبتلات بالسرور جوائح رئيس الشياطين ، واستخفه الطرب ، فالتفت الى الشيطان الصغیر قائلا : « انها لحظة بارعة تلك التي دبرتها ، وقد كفرت الآن عن خذلانك في حادثة كسرة الخبز ، وأوفيت على الفاية . ولكن أخبرني الآن : كيف صنعت هذا الشراب ؟ .. اظن ان عنصرك الأول في تركيبه هو دم الثعلب ، لجعل الفلاح يقدو ماكرا .. وعنصرك الثاني هو دم الذئب ، لجعله يغدو متوحشا .. وعنصرك الثالث هو دم الخنزير ، لجعله يغدو خنزيرا ! »

فأجاب الشيطان الصغیر قائلا : « كلا .. لم أستعمل شيئا من ذلك على الإطلاق ، وانما كل ما فعلته هو ان جعلت الفلاح يزرع كمية من القمح تفيض عن حاجته . هذا كل ما في الأمر ! .. اما دماء الوحوش ، فقد كانت تجري فيه بالفعل من قبل . وهي تجري فيه دائما . ولكنها لا تجد منفذا للظهور مادام لا يزرع من القمح الا القدر اللازم لغذائه .

لقد جاء وقت - كما قد تذكر - لم يكن يتلزم فيه حتى لفقدان كسرتة الوحيدة . فلما توفر لديه قدر فائض من القمح ، راح يبحث عن وسيلة يسلي بها نفسه . وقد تدرجت معه ثم تدرجت ، حتى علمته هذه الوسيلة الجديدة للتسلية .. وهي الشراب . فما ان حول نعمة الله الى شراب ، حتى تيقظت فيه دماء الثعلب ، ودماء الذئب ، ودماء الخنزير جميعا . والآن وقد ذاق طعم الشراب مرة ، فسيظل وجشا مفترسا الى الابد ! »

فهنا رئيس الشياطين تابعه الصغیر تهنئة حارة ، وعفا عن زلته في حادث كسرة الخبز ، وأتمم عليه بربة عالية في مملكة الشياطين .

السلامة



♦ **كلان يعيش في ولاية (اونا) رجل غنى ، اسمه « الياس » .** وكان أبوه قد مات بعد سنة من زواجه ، وتركه فقيرا . فلم تكن ثروته في ذلك الحين تتعدى سبعة أفراس وبقرتين وعشرين شاة . الا أنه ما لبث ان انكب على العمل والكدح مع زوجته ، وراحا يصلان الليل بالنهار ، فيقومان من نومهما مبكرين ، حتى اذا غابت الشمس استمرا يكدان تحت جناح الظلام ، متجاوزين في السهر أكثر من كل جيرانهما . ومن ثم فقد راح غناهما يزداد سنة بعد أخرى . حتى اذا انقضى خمسة وثلاثون عاما في هذا الكفاح ، كانا قد جمعا ثروة طائلة ، تألفت من مائتي فرس ، ومائة وخمسين كبشا ، ومائتين و ألف شاة .. واصبح لدى « الياس » رجال يرعون خيله وغنمه وماشيته ، ونساء تحلبن الافراس والابقار وتصنعن منها الزبد والجبن و « الكوميس » .

وبات لديه الكثير من كل شيء .. فاصبح كل من في الولاية يحسدونه على ثروته ، ولا ينفكون يقولون : « ياله من رجل سعيد ، فكل شيء عنده متوفر ، وليس ثمة ما يجب اليه الموت ! » .. وكان الاعيان يعجبون لكثرة معرفته وتهذيبه ، متسائلين : « متى حصل على كل هذا ؟ » .. وكان الضيوف يأتون من اقصى الاماكن ليزوروه ، فكان يستقبلهم ، ويرحب بهم ، ويدعوهم الى الطعام والشراب .. وما من شخص كان يدخل بيته ، الا قدم اليه « الكوميس » والشاي وعصير الفواكه ولحم الضأن المقدد .. وما من اضيف نزل عليه ، الا بادر « الياس » الى ذبح شاة او اثنتين .. فاذا كان الضيوف عديدين ، ذبح فرسا من اجلهم !

ولقد رزق « الياس » بولدين وبنت ، زوجهم جميعا حين

بلغوا سن الزواج . وكانوا قد اشتهلوا معه - فى ايام
 الفاقة - وتولوا بأنفسهم رعى الماشية . بيد انهم لم يكادوا
 يثروا ، حتى اقبلوا على الماشيات ، واسرفوا فى اللهو . .
 ومنهم واحد افراط فى معاورة الخمر . . على ان اكبر ولدى
 « الياس » لم يلبث ان قتل فى مشاجرة ، بينما خرج الثانى
 على طاعة ابيه ، اذ كان قد وقع تحت سلطان زوجة
 خبيثة . . فطرده ابوه ، وان منحه منزلا وقطيعا من
 الماشية . فتناقصت بذلك بعض الشئ ثروته .

ثم حدث - بعد ذلك - أن أصيبت ماشية « الياس »
 بوباء ، ومات جانب منها . . وتلا ذلك عام من القحط ، ثم
 تنم فيه الحشائش والمراعى ، فنفق كثير من الأغنام خلال
 الشتاء ، وأغارت عليه بعد ذلك قبائل الشركس فسرقوا
 احسن افراسه . . ومن ثم راحت ثروته تتناقص بسرعة
 مروعة ، وبدأ يسقط فى هوة الافلاس بخطوات شاسعة . .
 بينما قل جهده ، ونقص مقدار كده وكدحه . حتى اذا بلغ
 السبعين من عمره ، كانت الحال قد تدهورت به الى حد
 أن باع ثيابه ، وأبسطته ، وعرباته ، وأسرجة خيله . . وأخيرا
 باع آخر قطيع بقى له من ماشيته ، فوصل الى الفقر المدقع .
 واذا رأى انه لم يبق لديه شئ ، ذهب هو وزوجته يقضيان
 البقية من سنى حياتهما الفاربية بين الغرباء ، بعد أن فقد
 الرجل كل شئ ولم يعد له من حطام الدنيا الا الملابس التى على
 جسده - وهى معطف من جلد الماعز ، وقبعة ، وسروال ،
 وحذاءان - ولم يعد له من يعينه على شيخوخته الا زوجته
 « شام شيماجى » ، التى كانت فى سن الشيخوخة مثله . .
 فقد كان ابنه الذى سبق له ان طرده قد رحل الى بلاد
 بعيدة ، وكانت ابنته قد ماتت . ومن ثم فقد أصبح الشيخ
 وزوجته فى حال مؤلمة من البؤس واليأس .



«إلا إن أحد جيرانهما ، المسمى « محمد شاه » ، تالم لحالهما . وكان رجلا متوسط الحال ، فلا هو بالفقر ولا هو بالغنى . إلا أنه كان مستقيما ، ومستورا ، وموضع احترام . واذ تذكر الأيام التي أكل فيها العيش والملح في بيت الياس ، تفرط قلبه ألما عليه ، وقال له : « تعال وعش معي يا الياس ، وهات امرأتك المعجوزة معك .. ففى إمكانك - فى موسم الصيف - أن تقوم من أجل خاطرى ، وعلى قدر طاقتك ، بملاحظة حقول الشمام . وفى إمكانك - فى موسم الشتاء - أن ترمى ماشيتى » فى حين يمكن لزوجتك « شام شيماجى » أن تحطب الأفراس وتصنع « الكوميس » . وسوف أقدم لكما الطعام واللبس » فلما احتجت لشيء آخر فقل لى سريعا ، وإنا أمتحك آياه » .

وشكر الياس جاره الطيب القلب ، ولذهب مع زوجته المعجوزة ليعيش فى خدمة « محمد شاه » . وكانا - فى أول الأمر - يجدان غضاظة فى أن يفعا ذلك . إلا أنهما ، مع الوقت ، ألفاه واطمأنا إلى العيش هناك ، لأمسية أنهما لم يكونا يعملان إلا قدر ما تسمح به قوتلهما .

وقد ارتاح السيد اليهما ، لانهما - وقد علمتا السيادة والعز - كانا يعرفان كيف يحسنان التصرف . فضلا عن انهما لم يكونا قط كسولين ، ولا قليلي القوم ، وإنما كانا يؤديان عملهما كأحسن ما يؤدى العمل . ومع ذلك فقد كان « محمد شاه » ما يفعا يستشعر الأسى والأسف إذ يرى هذين الشيخين - اللذين بلغا أرفع مكانة - ينحدران هكذا إلى مثل هذا المصير !

وحدث ذات مرة ، أن جيرا بعض اقارب « محمد شاه »

ليزوروه . وكان معهم شيخ من رجال الدين ، فطلب محمد شاه من الياس ان يذبح شاة ليقدمها لضيوفه . . فذبح الياس الشاة وسلخها وطهناها وارسلها الى غرفة الطعام . . واكل الضيوف من لحم الشاة ، واحتسوا اقداح الشاي و « الكوميس » . . وبينما هم جلوس مع مضيفهم فوق الأبسطة والوسائد الوفيرة ، يشربون ويتسامرون ، مر الياس امام باب العرفة وهو يؤدى عمله ، فطمحه « محمد شاه » . . واذا ذاك مال على أحد الضيوف قائلا له : « أرايت هذا الرجل الهرم الذى مر بالباب الآن ؟ » . فأجابه الضيف قائلا : « نعم رايته ، فما حكايته ؟ » . فقال له : « ان اسمه الياس ، وقد كان فى يوم من الأيام أغنى رجل فى هذه المقاطعة ، ولا بد أنك سمعت عنه ! » . فقال الضيف : « نعم ، سمعت عنه ، الا ان هذه أول مرة أراه فيها ، على الرغم من ذبوع شهرته » . فقال محمد شاه : « انه الآن لا يملك شيئا على الإطلاق ، وهو يعيش فى بيتى كخادم لى ، وزوجته العجوز تعيش معه ، وتحب الأبقار » .

ودهش الضيف أعظم الدهشة ، وهز رأسه فى أسف وهو يقول : « جفا ان الثروة كالطاحونة الدائرة ، فهي ترفع حيناً وتخفض حيناً آخر . . ولكن هل الرجل متالم مما آلت اليه حاله ؟ » . . فأجابه المضيف قائلا : « من يدري ؟ . . انه يعيش فى دعة وسلام ، ويؤدى عمله خير أداء » . فقال الضيف : « هل يمكننى اذن ان أتحدث اليه ؟ . . اننى أحب ان أسأله عن حياته السالفة » . فأجابه قائلا : « بالتأكيد ! » . . وصاح مناديا خلال فرجة الباب : « يا عم ، تعال وهات لنا معك بعض الكوميس ، وادع زوجتك أيضا ! »

واقبل الياس وزوجته على الغرفة . وبعد أن أديا التحية لسيدهما وضيوفا ، جثا الشيخ قرب الباب ، وجلست زوجته خلف الستار ، حيث كانت سيدتها جالسة . . . وقدم الحاضرون الى الياس كوبا من «الكوميس» ، فلما تسيدته وضيوفا بدوام الصحة ، وانحني لهم ، ثم شرب قليلا من الكوب ووضع . . . وحينئذ سأل الضيف : « أيها الشيخ ، قل لى . . هل يؤلك الآن - اذ تنظر الينا - ان تتذكر ثروتك الغابرة ، فتقارن بين حالك - اذ ذاك - وما أنت فيه الآن من بؤس ؟ »

فابتسم الياس واجاب قائلا : « اذا حدثتكم عن سعادتنا او شققنا ، فلن تصدقوني . . فالأفضل ان تسالوا زوجتي ، فان لها قلب امرأة ولسان امرأة معا ، وسوف تقول لكم الحقيقة كلها فيما يتعلق بهذا الموضوع » .

اذ ذاك نادى الضيف المرأة العجوز الجالسة خلف الستار قائلا لها : « قولى لنا أيها العجوز ، ما احساسك نحو سعادتكما الغابرة وشقاكما اليوم ؟ » . فاجابت شام ضيما ، من خلف الستار : « لقد ضمت مع زوجى نحو خمسين سنة كتشيد السعادة ولا تجفها ابدا . . أما الآن ، غائنا - وان ضئنا كخدم - قد وجدنا السعادة الحقيقية ، ولا نطمع فى شيء آخر ! »

وعجب لذلك الضيوف والمضيف على السواء ، حتى ان هذا الآخر وقف على قدميه - لفرط دهشته - ورفع الستار لينظر الى المرأة العجوز . . وكانت واقفة هناك ، ويدها متشابكتان على صدرها ، وابتسامة مشرقة على وجهها ، وهى ترفو الى زوجها فيبتسم لها بدوره . ثم عادت تقول : « اننى أذكر الحقيقة ، وأستعزج ، فقد

ظلنا - نصف قرن - نشهد السعادة ولا نجدتها ، على الرغم من أننا كنا أغنياء .. أما الآن ونحن لانملك شيئا ، وقد أتينا لنعيش بين قوم فاضلين ، فقد وجدنا من السعادة ما لا مطمع لنا في زيادة عليه ! »

وعاد الضيف وسألها : « وما الذى يسعدكما ؟ » .. فاجابته قائلة : « عندما كنا أغنياء ، لم نعرف قط ساعة من ساعات السلام التى يمكننا فيها ان نتبادل الحديث ، أو ان نفكر خلالها فى أنفسنا ، أو ان نصلى الى الله .. فقد كنا - اذا اقبل ضيوف علينا - نشغل تماما بالتفكير فى اكرامهم حتى لايسخروا منا أو يهزاؤا بنا .. ثم ما نقف نبلل اقصى جهدنا فى خدمتهم والاحتفاء بهم ، حتى لاندع سبيلا لهم لان يقارنوا مائدتهم وضيافتهم بمائدتنا وضيافتنا ، وان يجعوا هذه المقارنة فى غير مصلحتنا .. كنا نبلل كل ما فى طاقتنا لارضائهم ، وتجنب كل ما يثير سخطهم أو حنقهم علينا .. وذلك فضلا عن العظوف العديدة التى كانت تضاوينا باستمرار ، عن ان يفترس اللئب كبشا من كباشنا أو بقرة من أبقارنا ، أو ان يسرق اللصوص بعض خيلنا ، أو ينرقد النعاج على حملاتها فتقتلها .. حتى اذا غشيننا غراشنا للناس ، امتنع النوم علينا ، اذ نجدنا محاصرين بأسباب الجزع والقلق والتشغال البال بصدد المشاكل التى تعترضنا .. الى جانب ما كان ينشب بينى وبين زوجى من خلاف حول الطريقة التى نحل بها هذه المشاكل ، اذ كنا لا نتفق أبدا على رأى واحد .. فهو يقول ان الأمر يجب ان يعالج بهذه الطريقة ، وأنا أقول بل يجب معالجته بطريقة أخرى ، ومن ثم لبسنا فى الشجار ، فنرتكب بذلك عملا آخر من اعمال الخطيئة . وهكذا كانت الحياة تقودنا

من هم الى هم ، ومن اثم الى اثم ، ولكنها لم تكن تقودنا
أبدا الى السعادة التي نشدها ! »

وسألها الضيف قائلا : « وكيف حالكما الآن ؟ » . فأتجابت
العجوز : « حينما نصحو - أنا وزوجى - فى الصباح ،
يحيى كل منا الآخر فى محبة ووثام .. ولم نعد نتشاجر أو
نخطف على شئ ، أو نحمل هم شئ ، بل أصبح همننا
الأوحد هو التفكير فى الوسيلة التى نحسن بها خدمة سيدنا
.. وأصبحنا نعمل على قدر طاقتنا ، وعن طيب خاطر ،
لكى يستفيد مخدمونا ولا تلحق به خسارة من جرائنا ..
ونحن على الدوام واجدان فى بيته غداءنا ، وعشاءنا ،
وشراب « الكوميس » .. وفى البرد نجد الوقود ليدفئنا ،
وأردية الجلد لتقى من الصقيع جسدنا .. ولدينا - فوق
ذلك - الوقت الكافى لتبادل الحديث ونفكر فى روحينا ،
ونصلى الى الله .. وهكذا ظللنا خمسين سنة نشهد
السعادة ، ولكننا لم نجد لها الا الآن ! »

وانفجر الضيوف ضاحكين ، ولكن الياس صاح قائلا :
« لا تضحكوا أيها السادة الأفاضل . فليس هذا مزاحا ،
وانما هو حقيقة الحياة البشرية ، فقد كنا أنا وزوجتى
منفطرى القلب .. وكم بكينا حين فقدنا ثروتنا وغنانا ..
أما الآن ، فإن الله قد كشف لنا الحقيقة .. وهما نحن قد
كشفتنا لكم بدورنا ، لا على سبيل التسلية ، وانما
لصالحكم ومنفعتكم ! »

فقال رجل الدين ، الذى كان حاضرا مع الضيوف :
« أنه لقول حكيم .. ولقد قرر الياس الحقيقة ، كما هى
موجودة فى الكتاب المقدس . »

وحينئذ كف الضيوف عن ضحكهم ومزاحهم ، وغرقوا
فى تأمل عميق .

هذه هي الحياة!

• حدث ذلك في اليوم التالي لعيد القديس « نيكولا » ، وكان سادن الكنيسة « فاسيلي أندريتش بريخانوف » ، قد بقى بالمنزل كي يقوم بواجب الضيافة نحو بعض اصدقائه واقربائه ، حتى اذا انصرف آخر أولئك الضيوف ، أخذ أهبطه لزيارة أحد الملاك المجاورين ، كي يتناح منه مخزن خشاب كان يساومه على شرائه منذ زمن طويل . فقد كان « فاسيلي » - الى جانب وظيفته في الكنيسة - يشسقل بالتجارة . ومن ثم فقد كان - في ذلك اليوم - شديد اللفة على التكبر بالخروج ، لتلا يحرمه المنافسون - الآتون من المدينة - هذه الصفة الرابعة .

وانطلق نيكيتا لاعداد الجواد ، اذ كان هو الوحيد بين الخدم الذي لم يكن مخمورا في ذلك اليوم .. كان فيما سلف اكبر هريبد ، الا انه - بعد ان رهن ردائه وحلاليه من اجل الشراب - اقسام الا يقرب كل انواع الخمور ، واحترم قسمه فعلا طيلة الشهر التالي ، وظل مصمما عليه في هذه المناسبة الأخيرة ، رغم الذي عاناه من اقراء الخمور التي كانت تتدفق اينما ذهب خلال اليومين الأولين من ايام العيد . وكان من طبقة الفلاحين الملقبين « بالمترك » .. في نحو الخمسين من عمره ، وقد تزوج من إحدى القرى المجاورة ، حيث لم تكن له أسرة مقيمة ، وإنما كان معروفا لدى الجميع بأنه عاش معظم حياته متنقلا بين منازل الآخرين . وكان أينما حل يلاحقه الإعجاب والتقدير لمهارته ومشاربته وقوة

بنيته .. ولدمائته ومـرح طبيعته فوق ذلك . على ان الاستقرار لم يكن يطول به في مكلن واحد . اذ كان قد اعتاد ان يسرف في الخمر مرتين او اكثر في السنة .. وفي تلك المرات ، لم يكن الامر ينتهي به الى ان يرهن كل شيء يمتلكه ، فضلا عن انه كان يفتد عرييدا شرسا شديد الرغبة في الشجار والشحناء . وقد اضطر فاسيلي ذاته الى طرده اكثر من مرة . الا انه كان لا يلبث ان يعيده الى خدمته ، لما لمس من امانته ، وعنايته بالماشية .. واهم من كل هذا ، لما آتسه من قلة أجره ! .. فالواقع ان « فاسيلي » كان ينقد « نيكيتا » اجرا .. ولكن هذا الاجر لم يكن ثمانين من الروبلات في السنة ، كما جرى عليه العرف لمثل هذا العامل .. وانما كان يعطيه اربعين لا تزيد باى حال . ثم كان — فوق ذلك — لا يدفع له هذا القدر دفعة واحدة ، وانما كان يتفضل به عليه قطرة قطرة ، على اقساط وآجال .. وكان بعد ذلك كله لا يعطيه الجانب الاكبر منه نقدا ، وانما في صورة سلع من متجره يبيعه اياها بالثمن القالى .

اما « مارتا » ، زوجة نيكيتا — وهى امرأة خشننة ، مشعنة ، برغم انها كانت جميلة في يوم من الايام — فقد كانت تعيش في المنزل مع ولد صغير وبنيتين . ومع ذلك ، فما كانت تدعو ابدا زوجها لياى ويراها .. لانها — قبل كل شيء — كانت تقيم في العشرين عاما الاخيرة مع صانع براميل ، كان في الاصل من طبقة الفلاحين في قرية بعيدة ، ثم جاء ليقيم معها .. ولانها — بعيد ذلك — كانت تخشى زوجها وتخافه — اذا ما ثمل — برغم انها كانت تتصرف معه حسب هواها حينما يكون مفيقا . فقد حدث مرة انه اكثر من احتساء الخمر ، وانتهاز فرصة سكره ، فاعتزم ان ينتقم لنفسه من زوجته عن كل ما صنعت به خلال افاقته . ومن

ثم انقبض على صندوقها الخاص ، وكسره ، وأخذ كل ما كان به من ثياب ، فوضعها على كتلة خشبية ثم انهار عليها بالفأس حتى أحوالها الى قطع صغيرة مهلهلة . . ومع ذلك فقد كان يسلم مارتا كل ما يحصل عليه من الأجر . وما من مرة نازع في هذا النظام . . بل انها ذهبت - قبيل هذا العيد الأخير - الى متجر فاسيلي « فأمدتها هذا بالدقيق الأبيض والسكر والشاي وزجاجة كبيرة من الفودكا ، باعتبار كل ذلك بثلاثة روبلات . وإذا كان ما أعطها إياه يساوي خمسة روبلات ، فقد شكرت لفاسيلي كرمه ومعروفه . . إلا أن فاسيلي - في الحقيقة - حاسب نيكيثا على هذه السلع فيما بعد ، باعتبار ثمنها عشرين روبلا !

وقد قال فاسيلي مرة لنيكيثا : « أي حساب مكتوب تريد أن أقدمه اليك ، وأنا اعطيك ما يتضح أنه من حقك . اننى لا أفعل ما يفعله بقية الناس ، إذ أترك الدائنين لى ينتظرون ، وأشغلهم بالحسابات المفصلة عما لى فى ذمتهم وعما لهم فى ذمتى . . ففى وسع كل منا - أنا وانت - أن يثق فى الآخر . . ومادمت تحسن خدمتى ، فأننى لا أخذلك أبدا ! » . . وكان فاسيلي - فى قوله هذا - شديد الاعتقاد بأنه يقول الحق ، لأنه كان قديرا على الاقتناع ، الى درجة تصل به الى أن يقتنع - هو نفسه - بأنه لا يخدع خدمه ، وانما يصنع معهم معروفا !

ولقد أجابه نيكيثا قائلا : « نعم . نعم . اننى أفهمك يا فاسيلي أندريتش . . اننى أفهمك تمام الفهم ، وسأخدمك واشتغل من أجلك ، كما لو كنت والدى » . . بيد أنه لم يكن غافلا أو جاهلا بأن فاسيلي كان يغشه ويستغله . . كل ما هنالك أنه كان يدرك أن لا فائدة ترجى من مطالبته بخدمته بحساب مفصل عما يستحق من أجر . . وكان -

في ذات الوقت - يعلم انه ما من مكان آخر يمكن ان يذهب اليه . ولذلك كان يفضل ان يتحمل حاله معه على ما هي عليه ، وان يقنع بما يمكنه ان يحصل عليه منه .



فلما اصدر اليه الامر في ذلك اليوم بأن يسرج الجواد ، اتجه فوراً الى الحظيرة في مرحلة المعتاد ، وطبيعته اللينة . وكان جواداً جميل الشكل ، متوسط الحجم ، منخفض الكفل ، ذاكن السمرة .. وما ان شعر الجواد بمقدم نيكيتا ، حتى استقبله بصهيل خافت ، عبر به عن تحيته .. فاقبل نيكيتا على تنظيفه ، ثم اسرجه . وما لبث ان قاده الى حيث كانت العربية ، فشده اليها . وارتقى سلم العربية ، وساق الجواد الى الخارج ، نحو مدخل الفناء .. وفي تلك اللحظة ، ارتفع خلفه صوت غلام صغير يصيح : « ياعم نيكيت .. ياعم نيكيت ! » .

كان هذا ابن مظلومه .. غلام في السابعة من عمره ، شاحب اللون ، ضعيف البنية ، يرتدى سترة قصيرة من القرو الاسود ، وحذاءين ابيضين جديدين ، وقبعة انيقة .. وقد اقبل مندفعاً من داخل المنزل الى الفناء ، وراح يصرخ في ضراعة الى نيكيتا وهو يجري وراء العربية ، قائلاً له : « خذني معك ! » . فاجابه بقوله : « حسناً ، حسناً .. » . تعال هنا ، اذن يا عزيزي ! » . واخذ يده ، واجلسه في العربية ، وعيناه تتألقان بالفرح ، ونخرج به الى عرض الطريق ..

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر ، والجو كئيب حاصف ، ومقياس الحرارة يشير الى عشر درجات فقط فوق درجة التجمد ، وقد اكتمت السماء بطبقة سوداء كثيفة من

السحب المنخفضة . . وكان المرء اذا ما خطا نحو الشارع خطوة واحدة ، يحس بالريح تغدو اشد قوة ، والصقيع يهوى فى كسف فيجتاح اسطح المباني ، ويصفع وجوه السابلة . فما اسرع ما لوى نيكيثا عنان جواده وعاد بعربته الى الغناء . وما ان وقف بها عند مدخل البناء ، حتى خرج فاسيلى اندريتش ، ولغافة من التبغ بين شفثيه ، ومعطف من فرو الشاة فوق كتفيه ، وقد زره بأحكام ، ولفه غنسد خاصرته بحزام . واندفع بخطوات متسعة ، عنيفة الوقع فوق الثلج الذى راح ينسحب حتى تحت صريف حذائيه المصنوعين من الجلد الكثيف المبطن باللباد . حتى اذا ازدرد آخر الانفاس من لغافته ،لقى عقبها وداسه ، ثم نظر الى العربة وهو ينفخ دخان التبغ خلال شارييه . واذا رآها على أهبة الاستعداد للرحلة ، رفع ياقعة معطفه وطوق بها عنقه ووجهه ، حتى لاصق فراؤها وجنتيه . . واذا ذاك بلح ابنه الصغير جالسا فى مؤخر العربة ، فهتف قائلا له : « اذن ، فقد قطعتها ايها القرد الصغير ؟ »

وكان فاسيلى فى تلك اللحظة منتعشا مما جبرعه من النبيذ مع ضيوفه . لذلك فقد كان اكثر استعدادا لان يستشعر الرضى عن نفسه ، وعن كل ما فعله فى حياته . وقد أبهجه - فى تلك اللحظة - منظر ابنه الصغير الذى اعتزم ان يجعله وارثه ، فراح يرمقه فى ازدهاء عظيم . وعلى عتبة الباب ، وراء فاسيلى ، وقفت زوجته النحيفة الشاحبة اللون « فاسيلىا اندريتشا » ، وقد لفت رأسها وكتفها بدثار من الصوف ، فلم يعد يبدو منها سوى عينيها . واذا خطت فى حذر خارج عتبة الباب ، قالت : « اليس من الافضل ان تأخذ نيكيثا معك ؟ » . فلم يجيبها وانما زمجر مغضبا ، مستاء من كلماتها ، وبصق على

الارض .. وحينئذ استرسلت قائلة في لهجة بادية القلق :
 « أنت ترى أنك مسافر ومعك نقود .. فضلا عن ان حالة
 الجو تزداد سوءا . » فانفجر فاسيلي قائلا لها ، وقد توترت
 شفاته غيظا : « ألسنت أعرف الطريق ؟ .. اذن ، فما حاجتى
 الى دليل أخذه معي ؟ »

وأجابته زوجته ، وهى تدير المذمار لتحصى الجانب
 الآخر من وجهها : « خذ معك من أجل خاطر السماء ..
 اتوسل اليك ! » . فصاح فيها قائلا : « بالله لماذا تلاحقينى
 هكذا ؟ .. أين عساي أجد له مكانا فى العربة ؟ » . فقال
 نيكيتا فى مرح : « أنا مستعد لأن أذهب » .. فأجاب
 فاسيلي : « حسنا .. أحسب ان من الواجب أن أطيب
 خاطر السيدة .. ولكن عليك أن ترتدى ثوبا أفضل من هذا ،
 وأكثر دفئا .. لابد من سترة رسمية غير هسلة ! » ..
 وابتمسم وهو يغمز بعينه نحو سترة نيكيتا الفرائية ، التى
 كانت - فى الحق - مهلهلة تتخللها فجوات عند أبطيها وعلى
 ظهرها وحول جانيها ، فضلا عن أنها كانت ملوثة بالشحم ،
 متليدة ، ممزقة الاطراف .



وإذا انطلق نيكيتا ليستبدل ثيابه ، تبعه فاسيلي بقوله :
 « لا تتأخر طويلا فى ارتداء بدلتك الرسمية الجديدة من
 فضلك ! » .. فمضى نيكيتا وثبا فى حدائيه العتيقين الى
 جناح الخدم ، الواقع فى نهاية الفناء .. ثم اندفع الى
 داخل الكوخ صائحا : « يا عزيزتى اريتشكا ، أعطينى بدلتى
 من الصيوان ، فاننى ذاهب مع السيد ! » . وانتزع حزامه
 الذى كان معلقا على وتد بالحائط .. وكانت الطاهية - فى
 تلك اللحظة - تعد الشاى لزوجها بعد ان نعمت بقبولته

هائثة .. فلما سمعت صوت « نيكيتا » بادرت به بالتحية فى بشاشة . واذنرت اليها عدوى سرعه وعجلتنه ، بدأت تجرى هنا وهناك فى نشاط وخفة وضوضاء ، كما كان هو يفعل . واخذت من الصيوان بدلة قديمة ، حائلة اللون ، وان لم يكن بحالها بأس . وراحت تنفض القبار عنها وتنظفها .. وبينذاك ، راح نيكيتا يقول لها : « أنت أنسب منى للذهاب مع السيد ! » .. ولم يكن يعنى ما يقول ، وإنما كان ذلك جريا على عادته أن يقول شيئا حسنا لكل من يصادفه .. ثم راح يلف الحزام حول وسطه ويضغط عليه ضغطا عنيفا ليحبك أطرافه ، وانطلق يقول له : « أنت يا هذا ! .. لا ينبغي لك أن تنفلت الى الخارج هكذا ! » .. حتى اذا اطمان الى حسن هيئته ، التقط أخيرا قفازيه من أحد الأرفف وقال : « آما مستعد الآن ! » . فصاحت الطاهية قائلة : « ولكنك نسيت قديميك ، فإن هذا الطاء بشع » .

فوقف نيكيتا وكأنه بوغت بهذا ، وقال : « نعم » . الا انه ما لبث أن أتى حركة تدل على أنه غير فكره ، وقال : « كلا . فلسوف يذهب بدونى ، لو اننى فعلت ذلك . وعلى أية حال ، فلن أكون بحاجة لأن أمشي طويلا » . ثم انطلق مسرعا الى المغناء .. فما رآه سيدته - حين وصل الى العربة - حتى بادرت قائلة : « ولكن ، ألن يصيبك البرد بهذه البذلة الخفيفة يا نيكيتا ؟ » . فأجابها : « كلا بالتأكيد ، كيف يصيبنى البرد ، والجو دافئ جدا ! » .. ثم راح يسسوى القش فى مقدمة العربة بطريقة تسمح بأن يدس فيه قدميه . وجلس « فاسيلى » فى مقعده ، فعلا بظهره المريض - ذئى الدثارين من الفرو - مؤخر العربة كله ، ثم قبض على منان الجواد وجذب به .. فى حين قفز « نيكيتا » الى مقدم العربة ، فى اللحظة التى بدأت فيها « تنطلق » ، وجلس منحنيا

الى الامام . بعيل الى اليسار ، وهو يعتمد في جلسته على قدم واحدة .

- ٢ -

♦ **واندفع الجواد الوديع** يجر العربة وهو يصدر صريفا خفيفا حين يخب في منحني على الطريق المعبد المغطى بالصقيع . وفجأة صاح فاسيلى : « ويحك ! لماذا قفزت يا هذا ! » .. فقد لمح أحد المارة يحاول أن يدفع بنفسه أمام الجواد في الاتجاه الخاطئ بالنسبة للمشاة . وصاح : « اعطنى السوط يا نيكيتا ! » .. فقفز العابر بعيدا عن طريقه .. بينما أسرع الجواد كل الاسراع .. الا انه ما لبث أن عاد الى الخيب مرة أخرى .

وكانت (كريستى) - قرية فاسيلى - دسكرة صغيرة ، لا تضم اكثر من ستة منازل . فما وصلت العربة امام كوخ الحداد في نهايتها ، حتى ادرك الراكبان أن الريح أقوى مما كانا يتوقعان ، وأن الثلج اشد تراكما في الطريق من المألوف ، حتى لقد أصبح سطحه أعلى قليلا من مستوى الأرض التي على جانبيه ، وأن أبرزه ذلك للعين .. وكان الثلج يدور كالدوامة في الوادي كله ، وتتسع دائرته حتى يمتد قطرها الى الافق البعيد ، في حين أن غابة (تلياتنسكى) - التي كان من الممكن في العادة رؤيتها كلها - لم تعد تبدو اكثر من كتلة من الظلمة ملتفة بالثلوج . وكانت الريح تهب من اليسار فتطيح بناصية الجواد الى الناحية الاخرى من عنقه ، وتدفع بذيله الطويل النوبة نحو خاضرته .

اما نيكيتا ، فاذ صفعته الريح - وهو جالس في الجانب المعرض لها من العربة - راح يرفع ياقة بكتته ضاغطا اياها حول وجنتيه وآفقه .. وما لبث فاسيلى أن قال : « ان

الجواد لا يستطيع السير طويلا اليوم ، فان الثلج شديد التراكم على الارض » . ثم استرسل قائلا وهو يفخر بجواده : « لقد قدته ذات مرة الى (باستيتينو) فى نصف ساعة » .

فقال نيكيتا وقد منعه ياقته العالية من سماع ما قال سيده : « ماذا تقول ؟ » . فصاح فاسيلى رافعا صوته : « اقول اننى قدته الى باستيتينو فى نصف ساعة » . وقال نيكيتا : « انه لأمر يستحق الفخر بالتأكيد .. وانه لجواد بدیع ؟ »

ثم صمنا برهة .. الا ان فاسيلى كان ميالا الى الثرثرة ، فمالم لبث ان قال صائحا : « ما رأيك ؟ .. لقد قلت ازوجتك فى ذلك اليوم ، الا تدع صانع البراميل يشرب الشاي كله » .. وكان موقنا بان نيكيتا سيشعر بالزهو اذ يوجه اليه الحديث من ذى حيثية مثله ، كما هزه الطرب جدا بمزحته عن صانع البراميل ، غير مدرك ان هذا الامر لم يكن ذا أهمية عند نيكيتا .. على ان هذا الأخير ، لم يسمع كلمة واحدة مما قال سيده - فى الواقع - بسبب عنف الريح .. فما كان من فاسيلى الا ان كرر مزحته بأعلى صوته ، فلما فهم نيكيتا مقصده ، اجاب : « كان الله فى عونها ، يا فاسيلى أفديريتش ! .. اتنى لا أتدخل فى أى شأن من شؤونها .. » . ففقد اتاحت لى بمسلكها سبيلا الى لومها . ولكنها مادامت تحسن معاملة الولد ، فلن اقول الا .. « كان الله فى عونها ! » . اذ ذاك قال فاسيلى محولا مجرى الحديث : « هل انت مزمع ان تشتري جوادا فى الربيع ؟ » . فأعاد نيكيتا ياقته الى الخلف قليلا ، ومال كاحية مخدمه ، وقد سره موضوع الحديث الجديد ، فاراد ان يستوعب كل كلمة منه . واجاب قائلا : « اتنى لا رجو ان يكون فى امكاني ذلك .. فان ابني

الصغير يكبر سريعا ، ويجب أن يتعلم الحرث والفلاحة .
 الا اننى بددت كل مالى » . فقال فاسيلي : « لو انك اخذت
 جوادى الصغير المنخفض الكفل ، فلن اطلب فى مقابله ثمنا
 فادحا » .

وكان فاسيلي وهو يقول ذلك مرحا ، رائق المزاج ، وقد
 عاودته غريزته الغالبة التى تستغرق كل ملكاته .. وهى
 غريزة المساومة وملاحقة الصفقات . فاجابه نيكيئا :
 « أفضل أن تقرضنى خمسة عشر روبلا ، وتدعنى اذهب
 وأشتري واحدا من سوق الخيل ! »

قال ذلك اذ كان عالما كل العلم أن الجواد الصغير المنخفض
 الكفل - الذى كان يعنيه فاسيلي - لم يكن يساوى فى
 السوق أكثر من سبعة روبلات ، فى حين أن فاسيلي لن
 يعطيه اياه حتى يقسم أنه يساوى على الأقل خمسة
 وعشرين روبلا ، ثم يحتجز لذلك نصف أجره فى عام كامل ،
 حتى يستوفى ثمن جواده .. ولكن فاسيلي استرسل فى
 لهجته المتحدقة المنمقة : « انه لجواد رائع ، وأريد أن
 اؤدى لك خدمة ، وأرعى مصلحتك كما أرعى مصلحة
 نفسى .. فيشربنى أن بريخانوف لايمكن أن يفش أحدا ،
 واننى لأفضل الأفلاس على أن أفعل ذلك .. نعم .. بشرفى
 انه لجواد رائع » . فقال نيكيئا وهو يزفر : « اننى لمتأكد
 من هذا » .



وإذ وجد من العبث أن يحاول الانصات أكثر من ذلك ،
 طوى ياقته مرة أخرى ، وغطى وجهه وأذنيه .. وخيم
 السكون بينهما - بعد ذلك - نصف ساعة كاملة ، راحت

قفازيه ، فلم يسغه الا ان احنى ظهره ، وغطى فمه بياقة سترته ، اتقاء لآذى البرد القارس ، الذى كان يصفعه فى شدة وعنف .

على ان فاسيلى ما لبث ان سال نيكييتا : « ما رايتك ، اتذهب عن طريق كاراميشيفو ام نسلك الطريق المباشر ؟ » .. وكان الذهاب عن طريق (كاراميشيفو) هو الأبعد والأوعر ، الا انه كان عامرا بالعلامات المنصوبة الدالة على الاتجاه . أما الطريق المباشر ، فمع انه كان اقصر جدا من الأول ، الا انه كان خاليا من الصلاطات ، ومن ثم لم يكن مطروقا أو مستحبا من اغلب المسافرين . ولذلك فقد فكر نيكييتا بعض الوقت ثم قال أخيرا : « ان طريق كاراميشيفو اطول ، ولكن السير فيه ايسر وأسهل » .

وقال فاسيلى ، وقد كان يميل الى الطريق الاقصر : « ومع ذلك ، فلو اتنا ذهبنا فى الطريق المباشر ، فما علينا حينئذ الا أن نبلغ المنحنى ، ثم نطلق بعد ذلك بلا خوف . . . ولسوف يكون رائعا ان نسير خلال الغابة » . فقال نيكييتا : « كما تريد ! » . ثم طوى ياقته مرة أخرى .

وعلى ذلك ، سار فاسيلى فى الطريق الذى اراده . . حتى اذا قطع منها نحو نصف فرسخ ، استدار الى اليسار حيث كانت تنتصب سنديانة صغيرة العمر سامقة الجذع ، تحطمت فروعها وانسحقت أوراقها الذابلة - التى كانت لانزال عالقة بها - تحت وطأة الريح المجنونة التى راحت فى ارتدادها تلطم أوجه المسافرين ، وقد بدأ يتساقط الصقيع . فما كان من فاسيلى الا أن أرخى العنان لجواده ، ونفخ أوداجه ، ثم ترك الأنفاس تخرج لاهثة من تحت شاربه . . فى حين كان نيكييتا قد اسلم نفسه لسنة من النوم . . وهكذا انطلقت بهما الغربة فى صفت وسكون . الا أن فاسيلى ما

هذه هي الحياة !

لبث - بعد نحو عشر دقائق - أن صاح منزعجا .. فانتفض نيكيتا فاتحا عينيه ، وهو يهتف قائلا : « ماذا هناك ؟ » . ولم يجبه فاسيلي ، وإنما استدار لينظر بخطفه ، ثم عاد يتطلع أمامه .. وكان الجسود يخب في سيره والعرق يتصاعد متبخرا من جانيبه .. فصاد نيكيتا يسأل مرة أخرى : « ماذا هناك ؟ » .. فصاح فاسيلي في حق ، وهو يقلد صوت خادمه قائلا : « ماذا هناك ؟ .. كيس هناك إلا أنني لا أتمكن من رؤية أية علامات الآن . ولا بد أننا حدثنا عن الطريق » . فقال نيكيتا : « انتظر لحظة اذن حتى اذهب وأرى » ..

وقفز بخفة من العربة ، وهو يسحب السوط من تحت القش . وسار أولا نحو الإمام ، ثم اتجه الى اليسار .. إلا أن الثلج كان بعيد الغور ، حتى أن قلما نيكيتا راحتا تفوسان فيه الى الركبتين .. ومع أنه ظل يتحایل على السير ، وهو يتكئ على مؤخر السوط ، فقد قُشِل في أن يجد مواطء لقدميه .. واختفت معالم الطريق ، فما وسعه إلا أن استدار راجعا .. وما أن لمح فاسيلي ، حتى هتف متسائلا : « ماذا رأيت ؟ » .. فأجابه قائلا : « لا طريق في هذا الجانب . فلاحاول الجانب الآخر ! » . فقال فاسيلي : « هناك شيء اسود يبدو أمامنا ، فاذهب وانظر ما هو ؟ »

وذهب نيكيتا الى حيث أشار اليه .. الا أنه اتبين إلا شيء هناك سوى رقعة من الأرض السوداء تهتز فيها بعض أعواد قمح الشتاء .. فاستدار عائدا الى العربة مرة أخرى ، واعتلى مقعده وهو ينفض الثلج عن رداءه وخطائيه .. ثم قال في حزم : « يجب أن تتجه يمينا ، فقد كانت الريح الي يسارنا منذ لحظة » ولكنها الآن تهب رأسا في وجوهنا » .. ثم ختم قوله في لهجة الواثق المصمم : « نعم .. يجب أن

تنجيه الى اليمين ! » .. وبعناء سمع فاسيلى قوله ، ثم لوى راس الجواد فى الاتجاه الذى اشار اليه .. ومع ذلك فقد سارا شوطا بعيدا ، وما من طريق ظهر امامهما .. اذ ظهست الريح كل علامة يمكن السير على هداها ، وقد ازداد انهماك الثلج خطى الغلبة كلها ..

وفجأة صاح نيكيتا : « حسنا .. لقد ضلنا الآن تماما ، يا فاسيلى اندريتش » .. الا انه ما لبث أن صاح مرة اخرى : « ولكن ما هذا ؟ » . وراح يشير الى شيء بدا يرتفعا فوق رقعة الثلج ، فأوقف فاسيلى - فى الحال - جواده الذى أصبح الآن ينضح بالعرق ، ويحرك فى صعوبة جنبه البدينين ، قائلا : « نعم . ما هذا ؟ » . فأجاب نيكيتا : « ان معناه أننا فى املك زاخاروفيتش .. واذن ، فهنا قد وصلنا » . ولكن فاسيلى قال : « كلا ، بالتأكيد » . فقال نيكيتا فى اصرار : « بل كما اقول .. وبممكنك أن تدرك هذا من صوت العجلات ، فانها تدرج فوق حقل من حقول البطاطس .. انظر الى براعم البطاطس النابتة فى جثورها .. أجل ، هنه هى مزارع زاخاروفيتش » .

وقال فاسيلى : « حسنا ، فماذا نفعل الآن ؟ » . فأجاب نيكيتا قائلا : « يجب أن نواصل السير ناحية اليمين » . وسوف نصل بالتأكيد الى مكان أو الى آخر . فاذا كنا لم تصادف زاخاروفيتش ، فلن نلبث أن نصل الى مزرعة أحد المستأجرين » .



ووافق فاسيلى ، فقاد الجواد فى الاتجاه الذى اشار اليه نيكيتا .. حتى بلغ بالعربة دفلا من الحشائش المنبسطة فوق رقعة خضنة من الأرض التى جمدها الصقيع .. ثم

إذا بالعربة تدلف مرة أخرى فوق حقل من خدامة الحنطة التي تنمو في الشتاء وبواكير الربيع ، خلال العشب الدابل وعيدان القش المنتصبة فوق ركام الثلج ، وهي ترتعد مذعورة في مهب الريح .. وقد اشتد انهمار الصقيع ، وبلغ الارهاق بالجواد مبلغا شنيعا ، فابيض جنباه ، وراحت ابخرة العرق تتصاعد من كل بدنه ، وهو يلتقط أنفاسه في لهات متقطع ، ولا يكاد يقوى بعد على نقل أقدامه .. ثم ما لبث فجأة أن تعثر وكبا ، ثم غاص في حفرة أمامه ، وحينئذ راح فاسيلي يستنفضه .. الآن نيكيتا قفز في هذه اللحظة صائحا : « لماذا نقف هكذا ؟ هيا ! .. فلترفعه من سقطته ! »

وقفز من العربة ، واتجه نحو الجواد يربته في تشجيع وحنان ، قائلا له : « يا عزيزي ، يا حبيبي ! .. واستدار الى العربة ، وراح يدفعها محاولا أن يخرجها من الحفرة بلداعيه .. في هذه الأثناء ، تمكن الجواد من النهوض بنفسه ، ثم راح يزحف الى الخلف الى أن بلغ نهاية الحفرة التي كان من الواضح أنها محفورة بيد انسان .. وحينئذ سال فاسيلي قائلا : « أين نحن الآن ؟ » . فقال نيكيتا : « يجب أن نعرف ذلك .. فلنتقدم قليلا ، ولسوف نصل الى مكان ما .. »

وهنا اشار سيده الى شيء اسود يلوح خلال الثلج أمامهم ، وقال متسائلا : « ليست تلك غابة جوفيا تشكنسكى ؟ » . فاجابه نيكيتا قائلا : « قد يكون ذلك .. فهلم ننظر ما هنالك » .

وفعلا ، كان ما رآه رقعة من الأرض ترقرف خلالها أوراق العنب الدابلة ، مما يدل على أن المكان لم يكن غابة موحشة ، وإنما موطعا للسكنى . ومع ذلك ، فقد تردد كل منهما في

الكلام ، الى أن تم تأكده من ذلك . اذ لم يكاد يتقدمان
عشرين قصبة - بعد الحفرة التى كان الجواد قد تردى
فيها - حتى لاحت الحقيقة فى وضوح امامهما ، وقد صدق
حدس نيكيثا ، فلم تكن تلك التى وصلا اليها غابة ، وانما
عريش متشابك الفروع من الاعناب التى ما زالت تعلق بها
بضع أوراق ذابلة ترتجف على عسايلجها ، فارتفع لها حفيف
كفحيح الافاعي تحت وقع الريح التى كانت تثر خلالها
وتنوح . وهنا ، رفع الجواد فجأة قدميه الاماميتين ، ثم
جذب مؤخرته فى أثرهما ، وما لبث بعد ذلك أن استدار الى
اليسار فى سهولة واضحة ، وراح يخب مرة أخرى فى الثلج
الذى بلغ ركبتيه . . . واذن فقد كانت تلك هى الطريق من
جديد . .

فصاح نيكيثا قائلا : « أخيرا . . ها نحن قد بلغناها ! ولكن
الله وحده يعلم أين اتجاهها » .

اما الجواد ، فلم يتردد ، وانما انطلق رأسا فى الطريق
المغطى بالثلج . حتى اذا قطع نحو مائة قصبة ، ارتفعت
- امام الراكبين - حوائط مخزن غلال غائص فى تلال الصقيع
الذى كان يتراكم على سقفه كقطع السحاب . . فلما اجتازت
العربة هذا البناء ، ابتدا الطريق يلتف قليلا الى ناحية اتجاه
الريح ، ثم اذا بشارع قصير يبدو بين بنائتين . . ووضح
- بما لا مجال للشك فيه - أنه شارع قرية من القرى . .
وفى اقرب فناء من أفنية منازلها ، بدا خيل مشدود ، يحمل
صفا طويلا من الملابس المنشورة ، وهى ترتجف وتتطاير فى
ذعر وحيرة امام لطحات الريح . . وقد تميز منه خلال الضوء
الخافت قميصان أحدهما ناصع البياض والاخر أحمر
اللون ، وسروالان ، وغلالة امرأة . . . وكان القميص الأبيض
يلوح بذراعيه المتدليين فى استغالة وجنون .

- ٣ -

• كانت الزيج في اعنف شدتها عند مدخل الشارع ،
والثلج ينهمر على أرضه انهمارا لا هوادة فيه .. الا ان
العربة ما دلفت الى الساحة التي تتوسط القرية ، حتى بدا
كل شيء هادئا ودافئا وبهيجا .. واقبل من أحد الافنية
كلب يعلو ويعوى ، كما اقبلت - من فناء آخر - امرأة
عجوز ، تهرول وقد لفت رأسها بمنديل ، وراحت تتطلع
نحو القادمين . ومن وسط القرية جاء صوت فتيات في أحد
المنازل تمرحن وتغنين .. فقال فاسيلي : « لا بد أن هذه هي
جريشكينو » .

وفعلا .. كانت تلك هي (جريشكينو) .. وبذلك وضع
لهما اتجاها انما تركا الطريق الى يمينهما ، وسارا نحو ثمانية
فراسخ مبتعدين بزاوية عن الاتجاه الصحيح .. وما لبثا أن
أبصرا رجلا طويل القامة ، يبرز في عرض الطريق صائحا :
« من أنت يا هذا ؟ » . فلما وقعت عينه على فاسيلي ، تقدم
نحو العربة ، وانحنى مزكما أنف نيكيئا برائحة الفودكا ،
قائلا لفاسيلي : « الى أين يا خذك الله في هذه الساعة
يا فاسيلي أندريتش ؟ » .. وحينئذ تبين لهما انه أحد
أصدقائه ويدعى « ايزاي » ، وكان معروفا بأنه أسوأ سارقى
الخيول في المنطقة كلها . فأجابه : « لقد كنا نحاول أن نصل
الى جوفيا تشكينو » .

فقال مستعجبا : « أى طريق ذلك الذى اتخذتماه اثن ؟ »
فغمغم فاسيلي وهو يدفع بالجسود قائلا : « ما جدوى
الكلام ؟ » .. وعندئذ نظر ايزاي فى خيبت الى الجواد ، ومر
بيده على كفله قائلا : « هل ستقضيان الليل هنا ؟ » . فأجابه
« كلا يا صديقى : سنواصل الرحيل حالا » .

. وقال ايزراى : « ارى ان من الافضل ان تبقيا ، ولكن من هذا ؟ .. يا لله اليس هذا هو نيكيثا مستيفاتش ؟ » فاجاب نيكيثا : « نعم . ليس غيره .. ولكن ، ارجوك ان تخبرنا ايها الاخ ، كيف نتجنب ان نضل طريقنا مرة اخرى ؟ » فاجابه قائلا : « كيف تتجنبان ان تضلا طريقكما مرة اخرى ؟ .. سيرا على طول الطريق ، ولا تحيدنا الى اليسار ، وانما استمررا حتى تصلا الى قرب قرية كبيرة ، فالتحنا نحو اليمين » .

وقال نيكيثا : « ولكن اين المنحنى بقرب تلك القرية ؟ .. هو طريق الصيف ام طريق الشتاء ؟ » فاجابه قائلا : « طريق الشتاء ، وسوف تجدان هنالك سندبانة عتيقة قارعة الطول » .. فاذا وصلتما اليها فعندها تحيدان » .



وفي الحال ادار فاسيلي رأس الجواد ليعود به الى الطريق مرة اخرى .. وبدا ان الثلج قد كف عن الانهمار ، والريح قد فترت .. ولكنهما لم يكادا يبلغان الخلاء ، حتى اكتشفا ان العاصفة لم تكن قد خفت ، كما توهمسا ، وانما — على العكس — اشتدت وازدادت عنقا .. ولولا العلامات القائمة على جانبي الطريق ، لراحا يتخبطان في الغابة مرة اخرى .. بل ان هذه العلامات ذاتها لم تلبث ان تغلظ تبينها ، اذ بدأت الريح تطمس معالمها ..

وقطب فاسيلي حاجبيه ، وهو ينحنى الى الامام كي يتبين مكان العلامات .. الا انه — مع مجزه عن ذلك — اطلق العنان لجواده اكثر من ذي قبل ، وانقا من قطنته .. انطلق الجواد حائلا ناحية اليسار اوناحية اليمين حسب انعطافات الطريق ، وهو يتحسسها بحوافره ، ولا يخطئها .. ملتزما

العلامات التي بقيت واضحة على الرغم من اشتداد الريح وانهمار الثلوج .. وظل منطلقا على هذا النحو ، حتى حدث بعد حوالي عشر دقائق أن لآخ فجأة أمامه شيء أسود يضطرب في دوامة هائلة من الثلج الذي تدفعه الريح .. وسرعان ما ظهر هذا الشيء مقترضا طريق الجواد ، وقد ارتطمت به قيعاه الاماميتان ، فاذا هو عربة تحمل جماعة من المسافرين ، وقد انبعثت عنهم صيحات مختلطة تصرخ في صخب : « خذ حذرك يا هذا ! انظر امامك ! » .. وسارع فاسيلي ، فحاد بالجواد عن طريقه . وحينئذ تبين أن بالعربة ثلاثة فلاحين من « المازيك » ، وامرأة عجوز . وكان واضحا أنهم ضيوف عائدون بعد أن قضوا أيام العيد في إحدى القرى .. فلما حاذاهم فاسيلي يعربته ، سألهم صائحا : « من أى بلد أنتم ؟ » . ولكنه لم يستطع تمييز اجابتهم .. بيد أنه سمع احدهم يصيح الى زميل له كان يهوى بالفصن على الجواد قائلا له : « اعترض طريقهما ! » . ومرة أخرى ، صاح فاسيلي : « اظنكم عائدین بعد قضاء فترة العيد ؟ » . ولكنه لم يسمع الا واحدا منهم يصرخ في زميله : « انهما يسبقاننا ! .. اعترضهما يا سيمكا ! »

وهكذا ظلت العربتان تتسابقان .. تبطلتان ، ثم تسرعان .. وتقفان ، ثم تنطلقان . حتى بدأت عربة الفلاحين أخيرا تن وتنداعى ، وبدأ جوادهم الضامر الصغير ينوء بحمله ، وهو يحاول عبثا أن يروغ من ضربات الفصصن الذى كان يهوى على جنبائه ، فراح يتخبط في تلال الثلج التى كانت تفوق فيها أقدامه ، وانفاسه تنطلق لاهثة من فتحات أنفه المنتفخة ، وأذناه منتصبتان ، مشدودتان الى الخلف من قرطه الارهاق والفرع .. قضى صاح ئيكيتا قائلا : « أنهم لسكارى ، وهذا ما تفعله الخمر بالناس ! »

وسرعان ما خارت قوة الجواد المكروب ، ووهنت خطواته
تختلف بعربته .. وظل تهديج أنفاسه يتردد بضع دقائق ،
كما أخذت صيحات الفلاحين وهى تغيب شيئا فشيئا ،
حتى طواها أخيرا صوت العاصفة .. ولم يعد يمكن سماع
شئ سوى صفير الريح ، وصرير العجلات وهى تفرقع فوق
أرض الطريق .



والواقع أن هذا السباق مع العربية الأخرى أبهج فاسيلي
وانعشه ، حتى لقد قاد الجواد ممثلى النفس بشقة لم تكن
له فى يوم من الأيام .. وحرك الأمر كله لفطنة الجواد
الأريب ، دون أن يهتم بمراقبة علامات الطريق . أما نيكيتا ،
فقد أسلم نفسه - كمادته - لأغفائه .. إلا أن الجواد
ما لبث أن وقف وقفة عنيفة مفاجئة ، حتى كاد أن يلقى
نيكيتا من مقعده فوق العربية .. وحيشذ صاح فاسيلي
قائلا : « لقد أخطانا الطريق مرة أخرى » . فقال نيكيتا
منتفضا : « كيف عرقت ذلك ؟ » . وكان جوابه : **« لم تعد
ثمة علامات ترى ! »**

وقال نيكيتا فى اقتضاب : **« حسنا . مادمننا قد فقدناها ،
فلا بحث عنها مرة أخرى ! »** .. ثم غادر العربية ، وراح
يشق طريقه بين الثلوج ، وهو يقفز قفزاً على عقبى قدميه
.. وظل يفعل ذلك وقتاً طويلاً ، فكان يختفى حيناً ، ثم
يظهر مرة أخرى .. وأخيراً ارتد فى يأس ، واعتلى مقعده
على العربية قائلاً : **« ليس هنالك طريق .. فلنتقدم بالعربة
فلا بد أنه أمامنا . »** .. وكان الظلام قد اشتد ، فقال
فاسيلي مبتأها : **« ليت فى مكاننا أن نسمع أولئك
الفلاحين ! »** . فقال نيكيتا : **« لن يلحقوا بنا ، لقد تخللوا**

عنا مسافة طويلة » .. وسسكت هنيهة ثم أضاف قائلا :
« لعلهم فعلوا مثلنا ! »

وقال فاسيلي متسائلا : « ولكن .. في أى طريق نحن ؟ » ..
فأجابه نيكيتا في لهجة الناصح : « اترك الامر للجواد ، فاعله
يتخذ الطريق الصحيح ! » .. ثم مد يده قائلا : « أعطني
العنان » . ولكن فاسيلي لم يناوله إياه .. ربما لأن يديه
— على الأقل — كانتا نصف متجمدتين في قفازيهما . فأخذ
نيكيتا اللجام ، ولكنه تركه مرسلا في أصابعه ، غير محاول
أن يشد عليه ، وقد اطر به — في الواقع — أن يختبر ذكاء
جواده المحبوب .. وقد كان على حق ، فإن الحيوان النابه
ما لبث أن نصب أذنيه ناحية اليمين ، ثم نصبها ناحية
اليسار ، ثم اذا به يستدير ويعود أدراجه .

وصاح نيكيتا في زهو وظفر قائلا : « أنه يعرف جيدا
ما ينبغي أن يفعل ! .. فانطلق يا صديقي ! انطلق ونحسن
مفك ! » .. واصبحت الريح في ظهرهما مرة أخرى ، وقد
بدأ لهما الجو أكثر دفئا .. واستمر نيكيتا في زهوه بالجواد ،
قائلا : « انظر ماذا يفعل بأذنيه وحدهما ! .. أنه يستطيع
أن يشم بهما رائحة الطريق على بعد فرسخ ! » . وفعل ،
لم ينقض نصف الساعة ، حتى بدأ يلوح أمامهما على البعد
شيء أسود كالفأبة أو القرية .. كما بدأت علامات الطريق
تظهر عن يمينهما . فتسألت نيكيتا فجأة : « اليسنت تلك
هي جريشكينو مرة أخرى ؟ » .

ولقد كانت حقا هي (جريشكينو) ، وقد بدأ عن يسارهم
المخزن والتلج متراكم على سطحة ، وعلى مسافة منه بدأ
مرة أخرى جبل الاليس المحمل بالقمصان والسراويل ..
وكلت ما تزال تعرف وترتجف امام لطمات ! .. وللمرة
الثانية ، راحا يدلفان الى شارع القرية ، وقد أخذ كل شيء

يبدو لهما في داخلها هادئا ودافئا وبهيجا ، وبلا سمعهما يلتقط اصوات المرح والقضاء المنبعثة من المنسازل ، وراح الكلب ينبج كما فعل في المرة السالفة .. واذا كان ظلام الليل قد اشتد عن ذى قبل ، فقد اصبحت الاتوار اكثر تالقا في احدى النوافذ .. وادار فاسيلى راس الجواد ناحية كوخ كبير ذى طابقين من القرميد « واوقف العربية عند عتبة .. واقترب نيكيئا من النافذة المضيئة ، المجلبة بالثلج المتألق فى وهج النور ، ودق لوح الزجاج بمؤخر سوطه ، فصاح صوت من الداخل ، قائلا : « من هناك ؟ »

واجاب نيكيئا قائلا : « انه السيد بريخانوف ، من كريستى ، ابها الاخ .. ارجوك ان تسمح لنا بالدخول .. » وسمعا حركة شخص يتبعد عن النافذة ، ثم - بعد نحو دقيقتين - صوت الباب الداخلى وهو يفتح ، وصريف مزلاج الباب الخارجى . وما انفرج قليلا ، حتى ظهر فلاح شيخ ، قارع الطول ، ذو لحية بيضاء ، امسك بالباب نصف مغلق خلفه - كى يمنع الريح من ان تتسرب الى داخل الكوخ - وقد القى على كتفيه معطفا من الفراء ، فوق جلباب ابيض مما يرتدى داخل البيت .. ووراءه شاب يافع فى قميص احمر وحذاءين طويلين ..

ولم يكد الشيخ يراهما ، حتى بادر قائلا : « كيف حالك يا اندريتش ؟ » . فاجابه فاسيلى : « لقد ضلنا الطريق يا صديقى .. كنا نحاول الذهاب الى جوفياتشكيننا ، فوصلت بنا العربة الى هنا .. ثم اضلنا المسير ، ولكن ، كيف ضلنا الطريق مرة اخرى » . فقال الشيخ : « ولكن ، كيف حدث ان سرتما فى اتجاه خاطىء ؟ » .. ثم وجه كلامه الى الشاب ذى القميص الاحمر ، قائلا : « اذهب يا بيتروشكا وافتح باب القناء » .

واذ انطلق الشاب في مرج ليفعل ذلك ، صاح فاسيلي قائلا : « كلا . كلا . لن نقضى الليل هنا » . فأجابه الشيخ متسائلا : « ولكن أين يمكنكما ان تذهبا الآن ؟ .. لقد خيم الظلام ، ومن الافضل لكما البقاء » . فقال فاسيلي في لهجة المتعجل : « كان يسرني كل السرور ان أفعل ذلك ، ولكنى لا أستطيع ، فأتيت تعرف ان العمل لا ينتظر » . وقال الشيخ : « لاقل اذن من ان تدخل فتستدفئا ببعض الشاي » . فأجابه فاسيلي قائلا : « نعم . ربما نفعل ذلك .. فان الليل لن يغدو - على اى حال - أشد ظلما مما هو الآن ، وسوف يظهر القمر بعد قليل .. هل ندخل وندفئ أنفسنا بعض الشيء يانيكيئا ؟ » . فقال نيكيئا وقد كان يرتجف من البرد : « نعم ! »



ودخل فاسيلي الى الكوخ في صحبة الشيخ ، في حين دفع نيكيئا العربية الى داخل الفناء ، بعد ان فتح بتروشكا له الباب . ثم ساق الجواد وأوقفه تحت مظلة هناك ، فما دلف به حتى ارتفع صوت ديك ودجاجات كانت جائمة في احد الاركان ، وقد راحت ترفرف بأجنحتها ، وتصرخ وتقفز هنا وهناك ضاربة الداخلين بمخالبها ، واندفعت بعض الاغنام في فزع وهى تدق بحوافرها الروث المغطى بالثلج ، وراح كلب يزوم ويزمجر في غضب . ثم لم يلبث ان انطلق يعوى في وجه القادمين المتطفلين .. فالتفت نيكيئا حوله يتأمل هذه الثورة التى أثارها قدومه ، وقال كلمة لكل من هؤلاء الثائرين يهدى بها خواطرهم .. ثم التفت اخيرا للكلب ، وهو يقول ملوحاً بيديه : « هاقد انتهينا الآن ، فاسكت يا مجنون ! .. اسكت ولا تزعج نفسك هكذا بغير موجب .. لسنا لصوصا ! »

فقال بتروشكا وهو يدفع العربة تحت المظلة يسديه القويتين : « آتاهم مستشارونا الثلاثة اليقظون ؟ » .. فقال نيكيثا متسائلا : « مستشاروكم الثلاثة ؟ » . فأجابه وهو يبتسم : « نعم » ، فانك تجده مكتوبا في كتاب « بولسون » . « حينما لص يتسلل الى المنزل .. الكلب يعوى قائلا بلفته الخاصة : اصحوا ! .. والديك يصيح قائلا : قوموا ! .. اما القطية فانها تروح تنظف وجهها ، كأنما تقول : ثمة ضيف مقبل ، فلنستعد للقاءه ! »

وقد كان بتروشكا ذا نزعة أدبية ، وكان يحفظ عن ظهر قلبه الكتاب الوحيد الذى يمتلكه ، وهو أحد مؤلفات « بولسون » .. فقال : « هلفا حق صراح » . وقال بتروشكا : « ولكنى أراك متجمدا من البرد .. فتعال الآن الى الداخل كى تصيب بعض الشاي » .. ثم عبرا الفناء ودلفا الى داخل الكوخ .

- ٤ -

• كانت العائلة التى لجأ فاسيلى وخادمه الى منزلها ، من أغنى عائلات القرية .. اذ كانت تمتلك ما لا يقل عن خمسة أفدنة من الارض ، وتستأجر قدرا آخر يدر عليها ريعا سخيا . وكانت حظائرها تشتمل على خمسة خيول ، وخمسة ثيران ، وثلاثة أبقار ، وقطيع من عشرين رأس غنم .. وكان المنزل يضم بين جدرانها اثنين وعشرين نفسا .. اربعة أبناء متزوجون ، وستة أحفاد - كان أحدهم وهو بتروشكا متزوجا - واثنان من أبناء الأحفاد ، وثلاث يتامى ، وأربع من زوجات الأبناء مع أطفالهن .. فضلا عن ولدلين كانا يعملان فى موسكو ، وثالث كان فى الجيش .. الا انه لم يكن بالمنزل - فى تلك الساعة - غير الشيخ وزوجته ،

والابن الثاني صاحب الاولاد المتزوجين ، واكبر الولدين اللذين كانا يعملان في موسكو - وقد جاء في العيد - والزوجات والاولاد العديدين واحد الجيران الثرثارين .

تلك كانت إحدى العائلات النادرة ، التي ظلت تعيش متجمعة في بيت واحد ، برغم ما كان ناشبا بين نساءها من عوامل النزاع والشقاق العميق الجذور ، الذي لا يفتأ ينشب عادة بين كل النساء ، والذي كان من شأنه أن يؤدي آخر الامر الى هدم العائلة وتحطيم كيانها ..

وكان ثمة مصباح ذو غطاء زجاجي ، يطلو الخوان الذي يتوسط ردهة الكوخ ، ويلقى ضوءا ساطعا على آنية خزفية منثورة فوقه ، وزجاجة « فودكا » تحيط بها ألوان متنوعة من الطعام . وفي أحد الأركان ، كانت ثمة أيقونات مزينة بالرسم على جفتيها .. وفي مكان الشرف من المائدة ، جلس فاسيلي - وقد خلع معطفه وبدأ في سترته السوداء الداخلية - وراح يعث بشاربه ، وهو يدير بصره في أنحاء الكوخ ، ويتفرس في الجالسين حوله بعينين بارزتين براقتين كعيني الصقر .. وفي المقعد التالي له ، جلس الشيخ الأصلح ذو اللحية البيضاء وهو رأس العائلة .. وكان يلبس قميصا أبيض اللون مصنوعا بالمنزل . وجلس بعده الابن الذي جاء من موسكو بمناسبة العيد ، وكان معتدل القامة عريض المنكبين يلبس قميصا أبيض يشبه قميص أبيه ، ولكنه من نسيج أجمل وأجود .. وإلى جانبه جلس أخوه الذي يصغره . وكان - هو الآخر - عريض المنكبين .. وكان هو أكبر المقيمين بالمنزل من الإبناء .. وتلاه الجار الثرثار .. فلاح نحيف البنية أحمر الشعر .

وكان القوم يتناولون المشاء ، ويشربون « الفودكا » ، وقد بوشكوا أن يشربوا الشاي ، حينما وصل القادمان .

وكان الأبريق موضوعا بالفعل على النار ، والله يغلى فيه ..
وبعض الأطفال يحيطون بالموقد أو يجلسون على بعض
الأرائك فى أطراف الردهة ، فى حين كانت المرأة العجوز
واقفة خلف المقعد الذى يجلس عليه فاسيلى ، وقد ملأت
التجاعيد كل وجهها ، حتى الشفتين .. فلما دلف نيكيتا
الى داخل الكوخ ، كانت تتأهب لأن تقدم الى ضيفها بعض
« الفودكا » فى قدح من الزجاج السميك ، وهى تقول له :
« لا ينبغي لك أن ترفضه يا فاسيلى أندريتش .. فانك لفى
أشد الحاجة حقا الى شئ ينعشك أيها السيد العزيز ! »
. وأثارت رائحة « الفودكا » نيكيتا وهزته هزا عنيفا ،
وخاصة اذ كان شديد الاحساس بالبرد والجوع .. واذ
كان ينفذ الثلج العالق بثوبه توقف لحظة أمام الايقونات
وعيناه تجولان بين الجالسين ، ثم ركع ورسم علامة الصليب
ثلاث مرات .. وعاد بعد ذلك الى مضيفه فحياه ، ثم حيا
الجالسين حول المائدة ، والمرأة الواقفة بجانب الموقد ..
ثم راح ينزع عنه معطفه ، دون أن ينظر الى المائدة ، فنفضه ،
وعلقه فوق المشجب القريب .

واقترب - أخيرا - من المائدة ، فلما قدموا اليه الفودكا ،
كاد أن يتناول الزجاج ويرفعها الى فيه ، لولا أن وقعت
عينه - فى تلك اللحظة - على فاسيلى ، فعادت به الذاكرة
فى الحال الى حداثيه المرهونين ، كما تذكر ابنه الذى وعده
بأن يشتري له جوادا فى الربيع .. وهكذا انتهى به الأمر
الى أن نحى عنه الزجاج وهو يتنهد ، وقطب حاجبيه
قائلا : « اننى لا أشربها .. أشكرك شكرا جزيلا . ثملقى
بنفسه على مقعد بقرب النافذة . فقال الأخ الأكبر متسائلا :
« ولكن لماذا ؟ » . فأجاب نيكيتا دون أن يرفع عينيه :
« لا أنسى لا أشربها .. لا أشربها ! »

وقالت العجوز الرحيمة : « حسنا ، هات ابريق الشاي اذن .. سأحضر لك بعض الشاي ، لآنك لابد متجمد من البرد .. لماذاخرتن في انجازالابريق ياانسائي الطيبات؟ » .
فأجابت إحداهن وهي تمسح بقطعة من القماش ابريق الشاي المفطى قائلا : « لقد انتهينا من اعداده ! » .. ثم رفعت بعض العناء ، ووضعت على المائدة .. وكان فاسيلي - في ذلك الوقت - يقص على مضيفه كيف ضل وتابعه طريقهما وهاما على وجهيهما في الغابة ، وكيف تقابلا مع الفلاحين السكارى ، وكيف عادا الى القرية مرتين .. فقالت العجوز في لهجة اقتناع : « ولكن اليس من المستحسن أن تقضيا الليل هنا ؟ .. سوف تعد النسوة لكما الفراش » .
فقال زوجها : « نعم » ينبغي أن تبيتا هذه الليلة هنا !
وبادره فاسيلي قائلا : « كلا ، كلا .. قطعنا لا أستطيع ذلك يا صديقي الفاضل ، فالعمل هو العمل .. وتأخير ساعة ، معناه ضياع سنة كاملة » . ثم راح يقص قصة مخزن الخشب ، والمنافسين الذين قد يسبقونه الى القوز بالصفقة .. والتفت الى نيكيتا قائلا : « هل نذهب الآن ؟ » .
ولم يجب نيكيتا ، واتما بدا منهما بعض الوقت في نقض الثلج عن لحيته وشاربيه . ثم غمغم أخيرا في عبوس : « سوف يكون من الفطيع أن نضل الطريق مرة أخرى .. أليس كذلك ؟ »

وكان سر عبوسه في الواقع أنه كان شديد الالفة الى الفودكا ، وكان الشيء الوحيد الذي خفف عنه قوط لهفته هو ارتقاب الشاي الذي لم يكونوا صنعوه اليه بعد .. الا ان فاسيلي أجابه في اصرار : « ولكن ، لابد لنا أن تصل الى قاييتنا .. ولا يمكن أن نضل الطريق بعد ذلك .. فما علينا الا أن نسلك طريق الغابة رأسا الى مقصدنا ! »

وقال نيكيتا وهو يتناول كوب الشاي الذى كان يقدم اليه فى تلك اللحظة : « حسنا ، فأنت الذى تقرر يا فاسيلى اندريتش .. ان كان لابد لنا من الذهاب ، فلتذهب .. هذا كل ما فى الأمر ! » . فقال فاسيلى : « اشرب الشاي اذن ، ولنسرع ! »



ولم يغه نيكيتا بكلمة أخرى ، وان هز رأسه فى استياء واستنكار . ثم صب الشاي بعناية فى القدح ، وبدأ يذوق - فى البخار المتصاعد - أنامله المتورمة من البرد . وقال وهو يقضم بأسنانه قطعة من السكر ، وينحنى لمضيفه : « أتمنى لكم الصحة جميعا ! » .. ثم صب الشراب اللذيذ فى جوفه . وهنا قال فاسيلى متاوها : « ليتنا نجد من يقودنا الى منحى الطريق ! » .. فقال الأخ الأكبر : « هذا يمكن تدبيره ، ففى إمكان بتروشكا ان يسرج جوادا ويذهب معكما الى أبعد من ذلك » .

فقال فاسيلى : « اسرجه اذن أيها الأخ ، ولك أفضل تشكراتى » . فأجابته العجوز المضيفة : « ولك أنت يا سيدى الفاضل .. فقد سررنا كل السرور برؤيتكم » . وتناول بتروشكا قبعته وهرب خارجا .. وبينما كان يعد جواده وجواد الضيف ، استأنف أصحاب الدار حديثهم الذى كانوا قبل مجيء فاسيلى ومرافقه ، وقد بدا أن الرجل العجوز كان يشكو الى جاره - الذى كان هو الآخر رب عائلة - من تصرف ابنه الثالث ، اذ لم يرسل اليه هدية العيد فى هذا العام ، بينما اهدى زوجته شيلا فرنسيا .. وراح الشيخ التوجع ، يقول فى مرارة : « ان شباب هذه الأيام قد خرجوا عن الولاء لوالديهم » . فأجابه الجار : « حقا .. ولم تعد لنا حياة معهم ، فانهم ليزدادون وقاحة

.. انظر الى ديموتشكين ، الذى كسر ذراع ابيه فى ذلك اليوم ؟! .. لم تعد لنا حياة معهم » .

وظل نيكيتا منصتا ، وهو ينقل البصر من واحد الى آخر ، وقد تملكته رغبة جارفة فى ان يساهم فى الحديث .. الا انه كان منهمكا كل الانهماك فى شرب الشاي ، فلم تعد لديه فرصة للكلام ، واكتفى بان كان يهز رأسه فى موافقة واستحسان بين لحظة واخرى .. ودب الدفء فى جسده واعتدل مزاجه ، بينما استمر الحديث طويلا حول هذا الموضوع ، وما يستتبعه من شر التسبب فيما يصيب العائلات من التفكك والانتقسام ، وقد بلغ من اهتمام الحاضرين بالموضوع ، ولتثبثهم به ، انه كان من العسير صرفهم عنه ، فراح يتشعب بهم ، ويتطرق الى ما ظهر فى سماء هذه الأسرة ذاتها من خصام بات يهدد العائلة كلها بالتصدع ، بسبب السلوك الذى نحا اليه الابن الثانى لرب الأسرة ، وهو الذى كان جالسا فى هذه اللحظة بين الحاضرين ، وقد غرق فى كآبة وسكون .. وكان من الواضح أن موضوع الخلاف جوهرى جدا ، وأن الأدب وحده هو الذى منع العائلة حتى الآن من الخوض فيه امام القريباء .. الا ان الشيخ لم يستطع ان يمسك طويلا عن البوح به فانفجر - آخر الأمر - واللمع فى عينيه ، قائلا انه طالما ظل على قيد الحياة ، فلن يسمح ابدا بوقوع الفسقة او الانفصال بين افراد عائلته ، وأنه سيحفظ وحدة بيته الى آخر رمق فيه من اجل مجد الرب .. لانه اذا سمح لاحد ابناء هذا البيت بالانفصال عن الأسرة ، فسيتبعثر كله وينفرد مقده .

وقال الجار مؤمنا على قوله : « نعم . هذا ما حدث لبيت مانتيك .. فقد كان يوما ما بيتا عامرا ، ولكنه انتقسم وتفرق .. وما من واحد من ابنائه اصاب شيئا الا يبدد

فانهار البيت من أساسه » . فالتفت الشيخ الى ابنه قائلا له : « هذا ما أظنك تريد بنا ؟ » . ولم يجر الابن جوابا . وسكت الجميع سكوتا تاما ، حتى ارتفع بعد قليل صوت بتروشكا ، وقد فرغ من اسراج الجواد ، وعاد يقول باسمنا : « هذا يذكرنى بحكاية قرأتها فى كتاب بولسون ، عن ابن اعطى ولده حزمة حطب ليكرسها مجتمعة فعجز .. حتى اذا فرقها وأعطاه واحدة منها ، كرسها كلها فرعا بعد آخر ، .. وهكذا الحال فى موضوعنا » ..

وسكت بتروشكا قليلا ، ثم نهض قائلا : « ولكننى على تمام الاستعداد للرحيل الآن ! » . فقال فاسيلى : « مادمت مستعدا ، فهيا بنا .. اما عن الانفصال الذى يشغل بالك أبها الجدة الطيب فلا تدعه يقلقك كثيرا .. أنك أنت الذى أقمت هذا البيت ، واذن فينبغى أن تكون أنت صاحب الأمر فيه .. فاذا وجدت الأمر يستلزم عرضه على القاضى ، فاعرضه عليه ، ولسوف يحكم لك بما يريحك ويرضيك ! » . فهتف الشيخ فى حزن عظيم : « ولكن أن يتصرفوا هكذا ! .. نعم ، لا حياة لنا معهم .. قاتنها لمن أعمال الشيطان كلها ! » أما نيكيتا ، فكان قد اتهم قدحه الخامس من الشاي ، وتطلع منتظرا قدحا سادسا ، الا أن الشاي كان قد نصب فى الأبريق ، ولذلك فإن ربة البيت لم تمد يدها اليه بما يريد .. فى حين كان فاسيلى قد ارتدى معطفه الفاخر المصنوع من الفراء .. واذا رأى نيكيتا أنه لابد - والأمر كذلك - من الرحيل ، وقف وإعاد ما تبقى من السكر فى الوعاء ، وفر بطرف ردائه على وجهه - الذى بدأ العرق يتفصدا منه - وراح يرتدى ستروته .. وزفر زفرة عميقة ، ثم تقدم بالشكر الى مضيفيه ، واستدار مغادرا الفسرفة الدافئة المضيئة المعتلة بالانفاخ ، الى البرد القتارس

والظلام الدامس .. واجتاز عتبة الدار الى الفناء الفارق
في الدبجته ، حيث كان بتروشكا ينتظره ، وقد تلفع بدثار
كثيف من فراء الشاة ، ووقف بجانب جواده يتغنى باسمه
بمقطوعة من اشعار بولسون ، يقول في مطلعها :

« العاصفة الجارفة تحجب وجه السماء .. »

« والريح القاصفة تظلف بالثلج المنهر .. »

« وهى كوحش كاسر تصرخ حيناً .. »

« وكفعل - حيناً آخر - تنسج وتروح » .. »

وأما نيكيتا براسه مستحسننا ، وهو يرقع الأتعة ، بينما
أقبل الشيخ الى مدخل الدار ، ممسكا بيده مصباحا
يحاول أن يثير به لفاسيلى طريقه الى العربة . الا ان ضوء
المصباح راح يلهث متقطع الانفاس من فرط ما كان يناله من
لطمات الريح .. فقد بدا واضحا أن العاصفة كانت - حتى
في داخل الفناء - أسوأ مما كانت في أى وقت من الاوقات ..
وحينئذ قال فاسيلى في نفسه : « لعننا لن تضل أبدا .. »
وعلى أية حال : هناك عمل ينبغي لى أن أفكر فيه .. فلا بد
من الذهاب .. بينما كان الشيخ يقول في نفسه أن من
الأفضل للضيقتين ألا يلتحبا . ولكنه كان قد بذل جهده
- فعلا - ليشنيهما عن عزمهما ، ويقتعهما بالمعدل عن
مواصلة رحلتهما .. ومن لم فلا فائدة من الالتحاح .. أما
بتروشكا ، فلم يكن يخطر بباله مطلقا أى خطر ، اذ كان
يعرف الطريق وكل أرجاء المنطقة المجاورة تمام المعرفة ، كما
أنه كان يالف الزوايع والأعاصير والثلوج .. وأما نيكيتا ،
فلم تكن لديه أية رغبة في مواصلة الرحلة ، الا أنه كان قد
اعتاد منذ زمن طويل ألا يكون له الخيار فى شيء ، وأن يقنع
بطاعة الآخرين وتحملتهم .. »

- ٥ -

تخطى فاسيلى عتبة الباب ، واتخذ طريقه فى الظلام حتى بلغ العربية ، فولجها وهو يقبض على اعنة الجواد .

وانطلقوا من فناء الدار الى شارع القرية ، واجتازوا اطرافها ، مندفعين فى ذات الطريق الذى كان فاسيلى ونيكىتا قد سلكاه من قبل . . . ومروا - بعد ذلك - بحدائق الكرم ، التى تنبت من أعماقها همهمة غامضة وهسيس غريب . . . وهناك غاصوا - مرة أخرى - فى بحر من الجليد الذى كان ينهمر فوقهم ومن تحتهم . . . وكانت الريح تهب على عنف ، حتى لقد كانت تميل بالعربة على جنبها ، وتدفع الجواد فينطلق فى خطوات أوسع من خطواته المعتادة . . . وبينما كان يتروشكا يطلق صيحات الفروسية والحث على الاسراع والانقاذ ، وهو يقود فرسته القوية فى مقدمة الركب ، بينما يتبعها الجواد ويكاد ان يلتصق بها . . .

وبعد حوالى عشر دقائق من السير ، لوى بتروشكا عنان فرسته حائلا بها قليلا الى الخلف ، وهو يصيح لرفاقه ببعض كلمات . . . الا انه لم يمكن لفاسيلى او نيكىتا ان يسمعا ما قال ، وان حسنا انه يريد ان يخبرهما باتهم وصلوا الى منحنى الطريق ، فقد راياه يتطف هسك الى اليمين . . . واصبحت الريح - التى كانت تلعنهم من الجنب - تصفهم فى وجوههم ، فى حين ان ثمة شيئا قائما أصبح فى امكانهم ان يروه بين الثلوج عن يمينهم ، وكان ذلك هو العلامة التى تدل على نقطة المنحنى . . .

وصاح بتروشكا : « امضيا فى سلامة الله ! » . . . فاجابه فاسيلى : « نشكرك . . . نشكرك يا بتروشكا » . . . وصاح

الفتى مرة أخرى : « ان العاصفة التي تجتاح سطح الأرض
تجيب السماء » .

قال ذلك ثم اختفى .. ومضت بهما العربة في طريقها .
ولكى لا يبدد نيكيتا الدفء الذي اكتسبه من اقداح
الشاي التي احتساها في الدار ، دثر نفسه بردائه ولفه لفا
محكما حول جسمه ، وحذب كتفيه حتى غطت لحيته
القصيرة ما كان مكشوفاً من مقدم رقبته ، وجلس في صمت
مطبق ، مصوباً عينيه الى الامام عبر الطريق الملتف بالغيوم
.. وكانت علامات الطريق لا تفتأ تلوح بين فينة وأخرى ،
فكان امكان رؤيتها دليلاً على انهما ما زالا في الاتجاه الصحيح
.. فارخى فاسيلي اعنة الجواد ، تاركاً اياه يقود نفسه ..
الا أن « براوني » — برغم الاستراحة الطويلة في القرية —
راح يمشي على كره منه .. حتى ان فاسيلي كان كثيراً ما
يقسره قسراً ، على ان يواصل السير في طريقه ، وهو يعد
علامات الطريق قائلاً : « ها هي ذى علامة عن يميننا ..
وهذه ثالثة .. وهذه ثالثة .. وها هي ذى الغابة في
مواجهتنا ! »

وهكذا راح يحدث نفسه ، وهو يتفرس في شيء ما كان
يبدو داكنا امام عينيه .. الا ان ما تراءى له على البعد غابة
مترامية الأطراف ، ما لبث ان اتضح انه مجرد دغل صغير
.. قلبها تجاوزاه بخمسين ياردة أخرى ، حديق فاسيلي
منعها النظر ، فاخذته العجب ، وصدمته المفاجأة ، اذ لم تعد
ثمة غابة ، ولا علامة من علامات الطريق يمكنه ان يراها ..
على ان فاسيلي ما لبث ان قال في نفسه ، وهو منتعش
الاحساس بها احتسى من الشاي والفودكا : « لا بأس ..
فلسوف نبلغ الغابة بعد قليل ! »
وراح يهرأعنة الجواد مرة أخرى ، والجواد الطيع لا يجد

مندوحة عن أن يمثل لشبيئة سيده ، فيمضى إلى حيث ساقه متهاديا مرة ، ومنطلقا أخرى ، وهو يعلم كل العلم أنه كان يسير في الاتجاه الخاطئ .. وهكذا مضت عشر دقائق أخرى ، دون أن تبلى الغابة أمام الركب .. وأخيرا قال فاسيلي : « لقد ضللتنا الطريق مرة أخرى ! »



ونزل نيكيتا من العربة في صمت مطبق ، وثنى أطراف سترته التي كانت تلتصق بجسمه حيناً ، وتطير في الهواء حيناً آخر .. وراح يتخبط ضاربا بقدميه فوق الثلج .. وما لبث أن رجع آخر الأمر ، وتناول الأعنة من « فاسيلي » ، وقال في لهجة حاسمة ، وهو يميل بالجواد إلى ناحية اليمين : « يجب أن نتجه يمينا » .. فأجابه فاسيلي : « حسن جدا .. إذا لم يكن يد من أن نتجه يمينا ، فلنتجه يمينا ! » .. ثم شبك يديه المخلدتين - من البرد - فوق كمي سترته . ولكن الجواد لم يتقدم خطوة واحدة ، برغم كل ما بذله نيكيتا وهو يحثه ويجذب أعنته .. بينما كان الثلج يتراكم بفزارة ، والعربة تتحرك في لجة وهي ترتج وتترنح مع كل دفعة من دفعات الجواد .. وما لبث نيكيتا أن أهوى بالسوط على ظهر الجواد الطيب ، الذي لم يكن قد تعودا الضرب ، فقفز إلى الامام ، وراح يخب في بحر الثلج لحظة .. ثم عاد فتخاذل ، وراح يترنح في سيره نحو خمس دقائق أخرى .. وكان الظلام قد اشتد ، والثلج ماض في أنهماهه حتى لم يعد في وسع الراكبين أن يريا رسن الجواد ، وكانت العربة بينذاك تتأرجح بهما ، ثم ما لبثت أن وقفت جامدة . وأجفل الجواد فجأة ، إذ اشتتم رائحة شيء أمامه .. فألقى نيكيتا الأعنة ، وقفز في خفة من العربة كي يقترب

من رأس الجواد ويتبين ما دماه . ولكنه لم يكد يخطو خطوة واحدة ، حتى انزلت قدمه وانكفا في هوة فتحت فاهها امامه ، وراح يتدحرج في منحدرها وهو يصرخ ويحاول عيشا ان يتوقف في اندفاعه ، حتى غاصت قدماه في لجة الثلجية عميقة عند القاع . . وانهارت فوق رأسه اكوام الصقيع المتراكمة على جنبات الهوة ، والتي حاول التشبث بها اثناء سقوطه ، وقد غطاه ركامها حتى قفاه .

وراح نيكيتا يحاول دفع الثلج عن ياقة سترته وهو يقول ، متأففا : « ما هذا ؟ ما هذا ؟ » . . بينما انطلق فاسيلي يناديه : « نيكيتا . . نيكيتا ! » . . الا ان هذا لم يحر جوابا اذ كان واضعا كل همه في ان يخلص نفسه من ركام الثلج المنهار عليه ، وهو يبحث - في ذات الوقت - عن البسوط الذي سقط منه وهو يتدحرج في المنحدر . فلما وجدته آخر الأمر ، بدأ يحاول ان يتسلق جدران الهوة ، ولكنه تبين - بعد الجهد - ان الأمر مستحيلا ، وانه كلما كرر محاولته ، كان ينحدر الى اعفق مما كان . واخيرا اضطر ان يبحث - في القاع السحيق - عن منفذ يخرج منه . . وبعد طول العناء ، وجد على بعد بضعة ياردات من البقعة التي سقط فيها ، مكانا استطاع ان يتسلق عنده زاحفا على اطرافه الأربعة ، نحو الاتجاه الذي قدر ان يكون الجواد واقفا فيه . . ومع انه لم يكن يرى شيئا ، فقد استطاع ان يسمع ضيحات فاسيلي ، وصهيل « براونى » الذى راح يحتفى بعودته . . فاجابها صائحا : « ها انذا مقبل ! . . ها انذا مقبل ! . . لماذا تثيران الضجيج من اجل ذلك ؟ » . . وراح يقترب منهما . . الا انه لم يتمكن من رؤية الجواد الا بعد ان صار ملاصقا له . وكان فاسيلي واقفا بجانبه في الظلام وقد تجمد من البرد ، فبادره قائلا في غضب : « كيف

بحق الشيطان تسمى هكذا الى حتفك ؟ .. هيا بنا نعود ،
أو - على الأقل - نحاول أن نرجع الى جريشكينو » .
فأجاب نيكيتا قائلا : « لسوف أكون سعيدا جدا بهذا ،
ولكن فى أى طريق نذهب ؟ .. لو أننا سقطنا فى هذا الخندق
- الذى سقطت فيه - فلن نخرج منه الى الأبد .. وقد
تحققت بنفسى من ذلك الآن ! » .. فقال فاسيلى : « ولكننا
لأنستطيع أن نبقى هنا .. ويجب أن نذهب الى أى مكان ! »
ولم يقل نيكيتا شيئا ، وإنما جلس على حافة العربة
وخلع حذاءيه ، ونفض الثلج الذى انحثر فيهما وتراكم
عليهما .. وبينذاك ، سكنت فاسيلى ، وقد اعتزم أن يترك
الأمر كله لنيكيتا . فلما انتهى هذا من لى حذاءيه مرة
أخرى ، دس قدميه فى العربة ، وارتدى قفازيه ، وامسك
عنان الجواد ، وأدار عنقه فى محاذاة الخندق فى حذر ..
على أن الجواد أجفل - مرة أخرى - ولما يقطع أكثر من
مائة ياردة ، اذ اعترضهم خندق آخر .. ونزل نيكيتا من
العربة ثانية ، وراح يتحسس بين الثلوج . وغاب بعض
الوقت ، ثم لاح ب آخر - فى الاتجاه المضاد للعربة ، وصاح
قائلا : « هل أنت هناك يا أندريتش ؟ .. لا طريق فى هذه
الناحية .. والظلام حالك .. وثمة خنادق كثيرة تحيط
بنا .. فعلينا أن نحاول العودة ضد اتجاه الريح » .
الا أنهما ما سارا فى هذا الاتجاه بعض الوقت ، حتى
توقفا مرة أخرى .. ونزل نيكيتا يتحسس الطريق فوق
الثلوج . ثم عاد فركب العربة .. وعاد الى النزول منها
.. وهكذا حتى تقطعت أنفاسه - فى النهاية - من قوط
العناء . فسأله فاسيلى قائلا : « ماذا حدث ؟ » . فأجاب :
« لاشيء الا ان التعب أنهكنى .. كما أنهك الجواد » .
فقال فاسيلى : « وما العمل إذن ؟ »

وزهد ، وعاد - بعد لحظة - وصاح قائلا ، وهو يسير أمام الجواد : « اتبعنى ! » .. فتبعه فاسيلي ، الذي كان قد كف عن إصدار الأوامر ، وراح يلحن لتوجيهات نيكيتا في تواضع تام .. وصاح هذا مرة أخرى قائلا : « في هذا الاتجاه .. سر خفى ! » .. ثم استدار استدارة تامة نحو اليمين ، ممسكا « براونى » من رأسه ، وجاذبا إياه نحو كومة الثلج .. واجفل الجواد - في أول الأمر - ثم اندفع إلى الأمام محاولا القفز فوق الكومة .. إلا أنه اذ أخفق في محاولته ، تقاص في الثلج حتى طوقه .. فصاح نيكيتا لفاسيلي أن يساعده ، وراح يبذل كل قوته في معاونة الجواد على سحب العربة من كومة الثلج .



وبذل الجواد مجهودا باسلا ، ولكنه فشل - آخر الأمر - في تخطيط نفسه .. ومن ثم توقف متخاذلا ، معبرا عن حنقه باستيائه من الموقف كله . ولكن نيكيتا راح يدفعه من ناحية ، وفاسيلي يدفعه من الناحية الأخرى .. وظل الجواد يهز رأسه لحظة ، ثم ما لبث أن نهض فجأة ، واندفع إلى الأمام في محاولة أخرى .. وحينئذ صاح نيكيتا مشجعا إياه ، قائلا له : « مرحى ! .. ها أنت ذا لا تريد أن تدفن هذه المرة .. هيا ! .. أبذل جهلك ! » .. ودفع الجواد نفسه مرة ثانية ، ثم ثلثة .. حتى أزال كومة الثلج من حوله .. ثم وقف بعد ذلك ينفض نفسه ، ويهز جسمه كله وهو يتنفس تنفسا حنيئا .. بينما راح نيكيتا يدفع العربة قليلا إلى الأمام . أما فاسيلي فقد كان التعب قد أخذ منه تحت عبء وزايد الثقيلين ، فما كان منه إلا أنه توقف عن أي عمل ، وجلس في العربة مرة أخرى ، وهو يغمغم قائلا :

« فلاسترح قليلا ! » . وراح بينذاك يفك عقدة المندبل الذي
الذى كان قد ربطه حول عنقه قبل أن يفادر العربية .
فأجابه نيكيئا : « استرح .. فليست بحاجة للاستعجال ..
ولسوف أقود أنا الجواد ! » .

وتقدم بالعربة نحو عشر ياردات ، عبر منحدر اعترضها ،
ثم ارتفع بها في مستوى الطريق مرة أخرى .. وهناك مالبت
أن توقف .. ولم يكن توقفه - هذه المرة - في الخندق
ذاته ، حيث كلن الثلج يتجمع بمنحدر من الربى ويتراكم
حتى ليوشك أن يغمرها إلى رأسيهما ويدفنهما في لجته ..
على أن توقفه جاء - مصادفة - في الجانب المحمى من الريح
من الخندق ، فبدأ أن شدة الريح قد خفت بعض الشيء ..
إلا أن ذلك لم يستمر طويلا ، فما لبثت العاصفة أن انطلقت
من عقالها وازدادت عنفها عشرة أضعاف ، وراح الأعصار
يهدم ويحوم حولهما ، مرسلًا زئيرا رهبا واشدا هولا من
أى وقت مضى .. وقد لطمت إحدى هبات الريح المجنونة
جانب العربية ، بينما كان فاسيلي يفادرها ليقترب من نيكيئا
ويتشاور معه فيما يفعلانه بعد ذلك .. وحينئذ بسط
براونى أذنيه في يأس وهز رأسه في اعياء واستياء . فلما
انكسرت حدة العاصفة بعض الشيء بادر نيكيئا فخلع
قفازيه ، ثم فرق يديه وراح يفك عنان الجواد من السرج ..
وسأله فاسيلي : « لماذا تفعل ذلك ؟ » .. فأجاب قائلا :
« لأنه ليس ثمة شيء آخر يمكننا عمله .. إننى متعب جدا
الآن » . فقال فاسيلي : « السنا زمعين اذن أن نحاول
التقدم أى مسافة أخرى ؟ » . وأجابه : « كلا . لأننا لم
نفعل سوى أننا أرهقنا الجواد في غير طائل .. » . أن براونى
على استعداد لواصله الرحيل ، ولكنه لم يعد يستطيع أن

يقف على قدميه .. فليس من حل آخر الا أن نقضى الليل هنا ! »

قال ذلك ، وكأنما كان يقترح أن يبيتا ليلتهما هذه في فندق ، ثم راح يحل حزام الجواد .. فصاح فاسيلي قائلا : « ولكننا سنموت من الصقيع هنا » .. فقال نيكيتا : « حسنا ! .. وماذا لو حدث ذلك ؟ .. اننا لن نستطيع ان نتفادى حلوته ! »

- ٦ -

• كان فاسيلي في غاية الدفء ، في ثوبيه الثقيلين ، لاسيما بعدما بذله من المجهود في دفع الجواد لآخر اجه من كومة الثلج التي كان قد غاص فيها .. ومع ذلك ، فقد أحس بأنفاس الصقيع تلسع ظهره ، حين أدرك أن عليهما أن يقضيا الليل في ذلك المكان . ولكي يهدى من روعه ، جلس في العربة ، وأخرج ثقابه وعلبة سجائره ، بينما فك نيكيتا أعنة الجواد ، ورفع سرجه ، وهو يحدثه في مزح قائلا له : « دعني أخرجك من أحزمتك وأربطتك ها هنا .. وسوف أعطيك بعض التبغ لنتمتع بوجبتك ! » .. ولكن براوتى لم يبد شعورا بكثير من الارتياح مما فعله نيكيتا ، بل ظل متبرما ، وقد وقف وذيله يتطاير في اتجاه الريح ، وراح - في كل لحظة - يبدل أقدامه ، ويقلق بثقل جسمه على العربة ، ثم يحك رأسه في كم هيكيتا .. وكأنما لم يكن ينبغي أن يبدو لفظا في التعبير عن شعوره نحو ما أبداه نيكيتا من عطف عليه ، فلمس أنفه في حفنة التبغ التي ألغاه أمامه .. الا أنه ما لبث أن عاد الى إبداء تبرمه ، وأشاح بوجهه عن الغذاء ، وتركه للريح تحمله في ومضة ، وتعصف به في دوامتها .

وعندئذ قال نيكيتا : « هلا لو رفعنا إشارة استغاثة ! » ..

ثم ادار العربة قليلا فى اتجاه الريح ، وربط عريشها بحزام الجواد ، ورفعها الى اعلا ، مسندا اياه الى اللوحة الامامية للعربة .. ثم استطرد قائلا : « الآن » اذا مر اى انسان فى هذا الطريق ، فسوف يعرف مكاننا اذ يرى العريش ، فيأتى وينبش عنا ، ويخرجنا .. لقد تعلمت هذه الحيلة من العجائز ! » .. ثم ضرب احد قفازيه بالآخر ولبسهما .

وفى ذات الوقت ، فك فاسيلي ازرار ثوبه الغرو ، وجعل من اطرافه ستارا فى وجه الريح ، وراح - وراء هذا الستار - يحاول اشعال عود فى اثر عود من الثقاب ليشعل سيجارته ، الا ان يديه كانتا ترتعدان ارتعادا شديدا من البرد .. وبعد عناء شديد ، اشتعل آخر الامر عود منها ، وظل مشتبلا لحظة وجيزة ، بدا فى اثنائها على ضوءه رداؤه المصنوع من الغرو ، ويده يتلألا فى سبابتها الخاتم الذهبى ، والقش المغطى بالثلج يبرز من تحت الفرارة .. وقد افلح هذه المرة فى اشعال السيجارة واخذ منها نفسين فى نهم ، وابتلع الدخان ، ثم نفخه مرة اخرى خلال شعرات شاربه .. وكان على وشك ان ياخذ نفسا ثالثا ، حين اطاحت الريح بالطرف المشتعل من السيجارة واقت به فى القش !

على ان هذا القدر اليسير من الدخان ، ترك فيه اثرا منعشا . فقال فى بسالة : « اذا كان يتحتم علينا ان نقضى الليل هنا ، فلا بأس ، فلنفعل ذلك . هذا كل ما فى الامر » .. ثم وجه كلامه الى نيكيتا قائلا : « انتظر قليلا .. فسوف ارفع راية ! » . والتقط المنديل الذى كان قد حله من حول رقبتة ، وخلع قفازيه ، ثم ارتقى اللوحة الامامية للعربة ، وبسط نفسه على اطراف اصابع قدميه ليدرك حزام الجواد المربوط فى العريش ، وعقد طرفى المنديل عند نهايته .. وفى

الحال بدأ المندبل يخفق بشدة ويصفق في مهب الريح .
 ونزل فاسيلي وهو يتيه زهواً فيما فعله « ويختال قائلاً :
 » أليس هذا ذكاء مني ؟ « .. ثم التفت الى نيكيتا قائلاً له :
 » والآن ، لو امكنا ان ننام معا ، فلسوف يكون ذلك أفضل
 طريقة لاكتساب الدفاء .. ولكنني اخشى ألا يكون ثمة مكان
 لنا معا ! .. فأجابه نيكيتا : « لا بأس في ذلك ، فسأجد
 مكاناً لنفسي .. الا انني يجب ان اغطي الجواد أولاً ، لأنه
 يتصبب عرقاً وقد أخذ منه الجهد .. انتظر قليلاً ! ..
 وولج العربية ، فجذب الفرارة من تحت فاسيلي وطواها ،
 ثم أزاح السرج عن ظهر الجواد ، وغطاه بالفرارة ، وهو يقول
 له : « سوف تكون بذلك أكثر دفئاً أيها الفر الصغير » .. ثم
 اتجه الى فاسيلي قائلاً له : « سأخذ المزر إذا كنت لا تحتاج
 اليه الليلة .. وهات بعض القش كذلك ! »

واذ أخذ ما اراده ذهب خلف العربية ، وحفر حفرة غطاهها
 بالقش ، ثم جذب قلنسوته فوق عينيه ، ولقب بسبترته لها
 محكمًا حول جسمه ، ثم تلفع بالمزر فوق كل ملايسه ،
 واستلقى مقرض القدمين فوق القش ، واستند ظهره الى
 مؤخر العربية محتفياً به من الريح والتلج ..

وهز فاسيلي رأسه في استياء من تصرفات نيكيتا ، ثم راح
 يعد عدته لقضاء الليل . فعمد - أول كل شيء - الى تسوية
 ما تبقى من القش في العربية ، جاعلاً اياه أكثر كثافة وسمكاً
 حيث كان يزعم أن يريح فخذه .. ثم نزع قفازيه ،
 ونام جاعلاً رأسه في أحد أركان العربية « قرب اللوحة الامامية
 لها حتى تحميه من الريح .



الا انه مع ذلك لم يشعر بالنعاس ، ولم يأنس من نفسه أية

قابلية للنوم .. فانطلق يفكر .. اتجه تفكيره - أول ما اتجه - إلى الشيء الوحيد الذى يستحوذ على كل طموحه وفخره ، ومثله الأعلى . - وغرضه الاوحد وسعاده فى الحياة .. وهو جمع المال ! .. فراح يستعرض الوسائل التى يمكن لبعض من يعرفهم من الاغنياء أن يجمعوها بها أموالهم ، والاغراض التى كانوا يستغلون فيها هذه الاموال .. ثم انتقل الى التفكير فى الاساليب التى يمكنه هو أن يحذو فيها حذوهم ، فيجمع قدرا من المال فوق ما جمع .. وبدأ له أن شراء غابة جيوفيا - تشكنسكى (يعتبر أمرا ذا أهمية عظمى ، إذ داعبه الامل فى أن صفقة كهذه قد تدر عليه عشرة آلاف روبل .. وقد راح يحصى - بعملية حسابية أجراها داخل عقله - قيمة الاخشاب التى رآها فى الخريف .. وعلى أساس الخمسة أفدنة التى كان قد عاينها ، راح يحسب قيمة المساحة كلها .. واستطاع - بعد طول الحساب - أن يقدر قيمة الغابة كلها بحوالى اثني عشر ألفا من الروبلات .. إلا أنه عجز عن أن يصل بالذاكرة وحدها الى رقم دقيق .. فاسترسل يقول لنفسه : « لا بأس .. فانتبى لن أقدرها بأكثر من عشرة آلاف - بل ثمانية آلاف - وهذا على أى حال سيكون محلا للمساومة بالنسبة لئىل هذه المساحات غير المحدودة .. ولسوف أفسد فى يد المساح مائة روبل ، أو ربما مائة وخمسين .. وفى مقابل هذا يبغض المقياس عشرة الفئسة على الأقل . نعم . ان المالك سوف يكون سعيدا بان يبيع الغابة بثمانية آلاف روبل .. ومعنى ثلاثة آلاف منها » .

وهنا تحسس حافظة تقوده داخل صندوقه ، ثم غاد يقول فى نفسه : « ولكن أين مالك الغابة ؟ .. لا بد أن يكون لها مالك أو على الأقل حارس .. ولا بد أن يكون مقيما فى جهة ما

من هذه المنطقة .. ولا يد أن كلبه قد سمعنا .. تيبا لهبله
الحيوانات الملعونة ، التي لا تنبح حينما يراد منها أن تفعل
ذلك ! .. وأزاح ياقة سترته عن أذنه وراح ينصت ..
ولكنه لم يسمع سوى أزيز الريح ، وخفق المنديل فوق
العريش ، ووقع الثلج وهو يصفع جوانب العربة .. ففطى
أذنه مرة أخرى ، واسترسل في تفكيره ساخطا لما أصابهما ..
ثم أجاب نفسه مواسيا : « السنا سنبقى هنا الى غد ؟ ..
لا بأس . معنى هذا أننا اضعنا يوما واحدا فحسب . وفضلا
عن ذلك ، فان أولئك المنسافسين لى فى الصفقة ان يصلوا
كذلك .. لن يأتوا فى مثل هذا الجو العاصف ! »

وهنا تذكر فجأة ان الجزار سيبدد له فى التاسع من الشهر
مبلغا من المال هو ثمن الكباش التى سبق أن اشتراها منه ..
فقال فى نفسه : « يجب أن أعود لأقبض هذا المبلغ ، اذ لا ينبغي
أن يغلبنى فى السعر ، فى حين أن زوجتى لا تعرف كيف تساوّم
.. والحقيقة انها لا تعرف كيف تتكلم مع أى شخص ! » ..
وتذكر ارتباكها وهى تحدث المأمور حين زارهم - فى اليوم
السابق - بمناسبة العيد ، فاسترسل فى تفكيره قائلا : « انها
امراة .. هذا كل ما فى الامر بالنسبة اليها . وفوق ذلك ،
فماذا رأت هى قبل أن أتزوجها ؟ .. لقد كان أبوها مزارعا
بسيطا ، وكان كل ما يمتلكه قطعة ارض صغيرة .. اما انا ،
فأى شيء لم أكنه فى خمسة عشر عاما ؟ .. لقد اقتنيت
حائوتا ، وفندقين ، ومطبخا ومخزن غلال ، ومزرعتين
مستأجرتين ، ودارا ذات سقف من الصاج ، ومتجرا فى ذات
مبنى الدار » .. وانتفضت أوداجه تيبها وزهوا ، وهو يقول
لنفسه : « ان البون شاسع بينى وبين أبيها .. وفى الواقع ؟
من هو أهم رجل فى الاقليم كله ؟ .. انه فاسيلى برينخونوف ،
من غير شك ! »

ثم تساءل قائلا : « لماذا ؟ » .. وإجاب نفسه قائلا : « لأننى أحصر كل همى فى العمل ، وأبذل فيه كل مجهودى .. فلبست من أولئك الذين ينامون فى فراشهم ، ويبعدون الوقت فى العبث .. كلا ، فانا لا أنام كل الليل .. وإذا كان هناك ضرورة للخروج ، فأننى برغم كل الظروف أخرج ، وأنجز عملى .. أنهم يعتبروننى مجنوناً ويسخرون من انكبابى على جمع المال .. ولكن لا بأس » .. وأهاب بنفسه فى حماس : « فاسلى ، استمر فى عملك بكل جهدك ، ولو أدى ذلك الى إصابة رأسك بالصداع .. ولو وجدت من اللازم أن تقضى ليلتك فى العراء كما تقضى هذه الليلة ، فهذا أفضل من أن تضيق الوقت .. ولا يهم حتى إذا كنت تعجز عن النوم ! » وهنا قال فى زهو : « ان مجرد التفكير على هذا النحو دليل على العبقرية فى ذاته » .. واستطرد قائلا : « ان بعض الناس يعتقدون أن الثروة تأتى للانسان بطريق الحظ .. هراء ، فليس ثمة الا ميرونوف واحد فى المليون .. وانما عليك أن تعمل باجتهاد ، وسيعطيك الله الباقي بعد ذلك .. وإذا لم يهبك الا الصحة والقوة ، فهذا حسيك ! »

وأثار حماسه مجرد خطوط هذه الفكرة فى باله - أنه قد يفقد يوما ما مليونيرا مثل ميرونوف - حتى أنه ود لو أن ثمة شخصا يبادل له الحديث فى هذه اللحظة .. يبد أنه لم يكن ثمة أحد .. وأثار انتباهه عنف هبوب الريح وهى تلطم اللوحة الامامية للعربة ، وتضعف جدارها بما تحمله من زكام الثلج ، فهتف قائلا : « يا للسماء ، ما أشد هبوبها ! .. انها لتجرف معها كتل الجليد بكمية رهيبة ، حتى ليوشك أن يغمرنا ويغطينا ، ولسوف نعجز عن أن نخبرج أبدا من طوفانه عند الصباح ! »

ولم يكن بوسعه أن يرى شيئا - في الدوامة المحملة بالثلج الأبيض الكثيف - إلا رأس « براونى » وذيله الاسودين ، والفرارة التى كانت تغطى ظهره .. وكانت السريح ترفع أطراف الفرارة الى أعلى - من آن لآخر - بينما تحوم الكتلة البيضاء حول العربة من كل جهاتها « فكانت تبدو - في لحظة خاطفة - ثم لا تلبث أن تختفى في غمرة الظلام .

واسترسل فاسيلى في التفكير قائلا لنفسه : « لقد كنت أحمق إذ استمعت الى نيكيتا .. كان ينبغى علينا ان نواصل السير مرة أخرى ، حتى نتمكن من قضاء ليلتنا في مكان ما .. كان يجب أن نعود الى (جريشكينو) مرة اخرى ، وان نستقر في مكان مسقوف .. ومع ذلك ، فهانحن هنا ، وعلينا ان نظل ملتصقين بهذا المكان حتى الصباح ؟ .. ما الخير في هذا ؟ ان الله يعطى المجتهدين ، ولكنه لا يعطى العابثين ولا الكسالى المقعدين ، ولا الحمقى .. والآن ، لادخن ثانية ! »

وجلس ، وأخرج سيجارة ، واستدار ليحمى شطة عود الثقاب من الرياح بطرف ثوبه .. ومع ذلك ، فقد وجدت الرياح منفذا وراحت تطفىء أمواد الثقاب تباعا . وأخيرا ، بذل كل جهده كي يبقى واحدا منها مشتعلا ، وقد أفلح في أن يشعل منه سيجارته ، ففرح بذلك جدا ، وواصل التدخين .. ومع أن الرياح استنفدت قلزا كبيرا من الدخان ، فقد اجتهد في أن يفوز بثلاثة أنفاس ، ابتهج بها كل الابتهاج ، فاتخذ وضعا مريحا في جلسته ، وحبك ثيابه حول جسمه ، وانطلق مرة أخرى يفكر ويستعرض الأمور ، حتى شعر فجأة - ودون تمهيد أو إنذار - بأنه فقد وعيه ، وراح في عيبوبة تامة .

وبعد برهة ، أحس كأن شيئا صدمه فجأة ، فتنبه وفاق .

من غيبوبته .. لعله ((براونى)) يجلب القش من تحته ..
او قد يكون ذلك أمرا ما ، حدث فى داخله .. المهم انه
استيقظ ، وكان قلبه يخفق خفقانا عنيقا ، وفى سرعة
هائلة ، حتى انه احس ان العربة ذاتها تهتز من تحته ..
ففتح عينيه .. وبدأ له المنظر حوالبه كما كان من قبل ،
فيما عدا انه بان أكثر وضوحا ، وأوفر ضوءا ، فقال فى
نفسه : « لابد انه الفجر .. وبعد قليل سوف ينبج
الصباح » .. ولكنه فطن الى ان ازدياد الضوء قد لا يعنى
الا طلوع القمر ، فنهض مرة أخرى ، ونظر الى الجواد ..
وكان فى هذه اللحظة واقفا ومؤخره فى مهب الريح ، وجسمه
كله ينتفض من البرد ، وقد تراكم الثلج على ظهره ، وأقلت
حزام ذيله متدليا نحو خاصرته .. أما نيكيتا فكان لا يزال
نائما فى ذات الوضع الذى كان قد غطى به رأسه .. وقال
فاسيلى فى نفسه ، وهو يطل عليه من العربة : « ان الفلاح
لا يؤثر فيه الثلج أبدا ، بالرغم من رثائه ملابسه ! »
وفكر لحظة فى أن ينزع الفرارة عن ظهر الجواد ، ويغطى
بها نيكيتا . الا ان الجو كان قارس البرد ، حتى لقد احس
بانه عاجز عن أن يفعل ذلك ، فضلا عن أنه خشى أن يموت
الجواد من البرد لو نزع عنه غطاءه .. وحينئذ قال فى نفسه
حائقا : « لماذا بالله أخذت نيكيتا معي ؟ لقد كان ذلك من
جراء حماقتها .. » وكان يعنى بذلك زوجته . ثم عاد الى
وضعه الاول محتما باللوحه الامامية للعربة .. واسترسل
فى تفكيره قائلا لنفسه : « لقد قضى عمى ليلة كهذه تحت
وابل الثلج ، ومع ذلك لم يصبه أى سوء ! » .. الا انه مالبث
أن خطر بباله خاطر آخر فغمغم قائلا : « لو كنت سيباستيان ،
أخرجوه من الثلج ، ولكنه كان قد مات ، اذ تجمد حتى غدا
كالجيفة من فرط البرد ! » .. وهنا نادت عنه آهة مكبوتة

وقال في ندم موجه : « ماذا لو كنا بقينا في جريشكينو ! »
ثم أحكم لف ردائه حول جسمه ، بحيث لم يدع مجالاً
لاقل قدر من الدفء يذهب هباء .. وأغمض عينيه محاولاً
أن يستغرق في النوم مرة أخرى .. إلا أنه - بالرغم مما بذل
من مجهود في هذا السبيل - أخفق في اجتلاب النعاس الى
عينيه .. وألحت عليه اليقظة أكثر من ذي قبل ، فراح -
مرة أخرى - يجرى في ذهنه إحصاءات وجسابات ، متعلقة
بالعمل ، ويحصر ديونه التي لم يسدها بعد .. ومرة أخرى
راح يشنى على نفسه ، ويزجى الى نفسه التهنئة على ما نال
من مكانة ملحوظة بين الناس .. ومع ذلك ، فقد كان هذا
التفكير ذاته مشوباً بنوع من الخوف الدفين والاسف البالغ
على أنه لم يقض الليلة في (جريشكينو) ..
وراح ينقلب من جنب الى جنب ، عساه يستشعر الراحة
في نومته ، أو يجد وضعا أفضل من سواه وأقل تعرضاً
لهبوب الريح ، إلا أنه عبثاً كل يحاول .. وأخيراً نهض مرة
أخرى ، وغير الوضع كله ، وأحكم لف قدميه ، وأغمض
عينيه ، وحاول أن ينام نوماً مريحاً ، ولكن قدميه - اللتين
كانتا مضغوطتين في حذائيه الطويلين - بدأتا تؤلمانه ، في حين
كانت الريح تتسرب الى بعض أنحاء جسمه ، فتؤذيه اذى
بالغا . فما لبث أن قفزت الى ذهنه مرة أخرى - وقد
تملكه الضيق والحنق - فكرة أنه كان من الممكن في هذه
اللحظة أن يكون نائماً في فراش دافئ في (جريشكينو) ..
فنهض وأعاد حبك ردائه حول جسمه ، ثم استلقى في وضع
آخر بدا له أكثر ملاءمة .. وبعد لحظة خيل إليه أنه يسمع
صوت ديكة تصيح من بعيد ، فازاح ياقة ستروته في احتلاجة
فرح ، وراح يرهف أذنيه . وبالنسبة لمن كل ما بذل من
التجهد في الانصات لم يستطع أن يسمع إلا أثر الريح خلال

عريش العربية ، وبصوت اصطفاك المنديل ، ووقع الثلج على
جوانب العربية ..

أما نيكيتا ، فقد ظل مقرفص القدمين - في ذات الوضع
الذى نام عليه في أول الليل - فلم تصدر عنه حركة واحدة ،
بالرغم من أنه ناداه أكثر من مرة .. فانفعل فاسيلى في
حق ، وقال في نفسه : « يبدو أنه لا يشعر بأى تعب في
نومته » .



وهو جز القول ، أن فاسيلى نهض ثم نام عشرين مرة ، على
الأقل . وقد خيل إليه أن الليل لن ينتهى أبدا .. وفي إحدى
المرات قال في نفسه : « لا بد أننا اقتربنا من الصباح الآن ! ..
فلو أنني تأكدت من أننا نتقرب من الصباح ، لكان هذا ادعى
لأن تبدو الأمور أفضل ، وسوف نستعد عندئذ لاسراج
الجوادر كي نواصل رحلتنا » .. ولكنه - في أعماق نفسه -
كان يدرك أنه لا يمكن أن يكون الصباح قد اقترب بعد ..
وكان حلمه يزداد عنفا ، وأعصابه تشتد اضطرابا ، حتى لقد
راح يخادع نفسه ويصدق أن الفجر على وشك الطلوع ..
وأخيرا انتهى به الأمر إلى أن فك أزرار ثوبه الفرو في حذر ،
ودس يده في داخله ، وراح يتحسس بأصابعه حتى وصلت
إلى جيب صدره . وبكثير من الجهد أمكنه أن يخرج
ساعته القضيبة المنقوش عليها باقة زهور .. ثم حاول أن
ينظر فيها ، ولكنه عجز عن أن يرى أى شيء بغير أن يستعين
بقبس من النور ، فاستلقى مرة أخرى على مرقبيه كما فعل
حين أراد التدخين ، ثم أخرج علبة الثقاب وراح يحاول
أشعال عود منها .. وأذ كان قد تدرّب في المرات السالفة
على هذا الأمر ، فقد أشعل الثقاب قريبا من ميناء الساعة .

وعلى ضوئه نظر فيها ، وكاد الا يصدق عيشه ! .. لقد كانت الساعة الواحدة وعشر دقائق ! وانن فقد كان الليل بطوله امامه !

وشعر كان الصقيع قد تسرب الى ظهره ، فقال وهو يشن من فرط الألم : « آه » ، من ذلك الليل الطويل الذي لا آخر له ! « .. ثم أنزوى في ركن العربة وهو يزور رداءه ويعيد حبكه حول جسمه ، وراح ينتظر بكل ما لديه من صبر وجلد .

وفجأة ، خلال عويل الريح التي كانت تولول وتسوح في نفمة رتيبة ، سمع صوتا جديدا يصدر عن كائن حي ، وقد راح يعلو ثم يعلو حتى بلغ حده الأقصى ، ثم بدأ يخفت شيئا فشيئا حتى انقطع واختفى .. ولم يكن ثمة شك في حقيقة هذا الكائن الذي يصدر عنه الصوت .. كان ذئبا ، ولا بد انه كان قد ابتعد جدا حتى تلاشى صوت عوائه بين طيات الريح .. وأزاح فاسيلي ياقة سترته عن اذنه وراح يرهف السمع .. وكان « براوني » - في ذات الوقت - يفعل مثله ، وقد نصب اذنيه الى آخر مداهما ، فلما انقطع العواء ، بدل اقدمه ، ونخر في توجس وقلق .. أما فاسيلي فقد وجد ان النوم أصبح بعد هذا أكثر استحالة من أي وقت مضى ، وعشا حاول أن يهدئ أعصابه لحظة واحدة .. وكلما حاول أن يعود الى التفكير في أعماله وحساباته وشهرته وعبقريته وماله وثروته ، ازدادت سيطرة الرعب عليه .. وبدأ يحس بالرعدة تسري في بدنه ، وان لم يعلم - على وجه التحقيق - اكان ذلك من البرد ، أم من شدة الخوف .. وقد حاول أن يغطي نفسه وينام كما كان من قبل ، ولكنه وجد ذلك مستحيلا . ولم يستطع ان يبقى ساكنا ولو لحظة واحدة ، وإنما شعر على العكس بأنه يجب

أن ينهض وإن يفعل أى شئ كى يبيد الرعب الذى كان مسيطرا عليه ، وكان يشعر بأنه لم تعد له قوة إزائه ، وقد انهارت تحت وطائه مقاومته ، فأخرج عليه سبائره وعطبه ثقبه مرة أخرى ، إلا أنه لم يكن قد بقى من أعواد الثقاب إلا ثلاثة ، وكان الثلاثة من نوع ردىء .. ومن ثم فإنها لم تشتعل .. فانفجر بسبب ويلص ، وهو يلقى عليه الثقاب بعيدا ، واوشكت عليه السجائر أن تلحق بها ، لولا أنه كبج يده ، وأدخل العلية فى جيبه . ودفعت به نوبة الضجر والتأمل هذه الى أن ينهض من مكانه وينسل من العربة ، ثم يقف معطيا ظهره للريح ، وهو يشد حزامه حول خصره .. ثم بدأ كأنما طرات على ذهنه فكرة جديدة مفاجئة ، فهتف قائلا : « لماذا بالله ننام هاهنا منتظرين الموت حتى يأتى الينا ؟ .. لماذا لا أركب الجواد وانطلق به ؟ »

وخطر نيكتا بباله « فأجفل قليلا ، ثم عاد يقول : « وماذا لو مات ؟ .. ماذا يمكن أن تكون قيمة حياته بالنسبة اليه ؟ .. أنه إن يخسر كثيرا لو أنه فقدها .. أما أنا فإن أمامى الشئ الكثير الذى أكسبه لو اننى احتفظت بحياتى » .

وعلى ذلك حل رباط الجواد وألقى الرسن فوق رقبتة ، وحاول أن يمتطيه . إلا أن رداءه الفرو وحذاءيه أثقلته فاعتلى العربة ، وحاول أن يمتطى الجواد من فوقها ، ولكن العربة ظلت تتأرجح تحت ثقله ، ففشل مرة أخرى . وأخيرا - وللمرة الثالثة - جر الجواد ، وأوقفه بجانب العربة ، واعتلى حافتها فى حذر ، ثم ألقى بنفسه على الجواد ، فإذا هو ممدد على ظهره بالعرض ، ووجهه الى أسفل ، فراح يدير جسمه الى الامام حتى أصبحت ساقه فوق الجواد . وبعد عدة محاولات ، أمكنه أن يجلس على ظهره ، وقد استقر مقدم حذاءيه فى ركاب السرج .. ألا أن اهتزاز

العربة - حين تارجحت تحت ثقل فاسيلى - ايقظ نيكيتا ،
 فنهض من رقدته . وبدأ لفاسيلى انه يقول شيئاً ، فصاح
 فيه قائلاً : « اسمع ايها الاحمق .. لقد كنت أنت السبب
 فى وقوعنا فى هذه الورطة ، بلا داع ولا سبب ! »
 ثم طوى الاطراف المرتخية من سترته تحت ركبتيه ،
 وادار عنان الجواد وابتعد به عن العربة فى الاتجاه الذى
 حدس ان يكون به مسكن مالك الغابة او حارسها .

- ٧ -

♦ ولم يكن نيكيتا الى هذه اللحظة قد صدرت عنه حركة
 واحدة منذ استلقى مقرصاً قدميه خلف العربة وغطى نفسه
 بالئزر .. فانه - ككل الذين يعيشون على صلة مباشرة
 بالطبيعة ، وبالفون شظف العيش - كان صبوراً ، وكان فى
 امكانه ان يجلس الساعات ، بل الايام الطوال ، دون أن يصيبه
 الكلال ، أو يفقد زمام اعصابه .. وقد سمع سيده يناديه
 مرتين ، إلا أنه لم يجبه ، لسبب واحد ، هو أنه لم يشعر بالليل
 الى الحركة ، ولم يجد داعياً لأن يكلف نفسه عناء رفع صوته !
 .. ومع أنه كان عند ابتداء رقادته مكتمل الدفء بفعل
 ما احتساه من اقداح الشاي ، وبفضل المجهود الذى بذله فى
 كفاح اكوام الثلج ، فانه كان يعلم تمام العلم أن هذا أن يستمر
 طويلاً ، وأنه سرعان ما سيفقد قواه ويفقد عاجزاً عن تجديد
 طاقة الدفء لديه بالحركة والنشاط .. إذ كان يشعر فى تلك
 اللحظة شعور الجواد الذى توقف عن السير ، وتملكه
 الاحساس بأنه أصبح عاجزاً كل العجز عن المضي فى السير ولو
 خطوة أخرى ، بالرغم من السياط القاسية التى تنهال عليه
 .. مؤكداً بذلك لسيده أنه ما من عمل آخر يمكن أن ينتظر
 منه ، ما لم يأخذ راحته ويتناول طعامه ..

وفوق ذلك ، كانت احدى قدمى ئيكيتا قد تجمدت ، داخل
 حذاءه البالى ، حتى ان اصبعها الاكبر فقد كل احساس ..
 وغدا جسده كله مثلجا ، وقد راح البرد يتسرب اليه ويزداد
 فسوة عليه .. حتى لقد بدأت تراوده حينئذ فكرة ملحة بأنه
 سيموت فى هذه الليلة . ومع ذلك ، فانه لم يشعر ازاء هذه
 الفكرة بأى انزعاج ، ولا داخله أى خوف : لأن حياته لم تكن
 راحة مستمرة او عيدا متواصلا ، بل كانت - على العكس -
 حياة عبودية دائمة ، وكان قد بدأ يكل ويتعب منها .. ولأنه
 - فوق كل السادة الذين خدمهم فى حياته ، أمثال فاسيلي
 اندريتش - كان على الدوام يشعر بخضوعه للسيد الاعظم
 الذى خلقه وارسله الى هذه الحياة ، وكان يعلم أنه - بعد
 الموت - سيبقى خادما لهذا السيد ، وأن هذا السيد سيكون
 رحيما به عطوفا عليه .. فانطلق يفكر قائلا فى نفسه : « هل
 يساورنى الاسف اذ اترك هذه الحياة التى عرفتها واعتدت
 عليها ؟ .. كلا ، فلا جدوى من الاسف .. وحتى لو كان من
 المحتم ان اذهب ، فلن أملك فرارا من هذا ، والافضل لى أن
 أعد نفسى للحياة الجديدة التى تنتظرنى ! »

واسترسل فى تفكيره ، مستعرضا خطاياه ، متذكرا عيوبه
 فى ساعات سكره ، والمال الذى بدده على الخمر ، واهاناته
 لزوجته ، واغراقه فى الاقسام الكاذبة ، واهماله الذهاب الى
 الكنيسة ، وعدم مراعاته للايام المقدسة .. وغفم قائلا :
 « لقد كانت تلك خطايا من غير شك .. وما كنت لانتكر هذا فى
 يوم من الايام .. ولكن أليس الله هو الذى خلقنى هكذا ؟ ..
 ومع ذلك ، فما الذى سيحدث لى بسبب هذه الايام يا
 قولى ؟ »

وانتقل فجأة من التفكير فيمسا عساه يحدث له فى تلك
 الليلة ، الى التفكير - دون أية مناسبة او تمهيد - فى خليط

من الذكريات التي تزاومت على رأسه في غير رابط أو اتفاق .. فخطرت بباله ذكرى وصول « مارتا » ، ثم صورة العمال وهم يسكرون ، وقصد رفض هو مشايرتهم الشراب .. ثم انتقل به الفكر الى رحلة هذه الليلة ، والى كوخ « تاراس » ، والحديث الذي دار فيه عما يهدد العائلة من فرقة وأنقسام .. ثم تمثل ولده الصغير ، و « براونى » الذى كان ينعم - ولا شك - بالدفع ، تحت الغرارة التى تغطى ظهره .. ثم سيده فاسيلى ، الذى كانت العربية تحدث صريرا تحته وهو يقفز ويستدير .. ثم راح يقول لنفسه : « لقد كان أمامى قدر كبير من الشأى لأشربه فى تلك الدار .. وكنت متعبا ، وما كنت راغبا فى أن أتترك مثل تلك الحياة الطيبة ، لكى أتنى وأموت فى هذه الحفرة .. ومع ذلك فقد أراد هو غير ذلك ! » وقد طافت بمخيلته كل هذه الذكريات فى وقت واحد ، واختلطت فى رأسه ، ثم راح فى غفوة . وأيقظه فاسيلى منها ، حين هز العربية - وهو يحاول امتطاء الجواد - هزا عنيفا حتى لقد استدارت ، وصدمت نيكيتا فى ظهره بأحدى عجلاتها . وبذلك اضطرت كرها لأن يغير وضعه .. فمد قدميه بشئ من الصعوبة ، ونقض عنهما الثلج ، ثم نهض قليلا . وحينئذ شعر بألم شديد فى جسده .. وأذ أدرك - لأول وهلة - ما اعتزم فاسيلى أن يفعله ، رجاه أن يترك له الغرارة التى تغطى ظهر الجواد ، فإن يعود هذا فى حاجة اليها ، فى حين أن فى مكانه هو أن ينتفع بها .. وراح يصيح ملحا على فاسيلى ليعطيه أياها ، إلا أن هذا اختفى تحت وابل الثلج دون أن يكثرث به ! .. فلما وجد نيكيتا أنه أصبح وحيدا ، راح يفكر فيما يحسن به أن يفعله . وشعر بأنه لم تعد لديه القوة الكافية لأن يقوم بأحدا من منزل يقضى فيه ليلته ، فى حين أصبح مستحيلا عليه أن يستعيد المكان الذى كان راقدًا فيه ،

اذ كان الثلج قد غطاه واخفى معالمه .. وحتى لو انتقل الى داخل العربة ، فقد لا تتحسن الحال ، اذ لم يكن لديه الكفاية من الاغطية ، ولم تعد سترته ولا دائرة الفرو كافيين لتدفئته ..

واحس انه يعاني سكرات الموت ، فصاح هاتفا : « يا ابانا الحبيب .. يا ابانا الذى فى السموات ! » .. وشعر فى هذه اللحظة بأنه لم يكن وحيدا ، وانما كان الله معه ، يسمعه ولن يتخلى عنه ، فأحس بالراحة تتسرب الى نفسه ، وزحف الى داخل العربة والمثوز ما يزال مغطيا راسه « واستلقى حيث كان سيده نائما .. الا انه لم يستشعر الدفء فى ذلك المكان ، فراح - فى مبدأ الامر - يرتجف ، ثم ما لبث ان بدأ يفقد وعيه . فاستسلم ، وقد سيطر عليه الاحساس بأنه يموت أو يستغرق فى النوم .. فاعد نفسه لكل من الحالتين !

- ٨ -

♦ كان فاسيلى يستعمل كمبى حذاءيه والطرف الفانض من الرسن ، ليحث الجواد على الاسراع فى الاتجاه الذى حدس - لسبب او لآخر - ان تكون الآفابة وحارسها فيه . وراح الثلج يعمى عينيه ، والريح تهاجمه وكأنها تكافحه وتصد كى توقفه .. الا انه ظل يستحث الجواد ، وهو لا يفتأ ينحنى الى الامام ليطوى أطراف ثوبه ويشيها ، فيما بين ركبتيه والسرّج المجلل بالثلج .. وكان الجواد - بينذاك - يتحرك بمشقة ، ولكنه كان وديعا ، ذلولا بطبعه ، فمضى يبذل كل جهده فى التقدم نحو الاتجاه الذى يقوده اليه سيده . وظل فاسيلى - فترة بدا له أنها خمس دقائق - متجهبا الى الامام ، دون أن يكون فى مقدوره أن يبصر الا رأس الجواد وأذنيه ، وبحرا من الثلج الابيض .. ودون أن يسمع غسير

صغير الريح وهي تمرق بين اذني جواده وجول ياقة ثوبه الفرو .. وما لبث ان لاح شيء اسود امام عينيه فجأة ، فبدأ قلبه يخفق بالامل ، واتجه نحوه ، وقد خيل اليه انه أبصر - فملا - في معاله جدران بيوت تتألف منها قرية .. الا ان ما رآه لم يكن ثابتا امام باظره ، وانما كان دائم الحركة والتأرجح من جانب لآخر .. وما لبث ان تغيرت هياكله ، فاذا به دخل مستطيل من ((الافسنتين)) ، اقلدى نبتت اعواده على حرف اخدود ، وبرزت فوق مستوى الثلج ، والريح تلطمها بعنف فتميلها وتمرق مولولة بينها .

فما تحقق فاسيلي من ذلك حتى تولته رجفة ، وانهاه على الجواد يدفعه ويحثه على العدو ، دون أن يظن الى انه قد حاد عن اتجاهه السابق ، وسار في طريق ينحرف عنه ، وهو يظن أنه ما زال ماضيا فيما يتوهم انه الاتجاه نحو كوخ حارس الغابة .. وعلى الرغم من ان الجواد ظل يحاول ان يحيد الى اليمين ، فانه ما لبث ان اتجه - مرة أخرى - نحو اليسار . وللمرة الثانية ، لاح شيء قائم امام فاسيلي ، فملا قلبه بالفرح ، اذ أحس - في هذه المرة - احساسا محققا ، بان ثمة مزية سوف يصل اليها اخيرا .. الا أنه ما لبث ان اتضح له ان ذلك الشيء لم يكن - هو الآخر - الا حرف اخدود اكتست قمته بالافسنتين ، والريح - كما رأى في المرة السالفة - تولول بين اعواده الجافة ، فامتلا قلبه بالرعب . وكان هذا الدغل من الافسنتين يشبه الدغل الاول في كل شيء ، الا شيئا واحدا .. هو انه كانت ثمة آثار خفيفة على الثلج ، لحوافر جواد بجوار الدغل الثاني .. واسرع فاسيلي فالتحنى الى الامام ، وأمن النظر في تلك الآثار ، فتبين له انها آثار حوافر صغيرة الحجم ، وان رذاذ الثلج الذي يغطيها كان خفيفا جدا .. وباختصار ، كانت آثار جواده ذاته ! ..

واذن فقد آنم في سيره دائرة كاملة !

وغمغم قائلا : « لقد هلك ! » . . ولكى لا يستسلم لفزعه ،
راح - مرة اخرى - يدفع جواده في عنف ، حاثا اياه على
الاسراع ، وهو ما يفتأ - بين لحظة واخرى - يحدق بعينيه
خلال عباب النلج الابيض ، الذى كان يموج امامه . وما لبث
أن خيل اليه انه يبصر بقعا سوداء تلوح له ، حتى اذا أمعن
النظر فيها ، اذا بها تتلاشى وتختفى . . ثم خيل اليه بعد
ذلك انه سمع صوتا حسبه نباح كلب أو عواء ذئب ، الا ان
الصوت كان شديد الخفوت حتى انه لم يستطع ان يتأكد
مما اذا كان حقا قد سمع صوتا ، أو كان ذلك مجرد وهم
منه . فتوقف عن السير ونهف سمعه .

وفجأة ، دوت في اذنيه صرخة غريبة مفزعة ، وخيل اليه
أن كل شيء يضطرب ويرتعد من تحتها . فتشبث بناصية
الجواد ، وأن كان قد وجدها هي الاخرى ترتعد ، في حين
إن الصرخة راحت تردد حدة ونفاذا . . ولبضع لحظات
لم يتسن لفاسيلى أن يكون فكرة عن حقيقة الامر . . كل ما
حدث هو أن الجواد سيطرت عليه فكرة أن يرفع من حالته
المعنوية ، أو أن يصيح في طلب النجدة ، فسهل سهيلا مرتفعا
بصوت الاغص . فما تبين فاسيلى ذلك ، حتى استرد
إنفاسه ، وقال لاهتا : « لقد أفزعنى الجواد ، عليه لعنة
الله ! » . الا انه - برغم ادراكه حقيقة الامر الذى أفزعه -
لم يستطع أن يخلص نفسه مما سيطر عليه من الفزع ، فقال
في نفسه : « يجب أن أفكر بعض الوقت في هدوء وان ادخل
الطمأنينة الى نفسى » . . ولكنه - على الرغم مما بذل من
الجهد - لم يصل الى أى نتيجة ، اذ فشل في السيطرة على
نفسه ، ولم يستطع أن يتوقف عن دفع الجواد دفعا عنيفا ،
بوحته على الاسراع ، غير متنبه الى انه أصبح الآن يسير في

اتجاه الريح ، بعد أن يسير في الاتجاه المضاد لها .. وكان جسده يرتعد وينبض كله بالآلم ، لا سيما نصفه الأسفل الملاصق للسرّج ، حيث كان رداؤه غير محسّسكم .. في حين كانت يده وقدماه ترتجف بعنف . وكانت أنفاسه تخرج في لهات ، وقد شعر الآن شعورا مؤكدا بأنه هالك لا محالة في خضم ذلك الطوفان المخيف من الثلج ، وأنه ما من شيء ينقذه .



وفجأة صدرت عن الجواد أنة عالية ، إذ اصطدم في كومة من الثلج ، ثم ما لبث - وهو يحاول أن يتخلص منها - أن غاص حتى خاصرته في لجتها .. فقفز فاسيلى من فوقه ، وأزاح - وهو يفعل ذلك - حلقات الركاب التي كانت قدماه متشبثين بها ، والسرّج الذي كان جالسا عليه ، فما استقر على الأرض حتى بادر الجواد الى تصحيح الاتجاه لنفسه ، وغطس في كومة الثلج غطسة ، ثم أخرى ، ثم اختفى وهو يصهل صهيلا مرتفعا ، وقد جر خلفه الفرارة وعدة السرّج ، وترك فاسيلى واقفا تحت وابل الثلج .. فما رآه هذا يبتعد عنه ، حتى أسرع خلفه يحاول أن يمسك به ، إلا أن الثلج كان شديد العنق ، في حين كان ثوبه القرو ثقيلًا جدا . ومن ثم فقد راحت قدماه تغوصان حتى ركبتيه . فما تقدم عشرين خطوة ، حتى كانت أنفاسه قد تقطعت ، ولم يجسد بدا من أن يتوقف عن السير .

وحينئذ راح يفكر في نفسه قائلا : « أخشابى ، وكباشى التي أعدها للجزار ، والأرض التي أوّجرها ، والحانوت ، والفندق ، والدار ذات السطح الحديدى ، والمستودع .. هل أترك هذا كله ؟ .. وولدى الصغير هل أتركه ؟ .. هل

ينتهى بى الامر هكذا ؟ كلا ، كلا .. لا يمكن ان يكون هذا !
ولامر ما ، تراءت امامه - فى تلك اللحظة - صورة دغل
« الافستين » ، وهو يميل تحت وطأة الريح . ولاحظت فى
مخيلته صورته هو ذاته ، وهو يسير نحو ذلك الدغل
مرتين .. وقد سيطر عليه خوف عظيم ، حتى لقد وجد
مشقة عظيمة فى ان يصدق ما حدث . وراح يقول لنفسه :
« لا بد ان يكون كل هذا حلم ! » .. واذا استقر فى ذهنه
هذا الوهم ، حاول ان يفيق من حلمه المزعوم .. الا انه لم
يقدر له ان يفيق .. فقد كان تلج حقيقى ذلك الذى راح
يصنع وجهه ، ويتراكم على كل جسده ، ويجعل يده - التى
فقد قفازها - ترتعد .. وقد كان قفر حقيقى ذلك الذى
ألغى نفسه فيه وحيدا ، والذى كان عليه ان ينتظر فيه موتا
سريعا لا نجاة له منه .. فصرخ قائلا : « يا ملكة السماء ! ..
يا ابانا القديس نيكولا ، يامن علمتنا الصبر والاحتمال ! » ..
ثم طافت بمخيلته صورة باهتة لصلاة الشكر التى اقيمت
بالأمس ، ولايقونة القديس بوجهه الأسمر وثوبه الذهبى ،
وللشموع التى اشتراها وأوقدها امام الأيقونة لحظة ، ثم
استردها واحتفظ بها ..

وراح يتضرع الى القديس صانع العجايب ان ينقله من
مصره الرهيب ، واعدا اياه فى مقابل ذلك بأن يرفع اليه
صلاة شكر وان يوقد امام أيقونته عددا كبيرا من الشموع ..
ومع ذلك فقد كان الشك يمزق قلبه ، موقنا ان هذا
القديس بوجهه الأسمر ، وثوبه الذهبى ، والشموع
القضاء ، وصلوات الشكر الرفوعة ، والكاهن الذى يقف فى
الهيكل ، برغم ما كان لهم فى الكنيسة من مقام عظيم ومكانة
مرموقة ، الا أنهم لم يكونوا يملكون - فى هذا القصر - ان
يصنعوا من أجله شيئا .. وأحس - فى هذه اللحظة - بأنه

لا ارتباط على الإطلاق بين الشموخ وصلوات الشكر ، وبين ما هو فيه من محنة قاسية .. ومع ذلك فقد راح يغمغم قائلا في نفسه : « كلا ، لا ينبغي أن أياس أبدا .. وما على إلا أن أتبع آثار الجواد قبل أن يغطيها الثلج ويمحو معالمها ، ولا بد أنها ستقودني الى مكان ما » .. ولم يسعه إلا الاسراع بدرجة تقترب من الجري ، وهو لا يقتسأ بتبين آثار حوافر الجواد بين اكوام الثلج ، فعرض - آخر الأمر - على شفته وهو يشن قائلا : « لقد ضعت ! »

وما كاد يتم قوله هذا ، حتى وقع بصره على شيء قائم امامه .. وكان هذا الشيء هو « براونى » ! .. ولم يكن « براونى » وحده ، بل كذلك عريش العربية ، والمندبل كذلك .. فقد كان الجواد واقفا بجوار العربية ، وسرجه ما زال متدليا تحت خصره .. الا أنه كان - فى هذه المرة - فى وضع يختلف عن وضعه السابق ، اذ كان واقفا تحت العريش مباشرة ، ورأسه - الذى كان لا يفتأ يهره بين لحظة وأخرى - مشدود نحو الأرض تحت وطأة الرسن الذى التف حول رسغه .. وتبين فاسيلى أنه غاص فى ذات الخندق الذى كان يرقد فيه نيكيتا ، وإن الجواد كان يتجه به نحو موضع العربية ، وأنه - فى اللحظة التى قفز فيها من فوقه - كان على خمسين خطوة فقط منها !

- ٩ -

• تقدم فاسيلى نحو العربية ، واستند اليها ، ثم وقف طويلا دون حراك ، وهو يحاول أن يدخل السكينة الى نفسه ، ويسترد انفعابه . ولم يكن ثمة ما يمكن رؤيته من « نيكيتا » ، فى موضعه الأول الذى كان فيه . على أنه كان ثمة شيء مملد فى داخل العربية ، يغمره الثلج . وقد حدس

فاسيلى ان هذا هو خادمه ، فزال المخاوف منه ، وان ظل
الفرع كامنا فى قلبه من عودة المحنة المربعة التى قاساها وهو
على ظهر الجواد ، لاسيما حين ألقى نفسه وحيدا فى ذلك
البلقع الذى تتلاطم فيه أمواج الثلج . وفكر فى نفسه قائلا
ان هذا الفرع لا ينبغي أن يعود مهما يكلفه الأمر . ومن أجل
ذلك ، كان عليه ان يشغل أفكاره بأى شيء .. فنصب قامته
معطيا ظهره للريح . وفك أزرار ثوبه القرو ، حتى اذا هذا
وانتظمت أنفاسه بعض الشيء ، راح ينفذ الثلج عن حذاءيه
ومن قفاز يده اليسرى ، اذ كان قفاز اليمين قد ضاع ..
وشد حزامه على خاصرته شدا وثيقا .. ثم راح - بعد
ذلك - يحاول أن يشغل نفسه فى شيء ما . وكان أول ما
خطر بباله ان يفعله ، هو ان يطلق قدم الجواد من الرسن
المعلق بها . حتى اذا أنتهى من ذلك ، ربط الجواد فى حرف
اللوحة الأمامية للعربة ، حيث كان مربوطا من قبل . واذا
استدار ليسوى حزام الذيل ، ويضبط وضع الفرازة
والسرج على ظهره ، أبصر شيئا ما يتحرك فى العربة ، ثم
وقعت عينه على رأس نيكيتا تبرز من تحت الثلج الذى كان
يفطيه . وكان يحاول - وقد تجمد من الصقيع - ان ينهض
قليلا ، وقد اتى بإشارة غريبة بيده ، ملوحا بها أمام وجهه
كأنما يهش ذبابة .. واذا فعل ذلك بدا لفاسيلى انه يقول
شيئا .. وخيل اليه انه ينطق باسم « فاسيلى » ، فترك
الفرازة غير معتدلة ، واقترب من العربة ، وسأله قائلا :
« كيف حالك الآن ؟ .. ماذا تحاول ان تقول ؟ » . فأجاب
نيكيتا بصعوبة وهو يلهث ، قائلا بكلمات متقطعة : « فقط
أتى .. أتى أموت .. أعط أجرتى للصبي ، أى للزوجة ..
سيان ! » .. فسأله فاسيلى قائلا : « انت اذن تجمدت من
البرد ؟ » . فأجابه نيكيتا بصوت مختنق : « نعم .. وتنا

أموت .. أنا أعلم ذلك ! » . وصمت قليلا ، ثم استرسل قائلا وهو ما يزال يلوح بيده أمام وجهه كأنما يهش ذبابة :
« سامحني من أجل المسيح ! »

وعندئذ وقف فاسيلي نحو نصف دقيقة دون أن يبدي حركة أو ينطق حرفا ، ثم تحفز فجأة ، وب نفس الأسلوب الحاسم - الذي اعتاد أن يتبعه حين كان يضع يده على صفيحة مكسبة - خطا خطوة الى الخلف ، وثنى أكمام رداءه ، وراح يجرف الثلج بكتفي يديه من فوق نيكيتا ومن داخل العربة . حتى اذا انتهى من ذلك ، فك حزامه ، وفتح ثوبه الفرو . ثم سحب نيكيتا - جاعلا أياه في وضعية مستقيم - وتمدد فوقه بحيث غطاه تماما ، لا بشويه فحسب ، وإنما بذات جسده الدائم الحار .. وقد حسر أطراف رداءه - بين جسد نيكيتا وجدار العربة - وشد ذيل سترته بين كاحليه ، وظل هكلذا منبطحا ، ورأسه مسندا الى اللوحة الامامية للعربة ، واذا به مغلقتين لا تسمعان حركات الجواد ولا ولولة الريح ، اذ وضع كل انتباهه في الانصات الى تنفس نيكيتا .. وقد ظل نيكيتا مدة طويلة ، لا تصدر عنه اى حركة ولا نامة . ثم ندت عنه انة عميقة ، وتحرك حركة واهنة . فقال له فاسيلي : « هانت حى ، فكيف تتكلم - مع ذلك - عن الموت ؟ . ما عليك الا أن تنام فى هدوء ، وأن تدفأ شيئا فشيئا . ونحن .. »

الا انه لدهشته العظمى ، وجد نفسه عاجزا عن أن يقول أكثر من ذلك ، وقد راحت الدموع تهطل من عينيه ، وفكه الأسفل يرتعد .. فتوقف لحظة ، وازدرد قطعة من الثلج انحسرت فى فمه ، وفكر فى نفسه قائلا : « لقد استضعفت واضطربت أعصابى بدرجة سخيفة ! » . الا انه - مع ذلك - لم يستشعر فى هذا الضعف اى ألم ، بل - على

العكس - شعر بسعادة لم يشعر بمثلها على الإطلاق من قبل .. فقال لنفسه ، وقد سيطر عليه انفعال عنيف : « نعم . سوف تدبر الأمر على أحسن وجه ! » .. ثم استلقى - بعد ذلك - وقتاً طويلاً فى سكون ، وهو لا يفعل شيئاً الا أن يمسح عينيه فى فراء ثوبه ويثنى طرف كفه الأيمن الذى كانت الريح تطيح به بين لحظة وأخرى . الا أنه شهر أخيراً بأنه بحاجة الى من يشاركه فى فرجه ، فسادى خادمه الراقد تحته قائلاً : « نيكيتا ! » .. فجاءه الصوت من تحته مخمفماً : « ائنى الآن أحسن .. لقد تدفأت ! » .. فأجابته قائلاً : « نيكيتا ، يا صديقى ، لابد أنك تجمدت من البرد . وانا .. ! »

ومرة أخرى ، راحت وجنتا فاسيلي تختلجان ، وامتلأت عيناه بالدموع ، حتى عجز عن أن يقول شيئاً آخر .. ففكر قائلاً فى نفسه : « كلا ، ان الأمر فى غاية السوء .. برغم أنى أعلم ما أعلم .. » . ثم بقى ساكناً .. وظل راقداً هناك . وبدأ له أن الدفء ينتقل اليه من نيكيتا الراقد تحته ، ومن ثوب الفراء الذى فوقه .. الا أن يديه - اللتين كان ممسكاً بهما أطراف ثوبه ، وهو يطويه حول نيكيتا ، وقدميه اللتين - كانتا معرضتين لهبوب الريح ، فبدأ يشعر بهما مثلجتين ، بل ان يده اليمنى - التى كانت بغير قفاز - أصبحت مخدرة .. ومع ذلك ، فإنه لم يفكر قط فى يديه أو قدميه ، وإنما انحصر كل تفكيره فى الكيفية التى يبعث بها الدفء فى جسد الخادم الذى كان نائماً تحته .



وأدار عينيه أكثر من مرة ناحية الجواد ، وأبصره وقد انكشف ظهره ، اذ كانت الفرارة قد سقطت عنه ، واستقرت

فوق الثلج .. وشعر أن من الواجب عليه أن يقوم ويعيد وضع الفرارة فوقه ، إلا أنه لم يشأ أن يترك نيكيتا لحظة واحدة ، فيفقد بذلك شعور الفرح العجيب الذى كان مسيطرا في هذه اللحظة عليه .. أما مخاوفه ، فقد ذهبت كلها عنه . وحينئذ قال لنفسه مزهوا بالجهد الذى يبذله لتدفئة نيكيتا : « وحق السماء ، لن أغلب على امرى ! » .. قال ذلك بذات نفمة الخلاء التى اعتاد أن يتكلم بها عن صفقاته ، ومبيعاته ومشترواته .

وظل راقدا هكذا ساعة ، ثم ثانية ، ثم ثالثة .. إلا أنه لم يشعر بمرور الوقت . وتراقصت - في مبدأ الامر - أمام بصره صور غامضة للعاصفة ، ولعريش العربة ، وللجواد تحت سرجه المرتفع .. ثم تلاشت هذه الصور ، وحلت محلها ذكريات - مختلطة بعضها بالبعث الآخر - عن العيد ، وزوجته ، والمأمور ، وصندوق الشموع . ولكنه تمثل - تحت صندوق الشموع - نيكيتا راقدا !

وما لبث أن تعاقبت أمامه صور الفلاحين وهم يتعاملون معه ، والجدران البيضاء لمنزله ذى الأسقف الحديدية .. ومرة أخرى ، تمثل تحت صورة هذه الجدران نيكيتا راقدا .. ثم اختلط كل شيء ، وتداخل كل شيء في غيره من الأشياء ، حتى بدت الصور أمام ناظره كالوان قوس قزح ، وقد غاص في لجة من النور الأبيض .. ثم استشرق فاسيل في النوم .. ونام وقتا طويلا بغير أحلام ، إلا أنه - قبل الفجر - لاحظ له بعض رؤى النوم ، قتمثل نفسه واقفا عند صندوق الشموع . وكانت الأم « تيخونونا » تطلب منه شمعة بخمسة كوبيكات لتوقدها في العيد ، فحاول أن يأخذ الشمعة من الصندوق ويعطيها إياها ، إلا أن يديه ظلتا ملتصقتين في جيبي سترته ..

ثم حاول أن يسير الى الناحية الأخرى من الصندوق ،
الا أن قلبه رفضتا أى حركة .. وفجأة ، لم يعد الصندوق
صندوقا على الإطلاق ، وانما انقلب الى فراش .. وفوق
ذلك الفراش ، رأى فاسيلى نفسه راقدًا ووجهه الى
أسفل . وخيل اليه أن ذلك الفراش هو فراشه الذى
بالمثل ، وأنه راقد عليه ، وليس يوسعه أن ينهض .. مع
أنه كان يشعر بضرورة ذلك ، إذ أن الأمور « ايفان
ماتفيتش » ، كان آتيا ليقابله ، كما كان عليه أن يذهب مع
ايفان لشراء بعض الأخشاب ، أو لأمر آخر لا يدري ما هو ..
وقد ظل يسأل زوجته قائلا : « ألم يأت بعد ،
يا ميكولوفنا ؟ » .. وظلت هى تجيبه : « كلا . لما يأت
بعد ! » . ثم أمكنه أن يسمع صوت عربة بالخارج .. فلا شك
أنه هو .. ولكن العربة مرت ولم تقف .. فسأل زوجته مرة
أخرى ، قائلا : « ألم يأت بعد ؟ » . ومرة أخرى ، أجابته
قائلة : « كلا . لم يأت بعد ! »

وهكذا ظل نائما على الفراش ، غير قادر على النهوض ،
وظل ينتظر وينتظر .. وكان الانتظار - فى ذات الوقت -
مؤلما ومفرحا ..

وفجأة ، بلغ ماقيه من الفرح ذروته : فقد جاء من كان
ينتظره .. ولكنه لم يكن ايفان ماتفيتش ، ولم يكن أى
شخص آخر .. ومع ذلك فقد كان هو الذى ينتظره ..
وقد دخل ذلك الرجل ، وناداه .. واهاب به - مرة
أخرى - أن يذهب ويرقد فوق نيكيتا .. وكان فاسيلى
مسرورا بأن هذا الرجل قد جاء ، فصاح فى غمرة فرحه :
« نعم . سأذهب ! » .. الا أن هذه الصيحة أيقظته .
نعم . لقد استيقظ .. الا أنه استيقظ رجلا مختلفا كل
الاختلاف عن ذلك الذى كانه حين استغرق فى النوم ..

وقد حاول أن ينهض فلم يستطيع .. حاول أن يحرك يده ، فلم يستطع .. حاول أن يحرك قدمه ، فلم يستطع .. ثم حاول أن يدير رأسه ، إلا أنه عجز عن هذا أيضا .. وقد أثار ذلك دهشته ، ولكنه لم يسبب له أى انزعاج أو اضطراب .. وفى هذه اللحظة ، تذكر أن نيكيتا يرقد تحته ، وأن نيكيتا يرداد دفئا ، وأنه يعود الى الحياة .. وقد خيل اليه أنه هو نيكيتا ، وأن نيكيتا هو ، وأن حياته لم تعد فى داخله ، وإنما فى داخل نيكيتا .. وقد أرهف أذنيه حتى أمكنه أن يسمع صوت تنفس .. نعم . كان ذلك هو التنفس الواهن العميق الذى يصدر عن نيكيتا . فصاح فى نفسه فى انتصار : « نيكيتا حى .. وكذلك أنا حى ! » .. ثم بدأ يفكر فى أمواله ، ومتجره ، ومنزله ، ومبعضاته ومشترواته ، وملايين ميرونوف .. ثم لم يستطع أن يفهم كيف أن ذلك الرجل - الذى يسميه الناس قاسيلى بريخونوف - يجد سروره فى مثل هذه الأشياء .. وراح يقول فى نفسه : « أن هذا الرجل الذى يدعى قاسيلى بريخونوف لا يمكن أن يكون قد عرف ما هو أعظم الأشياء على الإطلاق .. لا يمكن أن يكون قد عرف ما أعرفه أنا .. نعم ، اننى أعرف ذلك معرفة أكيدة الآن .. أخيرا ، أنا أعرف !! »

ومرة أخرى ، سمع الرجل يناديه .. ذات الرجل الذى كان يناديه من قبل .. وكان كيانه كله غارقا فى السعادة وحنان الحب ، حين أجاب قائلا : « أنا آت ، أنا آت » .. وقد شعر حينئذ أنه - أخيرا - أصبح طليقا ، وأنه ما من شئ يمكنه أن يقيد بعد ذلك . وبالفعل ، كان شيئا آخر غير هذا لم يره أو يسمعه أو يحبه قاسيلى أندريتش فى هذا العالم .

وكانت العاصفة تدوى من حوله ، ودوامات الثلج تدور في طبقات الأماصير وتغطي أردية فاسيلي أندريتش ، الذى كان قد أصبح جثة هامدة ، والجواد الذى كان يرتجف ، والعربة التى كان قد اختفى معظمها الآن . . وقد تمدد في داخلها نيكيتا وقد ارتدت إليه الحياة ، وهو مستلق تحت جثة سيده ، الذى كان قد مات !

- ١٠ -

• استيقظ نيكيتا قبيل بزوغ الفجر ، وكان السدى أيقظه هو الصقيع الذى تسرب تحت ظهره . . وكان يحلم بأنه خارج من الطاحونة بحمل من الدقيق يخص سيده ، وبدلاً من أن يتخذ طريق الجسر المار فوق التربة ، خاض الماء خوضاً . . وفي القاع ، التصقت قدماء التصاقاً شديداً ، فلم يتمكن من نقلهما خطوة واحدة . والفى نفسه - وقد ناء بحمله - وهو يحاول أن يرفعه ، ويجتهد في أن ينصب ظهره . . إلا أن الحمل مع ذلك لم يتحرك - لدهشته - وإنما لصق بظهره ، فلم يستطع أن يحركه أو ينسحب من تحته . . وشعر أنه يوشك أن يكسر حقويه ، وأنه شديد البرودة ، حتى لقد أثلج ظهره . . وراح يفكر في أنه ينبغي بأى ثمن أن يخرج من تحته . ووجد نفسه يصرخ قائلاً : « قف مكانك ! » ، للشخص الذى كان يتسبب في أن يكسر الحمل ظهره . ومع ذلك ، فقد ظل الحمل يرداد برودة أكثر فأكثر . . وفجأة ، سمع شيئاً ما يفرقع فرقة عالية ، فاستيقظ يقظة تامة وتذكر ما حدث . . كان ذلك الحمل المثلج هو سيده الميت المتجمد من البرد . . وتلك الفرقة العالية ، كان سببها « براونى » ، وقد راح يضرب جوافره في العربة !

وصاح نيكيتا مناديا سيده : « اندريتش .. اندريتش ! »
وان كان قد أدرك الحقيقة بالفعل نصف ادراك . وراح
يحاول أن يرفع ظهره بمشقة .. الا أن اندريتش لم يجر
جوابا ، وقد كان جسده باردا ومتصلبا وثقيلا كالحديد ..
ففكر نيكيتا في نفسه قائلا : « لاشك أنه مات ! » . وادار
رأسه ، ونزاح الثلج عن وجهه ، وفتح عينيه .. وكان الضوء
قد غدا ساطعا ، والريح لاتزال تدوى بين ذراعى عرش
العربة ، ووابل الثلج يتساقط كما كان .. الا أنه لم يعد
يلطم جنبات العربة ، وانما راح ينزلق في سكون فوقها وفوق
الجواد . وكان الأخير متجمدا ، ولم يعد يسمع منه حتى
صوت تنفسه .. ففكر نيكيتا في نفسه مرة أخرى قائلا :
« لا بد أن براونى تجمد هو الآخر ! » .. ولاشك أن تلكما
الخبطين العاليتين على العربة ، اللتين ايقظتاه ، كانتا
آخر جهد بذله الجواد - الذى اصبح الآن ميتا متجمدا -
كى يظل واقفا على قدميه .

وحينئذ هتف نيكيتا قائلا : « يا الهى ، يا ابانا الحبيب
الذى فى السموات ، لا بد انك ستدعونى انا أيضا .. فان
كان كذلك ، فلتكن مشيئتك ، فلسوف يكون قاسيا أن
يؤخذ اثنان منا ، وان يترك الثالث .. فليات الموت حين
يشاء ! » . وسحب يده مرة أخرى ، واغلق عينيه واستفرق
فى النوم ، مقتنعا تمام الاقتناع بأنه - فى هذه المرة - قد
مات حقا !



وحوالى الظهر فى اليوم التالى ٥ جاء بعض الفلاحين
وحفروا فى الثلج ، ليخرجوا فاسيلى ونيكيتا ، على بعد
سبعين ياردة فقط من الطريق ، وعلى مسيرة فرسخ من

القرية .. وكان الثلج قد تراكم فوق العربة حتى غطاها تماما ، الا أن العريش - ومن فوقه المنديل - ظلا ظاهرين .. أما « براونى » - وكان قد دفن الى خاصرته فى الثلج - فقد بدا ككتلة متجمدة ، وفمه - من أثر الموت - مزموم بشدة ، ورقبته متصلبة ، وخياشيمه مجللة بقطع الجليد ، وعيناه مفلقتان بالثلج ، وقد هطل منهما ذوبه كأنه الدموع المتجمدة .. وقد ضمر ضمورا مروعا فى تلك الليلة الواحدة ، حتى لم يبق منه غير جلد وعظام .

أما فاسيلى فقد كان كذلك متيبسا كجيفة جافة . وحينما مسحوه من قدميه تدرجت جثته من فوق نيكيتا ، ككتلة صلبة .. وكانت عيناه جاحظتين ، وفمه المفتوح قليلا تحت شاربه المتهدل ، كان ممثلا بالثلج .

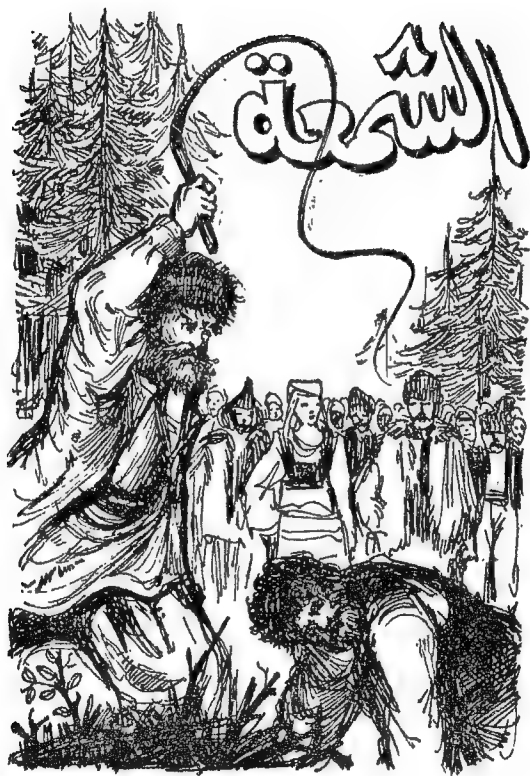
ولم يوجد حيا غير نيكيتا ، وإن كان قد تجمد - بفعل الصقيع - من راسه الى قدميه .. إلا أنه ، حينما استرد وعيه ، لم يقتنع بأنه لم يموت ، وإن كل ما كان يحدث له ، لم يكن فى العالم الآخر .. وكان شعوره الأول - حين سمع صياح الفلاحين فوقه - وهم يحفرون لإخراج العربة ، ثم أنما يصدر عنهم فى العالم الآخر ، وإن كانوا يصيحون فى هذا العالم ، ولهم أجساد هذه الدنيا !

فلما أدرك أخيرا أنه فى هذا العالم حقا ، شعر بالكدر أكثر مما شعر بالسرور ، لاسيما إذ أحس بأن أصابع يديه كلتيهما متجمدة .

وقد ظل راقدا فى المستشفى زهاء شهرين ، حيث وجدوا أنه لا بد من بتر ثلاثة من أصابعه .. إلا أن باقى الأصابع شفيت ، فأمكنه أن يواصل العمل ثانية ، وإن يعيش عشرين سنة أخرى .. واشتغل - فى مبدأ الأمر - عاملا ، حتى إذا

تقدم في السن ، عمل خفيرا .. ولم يمت الا هذا العام ،
وقد مات في بيته ، تحت ايقونات القديسين ، وشمعة
مضاءة في يده ، كما كان على الدوام يتمنى .. وقبل موته ،
ودع زوجته العجوز ، وغفر لها علاقتها بصانع البراميل ..
كما ودع ولده وأحفاده .. ومات سعيدا أعظم سعادة ، اذ
كان يعتقد أن موته سيوفر على ولده وزوجة ولده أحد
الافواه التي تلتهم الطعام ، وانه في هذه المرة سينتقل حقا
من تلك الحياة الشاقة التي ما فتئت متاعبها تزداد على
كاهله يوما بعد يوم ، الى الحياة الأخرى التي كان يتضاعف
افراؤها له في كل عام من الأعوام ، بل في كل ساعة من
الساعات .

اتراه الآن في حال احسن أم أسوأ ، بعد انتقاله الى
العالم الآخر ؟ .. وهل كان ياترى مخدوما ، أم انه وجد
حقا ما كان يتوقعه ويتوق اليه ؟
لن نلبث أن نعرف ذلك جميعا !



« لقد سمعتم كيف قيل عين بعين وسن بسن .
اما انا فاقول لكم لا تصنعوا الشر » .

♦ حدث هذا في عهد السادة ، قبل تحرير العبيد عام ١٨٦١ . فقد كان ثمة أنواع مختلفة من السادة : منهم أولئك الذين يتذكرون الله وساعة الموت ، فيبدون الرحمة لعبيدهم . . ومنهم آخرون تحجرت قلوبهم ، فهم لا يتذكرون شيئا . وكان أسوأ هذا النوع أولئك الذين كانوا هم أنفسهم عبيدا . وهم رجال ارتفعوا من الوحل كي يشاطروا الأمراء عيشهم . فكانت الحياة تحت رحمتهم أبشع أنواع الحياة !

وكان من هؤلاء ذلك الناظر الذي عين في ضيعة شاسعة ، كان فلاحوها يعملون بنظام « البارشيئا » وهو نظام يعمل الفلاحون بمقتضاه في الأرض بضمة أيام في الاسبوع بغير أجر . وكانت الضيعة متسعة ، وبديعة ، تشتمل على مروج وغابات وعيون ماء فياضة . وكانت السعادة تشتمل المالك والفلاحين على السواء ، حتى حدث أن عين المالك ذلك العبد من عبيد أسرته المقيمة في اقليم آخر ، تأظرا لهذه الضيعة .

وقد اتخذ هذا الناظر لنفسه مكتبا ، وبدأ يضغط على الفلاحين ضغطا شديدا . وكان ذا أسرة تتكون من زوجة وبنتين متزوجتين ، وقد تكالب على جمع المال بكل وسيلة صالحة أو شريفة ، لأنه كان طموح النفس وأحمقها في ذات الوقت . وقد بدأ يقصر الفلاحين على زيادة الايام التي لم يكونوا يتناولون أجرهم فيها ، حسب نظام « البارشيئا » . ولما كان قد شرع في اقامة مصنع طوب ، فقد أجبر الفلاحين على العمل - رجالهم ونساءهم - الى حد الموت ، حتى

يستكثر من الطوب ويجمع المال من بيعه . وقد ذهب بعض الفلاحين الى موسكو ليقدموا شكواهم للمالك الضيعة ، الا ان مساعدهم لم يجد نفعا . فقد اعادهم المالك صفر اليدين ، ولم يفصل اى شىء ليكبح جماح الناظر . وما ان سمع الناظر ان الفلاحين اشتكوا ، حتى شرع ينتقم منهم ، بان جعل نصيبهم من العمل اليومى اكثر من ذى قبل ، فضلا عن ان بعضهم كانوا نمامين ، فراحوا يدسون بعضهم لبعض الآخر عند الناظر ، ويحكى بعضهم الحكايات عن بعض ، فكانت النتيجة ان ازداد الناظر عليهم تجبرا وعتوا .

وما فتئ الحال يزداد سوءا ، حتى اصبح الناظر - فى نهاية الامر - مخلوقا متوحشا ، شرسا ، مرهوب الجانب من الفلاحين . فابنما ذهب خلال القرية ، كان كل انسان يهرب من طريقه كما يهرب من ذئب مفترس ، ويجتهد بكل ثمن ان يتجنب وقوع عينه عليه . وكان الناظر يتميز غيظا ، ويحتمد هياجا اذ يراهم يخافونه هكذا . وكان يستخر الفلاحين فى العمل ، ويجلدهم . وكم من واحد منهم اتيجست جروحه تحت وقع سياطه . على ان يأس الفلاحين لم يلبث ان بلغ مبلغه ، فاشتد سخطهم على هذه الافعال الدنيئة ، وبدأوا يتكلمون فيما بينهم . وكانوا يجتمعون معا فى بقعة منعزلة ، ويقول واحد من اشدهم جراءة : « حتى متى تصبر على هذا الحيوان المتوحش الذى يحكمنا ؟ الا فلنخمد انفاسه للأبد . . ليست خطيئة ولا جرم ان نقتل رجلا كهذا ! »



وذاث مرة ، صدر الامر للفلاحين بان ينظفوا الغابة من اوراق الشجر المتساقطة . وكان ذلك قبيل ابتداء الاسبوع

المقدس . فلما اجتمعوا معا - عند منتصف النهار -
 ليتناولوا غداءهم ، بدأوا يتكلمون مرة أخرى . وقال قائلهم :
 « كيف نصبر على هذه الحال ، وهذا الرجل يقودنا الى
 الهلاك ؟ . . انه يقسرنا على العمل الى ساعة متأخرة ، حتى لم
 يعد يتسنى لنا ولا لزوجاتنا الحصول على لحظة راحة أثناء
 النهار أو الليل . واذا نحن لم نفعل شيئا لمثله فسيزداد
 تجبرا ويضربنا . . وها هو ذا سيفون قدمات من ضربه
 بالسياط ، « وانيسيم » يكابد الآلام المبرحة في المخزن .
 فماذا ننتظر بعد ذلك ؟ . . ان هلكا الحيوان سيأتي هسنا
 الليلة ، وكل ما يلزمنا ان ننتزعه عن جواده ، ونضربه بالفأس
 على راسه ، فينتهي بذلك كل شيء . . ولناخذ الجثة بعد
 ذلك الى مكان ما ، فنقطعها ، ونلقى باطرافها في الماء . .
 الشيء الوحيد الذي نحتاج اليه الآن ، هو ان تجمع على
 الأمر وتكون بنا واحدة ، فلا ينبغي ان تكون هناك خيانة
 بيننا ! »

وكان « فاسيلي ميناييف » - على الخصوص - ملحا في
 ذلك مصمما عليه ، بسبب ضغينة بينه وبين الناظر . . فان
 هذا الأخير لم يكن يجلد كل أسبوع فحسب ، وانما كان
 يقسر زوجته كذلك على ان تكون طبخة له .
 وهكذا راح الفلاحون يتحدثون فيما بينهم . وفي المساء
 وصل الناظر ، فما ترجل عن جواده حتى احتدم غضبا
 وهياجا ، فان العمل لم يعجبه . فضلا عن انه اكتشف
 غصنا مدسوسا في حزمة من حزم الحطب . فوجه القول
 الى الفلاحين قائلا : « ألم أقل لكم ألا تقطعوا أشجار
 الزيزفون ؟ . . فمن فيكم فعل هذا ؟ . . قولوا لي ، والا فانتى
 سأجلدكم جميعا ! » . . وكرر سؤاله عن كان في حزمته
 قرع الزيزفون ، فأشاروا الى « سيدور » . فلما كان من

الناظر الا ان ضربه بالسوط على وجهه . حتى انبجس الدم منه . وضرب فاسيلي كذلك بسوطه ، لان كومتة كانت صغيرة جدا . وعاد بجواده مرة اخرى .

وفى ذلك المساء تجمع الفلاحون كالعادة ، وقال فاسيلي :

« اية مخلوقات انتم ؟ .. ما انتم برجال ، وانمسا انتم

عصافير .. فانكم ما تفتاون يقول واحد منكم للآخر :

« قف مستعدا الآن . قف مستعدا » . حتى اذا حانت

الليلة الحاسمة ، تولاكم الخوف جميعا .. هذا بالذات ما

تفعله العصافير حين تتأهب لمقاومة الصقر . فهى ما تفتأ

تقول بعضها لبعض : « قف مستعدا الآن . قف مستعدا .

ولا يخونن احدكم الاخر » ، الا انها حين يحوم الصقر تهرع

مدعورة الى امشاشها ، فيأخذ الصقر من بينها العصفور

الذى يروق له ، ويطير به متديلا فى مخالفه ، ثم تقفز

العصافير مرة اخرى صائحة : « توت .. توت » . فاذا

تبينت ان واحدا منها قد اختفى ، قالت : « من منا ذهب ؟ ..

اوه ! انه فانيا الصغير . حسنا ، هذا امر الله وقد ذهب

ضحية من اجلنا ! » .. هذه حالكم يا هؤلاء ، اذ تصيحون

« لا خيانة . لا خيانة ! » . حينما ضرب هذا الرجل

« سيدور » ، كان يجب ان تقتلوا قلبه ، وتقضوا عليه .

ولكن ، كلا .. كان كل ما فعلتموه قولكم : « قف مستعدا .

استعد ! لا خيانة ! لا خيانة ! » ، فلمسا حوم الصقر ،

انطلق كل منكم يختبئ فى الغابات ! »

وتكلم الفلاحون ، واسرفوا فى الكلام فى هذا الموضوع ، حتى

لقد غدوا آخر الامر مهيئين للقضاء على الناظر .. وقد حدث

فى الامسية السابقة على اسبوع الالام ، ان ارسل اليهم الناظر

يامرهم بالتأهب لحرث الارض واعدادها لزراعة الشوفان .

فراى الفلاحون فى ذلك اهانة وانتهاكا لحرمة اسبوع الالام ،

واجتمعوا لذلك في الفناء الخلفى لمنزل فاسيلى ، وراحوا يبحثون الامر قائلين : « اذا كان قد نسي الله ، وقد اصدر امره الينا بأن نفترف مثل هذه الامور ، فقد بات لزاما علينا ان نقتله ! . فلنفعل ذلك - هذه المرة - من اجلنا جميعا » .



وذهبوا بعد ذلك الى « بيتر ميتشيف » ، واجتمعوا به . وكان بيتر رجلا مسالما ، لم يشترك من قبل في هذه المناقشات ، وقد انصت اليهم ، ثم قال : « انكم يا اخوانى مقدمون على خطيئة كبرى ، فانكم اذ تأخذون حياة انسان ، تركبون جرما شنيعا . من السهل أن تهدروا حياة امرىء ما ، ولكن ما شأن حياتكم انتم ؟ . اذا كان هذا الرجل يرتكب امورا شريرة ، فالشر اذن ينتظره . اما انتم يا اخوانى ، فلمستم فى حاجة الا الى الصبر ! »

وفار فاسيلى لهذه الكلمات ، قائلا : « ليس ثمة - فى نظرك انت - الا اعتبار واحد ، وهو أنه من الخطيئة قتل رجل . . ان قتل الرجل خطيئة حقا ، ولكن ليس فى هذه الحال التى نحن بصدها . . من الخطيئة قتل رجل فاضل ، ولكن ماذا عن كلب كهذا ؟ . لقد امرنا الله ان نقتله ، كقتل كلب مجنون من اجل شخص . . بل اننا لو تركنا هذا الشخص يعيش ، لارتكبنا خطيئة اعظم من خطيتنا اذ نقتله ! . لماذا هو يعم فى تحطيم حياتنا ؟ . اننا اذ نقتله انما نفعل ذلك من اجل ابنائنا ، ولسوف يشكروننا من اجل ذلك . ان كلامك فارغ يا ميتشيف . ا تكون خطيئة اقل اذن ، ان نذهب ونعمل خلال الاحتفال المقدس بالام المسيح ؟ . ايت نفسك لا تنوى ان تذهب بالتأكيد ! »

واجاب بيتر قائلا : « لماذا لا اذهب ؟ .. اذا صدر لى الامر بأن أحرث ، فسوف اطيع . لن افعل ذلك من أجل نفسي ، والله وحده يعلم ان تعزى الخطيئة . اما نحن ، فكل ماعلينا هو ان نجعل الله ماثلا فى اذهاننا ونحن نحرث .. ليست هذه كلاماتى يا اخوانى . فلو ان الله اراد ان يدفع الشر بالشر لأعطانا شريعة لذلك ووجهنا اليه كما يوجهنا الى الطريق . لو انكم قاومتهم الشر بالشر ، فسوف يترد شركم اليكم ! .. انها لحماقة ان تقتل رجلا ، لان الدماء تلتطخ الروح . خذ روح رجل ، ولسوف تفسد روحك أنت فى الدماء ، ولو كنت تظن ان الرجل الذى قتلته شريرا ، وانك بذلك دفعت الشر عن العالم .: انظروا ، انكم اذ تقتلونه انما تتركبون شرا اشد تكرا من كل شروره .. استسلموا للبلايا ، وحينئذ تستسلم البلايا لكم ! »

وبعد هذا ، انقسم الفلاحون فى الراى . فبعضهم كان متفقاً مع فاسيلى ، وبعضهم الآخر انضم الى بيتر واحترم نصيحته بأن يلزموا الصبر ويمسكوا عن ارتكاب الخطيئة . فلما كان اليوم الاول من اسبوع الآلام - وهو يوم الاحد - ظل الفلاحون ممتنعين عن العمل ، حتى اذا جاء المساء ، وفد وكيل الناظر مع رجاله من الضيعة وقال لهم : « ان الناظر ميخائيل سيمنوفيتش ، قد ارسلنا لنلذركم وننبهكم الى ان تبادروا فى الفساد الى حرث الارض واعداها لزراعة الشوفان » .

وذهب الوكيل ورجاله خلال القرية ، وقالوا للفلاحين ان يذهبوا للحرث فى اليوم التالى : بعضهم على حذاء النهر ، وبعضهم الآخر ابتداء من الاكمة .. ووقع الفلاحون فى غم عظيم ، وان لم يجسروا على عدم الطاعة . وفى اليوم التالى ، ذهبوا فى الموعد المضروب مع دوابهم ، وشرعوا فى الحرث ،

بينما كانت أجراس الكنائس تدق من أجل قداس الصباح .. كان الناس جميعا يراعون حرمة الاحتفال المقدس ، عدا الفلاحين .. فقد كانوا يحرقون !



وفي ذلك الصباح ، استيقظ الناظر متأخرا من نومه ، وراح يمر على أهل منزله كعادته . وكانوا جميعا قد تأنقوا في مظهرهم ، ولبسوا أوفر ثيابهم . وكانت العربات تنتظرهم وقد أعددتها الخادمة لهم ، فركبوا إلى الكنيسة . وعند عودتهم أعدت الخادمة لهم الإفطار . فلما عاد الناظر من الزراعة ، جلس الجميع لشرب الشاي . وإذا انتهوا من ذلك ، أشعل ميخائيل غليون ، واستدعى الوكيل ، وسأله قائلا : « هل أرسلت الفلاحين للحرق ؟ »

— نعم يا ميخائيل سيمنوفيتش .

— ذهبوا جميعا — أليس كذلك ؟

— نعم ، جميعا .. وقد وزعت العمل بنفسى .

— حسنا . قد تكون فعلت ذلك . ولكن هل هم يحرقون

بالفعل ؟ .. ههنا هو السؤال .. اذهب وانظر ذلك ، وقل

لهم أنني قادم بنفسى بعد تناول الغداء . وقل لهم كذلك أن

كل اثنين من الفلاحين يجب أن يحرقا « دسبساتين » وأن

يكون الحرق جيدا .. لو أنني وجدت أى خطأ ، فلسوف

أنصرف طبقا لذلك ، سواء أكان اليوم عيد أو غير عيد !

— حسنا جدا يا ميخائيل سيمنوفيتش .

وكان الوكيل على وشك الذهاب ، حين استدعاه ميخائيل

ثانية . وقد استدعاه ثانية ، لأنه أراد أن يقول شيئا آخر

له ، ولو أنه لم يدر كيف يقوله ، فراح يهمهم بعض الوقت

ثم قال أخيرا : « أريدك أن تنصت كذلك لما يقول أولئك

الاوغاد عنى .. حتى اذا سمعت أى واحد منهم يسببنى ، فتعال وانبثنى بكل ما قال .. اننى اعرف حق المعرفة لولئك اللصوص ، فهم لا يحبون العمل . وكل ما يحبونه هو الاستلقاء على ظهورهم والرفس بكعوبهم .. البطالة والاجازة .. هذا ما يحبونه . فاذهب وانصت لما يقولون ، واعرف القائلين ، وتعال وقل لى ! .. اذهب واعرف كل شىء ، وقله لى ، ولا تخف عنى شيئا .. تلك هى اوامرى لك ! »

وخرج الوكيل مرة أخرى ، فامتطى جواده ، واتجه الى الفلاحين فى الحقول .

وسمعت زوجة الناظر ما قاله زوجها للوكيل ، فجاءت اليه كى تشفع للفلاحين ، اذ كانت امرأة نبيلة الخلق ، وكان قلبها فاضلا .. وما من فرصة كانت تمنح لهما الا انتهزتها لتحاول ان تستدر عطف زوجها على الفلاحين ، او تدافع امامه عنهم . ولهذه الفاية أقبلت .. فى ذلك اليوم . وقالت له متوسلة : « يا عزيزى ميخائيل ، لا ترتكب هذه الخطيئة الكبرى ضد الاسبوع المقدس للرب ! .. دع الفلاحين يذهبون من أجل خاطر المسيح ! » .. ولكن ميخائيل لم يكثر بما قالت ، وضحك منها وقال لها : « هل أصبح السوط الى هذا الحد غريبا عن ظهرك ؟ .. الى هذا الحد وصلت جراتك لأن تتدخلى فيما ليس من شأنك ؟ »

— ولكنى رأيت ، يا عزيزى ميخائيل ، حلما مزعجا للغاية عنك ، فاستمع لى ، ودع الفلاحين يذهبون !

— كل ما عندى لا قوله لك ، أنك تتجاوزين حدودك تجاوزا فاضحا ، وتحتاجين الى ضربة سوط أخرى .. خذى هذا !

وفى غضبه ، دفع لهيب الفليون بين شفتيها ، وألقى بها خارج الغرفة ، طالبا ارسال فسدائه اليه فى غرفته ..

وسرعان ما وضعت أمامه عصيدة الهلام ، والفطائر ، وحساء الكرنب ، ولحم الخنزير المملح ، ولحم الخنزير المقدد ، وعجينة الشعيرية .. فالتهمها جميعا ، ورطبها بنبيذ الكريز ، ثم ختم كل ذلك بالفواكه والحلوى . حتى اذا فرغ من ذلك كله ، نادى ابيه الطباخة ، واجلسها الى البيانو .. لتعزف له ، بينما تناول « الجيتار » وصاحبها في العزف ..



هكذا كان يمرح ويشرح صدره على رنين الاوتار ، وهو يداعب الطاهية ، حين عاد الوكيل ، وانحنى أمام سيده ، ثم بدأ يقص ما رآه في الحقول .. فسأله ميخائيل : « هل هم يحرقون ، كل رجل في قطعتة ؟ » .. فأجاب الوكيل : « نعم ، وقد حرثوا النصف بالفعل » .

— اليس من تمرد على العمل ؟

— كلا ، لم أر شيئا .. وهم يحرقون حرثا حسنا ، لأنهم خائفون أن يفعلوا غير ذلك .

— وهل الحفر جيد ؟

— نعم . انه غامم جدا ، ورفيع كحب الخشخاش . وسكت الناظر برهة ، ثم استطرد قائلا : « حسنا . وماذا يقولون عنى ؟ هل يسبوننى ؟ » .. فتردد الوكيل ، ولكن ميخائيل طلب اليه أن يذكر الحقيقة ، قائلا له : « قل لى كل شيء . انها ليست كلماتك التى مستذكراها ، وانما كلماتهم . قل لى الحقيقة وسوف أكافئك . ولكنك ان تسترت على هؤلاء الفلاحين فلن أريك رحمة ! سأجلدك جلدا شديدا .. يا كاتيشسكا ! امطه زجاجة فودكا ليتشجع أ » .

وذهبت الطاهية وجاءت بزجاجة ممتلئة وأعطتها للوكيل . ومع أن هذا كان يبدى الاحترام لسيده ، فقد جرع الشراب ومسح فمه وراح يتكلم ، بعد أن قال لنفسه : « ليس ذنبى - على أية حال - أنهم لم يقولوا كلمة ثناء عنه . وعلى ذلك فأنتى سأقول الحقيقة مادام يطالبنى بها » .

وتذرع الوكيل بالشجاعة ، وراح يقول : « أنهم يتذمرون يا ميخائيل سيمينوفيتشى .. أنهم يتذمرون بشكل مخيف ! » - ولكن ماذا يقولون بالضبط ؟ .. قل لى !

- شئ واحد يقولونه جميعا ، وهو أنك لا تؤمن بالله . فانفجر الناظر بالضحك ، وسأله قائلا : « من منهم يقول ذلك ؟ » . فقال : « كلهم يقولون ذلك . أنهم يقولون - فى الحقيقة - أنك تخدم الشيطان » .. فازداد الناظر ضحكا وقال : « أن هذا بديع . والآن قل لى ماذا يقول كل منهم على حدة عنى ؟ .. ماذا يقول صاحبنا فاسيلى - مثلا - عنى ؟ »

وكان الوكيل حتى الآن محجما عن أن يشئ بأصدقائه . أما وقد كان بينه وبين فاسيلى ثار قديم ، فقد انطلق يقول : « أن فاسيلى يلعنك أكثر من الجميع » .

- إذن قل لى : ماذا يقول ؟

- اتنى خجل من أن أردده ، ولكنه يامل فى أن تصل الى نهاية تعيسة يوما ما ..

فقال الناظر : « أحقا يقول هكذا ، ذلك الشاب ؟ لا بأس ، فلن يتسنى له أبدا أن يقتلنى ، لأنه لن تتاح له الفرصة لأن يضع يده على . حسنا جدا ، أيها الصديق فاسيلى ، لسوف نصفى أمورنا معا .. وماذا يقول ذلك الوغد تيشكا ؟ »

- الواقع أنه ما من أحد يقول كلمة طيبة عنك .. كلهم

يلعنونك ويتفوهون بكلمات التهديد والوعيد .

— وماذا عن بيتر ميتشيف ؟ .. ماذا يقول ؟ .. أقسم ان
الوغد المعجوز كان — هو الآخر — أحد أولئك الذين يلعنوننى .
— كلا .. لم يفعل ذلك يا ميخائيل سيمينوفيتسى .
— ماذا يقول إذن ؟

— أنه الوحيد بينهم الذى لم يقل شيئا على الإطلاق ،
فهو كثير العلم بالنسبة الى أى فلاح ، وقد تمكنتى العجب
حين رأيته اليوم .
— لماذا ؟

— بسبب ما كان يفعل .. لقد كان الآخرون يعجبون منه
كذلك !

وتسأل الناظر : « وماذا كان يفعل ؟ » .. فاجابه
الوكيل : « كان يفعل شيئا فى غاية الغرابة .. كان يحرق
الجزء المشب من الحقل ، وحينما ذهبت الى ناحيته خيل
الى اننى اسمع شخصا يرتل بصوت خافت رخيم ، فى حين
كان ثمة فى وسط سهم المحراث شيء مشتعل » . وهتف
الناظر : « ماذا ؟ » .

— كان هذا الشيء مشتعلا كلسان من نار . وحسب
اقتربت ، رأيت أنها شمعة من النوع الذى يباع بخمسة
كوبيكات ، وأنها مثبتة فى سهم المحراث .. وكانت السريع
تهب ومع ذلك لم تنطفىء الشمعة !
— وماذا قال ؟

— لم يقل شيئا ، سوى أن حيانى تحية عيد القيامة حين
رأنى ، ثم بدأ يرتل من جديد . وكان يلبس قميصا جديدا ،
ويرتل تراثيل القيامة وهو يحرق . وقد أدار المحراث عند
نهاية الاخدود وهزه ، فلم تسقط الشمعة . نعم . لقد كنت
قريبا منه جدا حين هز المحراث ورفع المقيسين . ومع

ذلك ، ففي كل الوقت الذى كان فيه ينفع المحراث ، ظلت الشمعة مشتعلة كما كانت أولا !

— وماذا قلت له ؟

— لم اقل له شيئا ، ولكن بعض الفلاحين الآخرين جاءوا وبدأوا يضحكون عليه ، قائلين له : « تعال !.. ان ميتشيف سيقضى قرنا يفكر فى موضوع الحرث فى الاسبوع المقدس !
— وماذا قال عن ذلك ؟ »

— لم يقل سوى : « على الأرض السلام وبالناس المبرة » . ثم انحنى وراح يحرث ، وهو يمس جواده .. وراح يرتل بينه وبين نفسه فى صوت خافت . وظلت الشمعة طول الوقت مشتعلة ولم تنطفىء ابدا !

وكف الناظر عن الضحك ، ونحى الجيتار جانبا ، ومال برأسه على صدره ، وظل فارقا فى التفكير . ثم طرد الطباخة والوكيل ، وظل جالسا وقتا طويلا . وما لبث ان ذهب خلف ستار غرفة النوم ، واستلقى على السرير ، وراح يتأوه ويشن كعجلة تئن تحت حملها . وبينداك ، ذهبت زوجته اليه وراحت تستعطفه مرة أخرى ، ولكنه ظل وقتا طويلا لا يجيبها . ثم قال أخيرا : « هذا الرجل قتلنى ! »

وظلت زوجته تتوسل اليه قائلة : « اذهب وأطلق سراح الفلاحين . لا شك أن هذا أمر بسيط . فكر فى الأشياء التى فعلتها دون أن تخاف . فلماذا اذن تخاف من ذلك الآن ؟ » .. ولكنه لم يزد على أن قال : « هذا الرجل قد قهرنى . لقد تحطمت . اذهبنى وأنت مازلت سليمة ، فإن تفقهى هذا ! » وهكذا ظل راقدا هناك .

ولكنه قام فى الصباح وذهب الى عمله كالمتعاد . على انه لم يكن ميخائيل سيمونفيتش الذى كانه من قبل ، بل بدا واضحا انه أصيب بصدمة فى القلب . وبدأت تنتابه

نوبات من الحزن ، فكان يظل مصفيا الى لا شيء ، ويجلس في بيته في سبات عميق . الا ان سلطة وظيفته لم تستمر بعد ذلك . فحين حل عيد القديس بطرس ، جاء المالك ليزور ضيعته . وفي اليوم الاول استدعى ناظره ، ولكن الناظر كان يرقد مريضا . . واستدعاه مرة أخرى في اليوم الثاني ، ولكنه كان ما يزال يرقد مريضا . . وحينئذ علم المالك ان ميخائيل قد أكثر من الشراب ، فعزله من وظيفته . وما فتىء ملازما منزله ، لا يقوم بأى عمل ، وهو يزداد حزنا . وكل ما كان يملكه شرب به خمرا وتردى تماما . وقد عاش بعد ذلك أقل من سنة ، ومات أخيرا من « الفودكا » .

اتمت



الجمعية التعاونية للبترول

تخدم في خدمة الاقتصاد القومي



في جميع محطات الجمعية التعاونية للبترول

بلاج المعصرة



● كبايت وشاليهات معلقة تحوطها المياه الزرقاء
والخضرة الياضعة ، لمن يريه الاستجمار ..

● قطع أراضي من تقسيم المعصرة لا
طويلة الأجل ، لمن يريه اقامة
أنيقة أو مبالغت استغلالية ..

● وقد أعدت جميع المرافق من طرق
والمياه النقية والمياه العكرة لري

فأسرعوا للتمتع بعروض

المؤسسة المصرية للتعمير والإنشاءات

اسكندرية ٢٧ طريق الجيش بالشاطبي القاهرة

تليفون ٦٢٥١٥ / المعصرة ت ٦٢٨٤٠ تليفون ٢١٣٥٠

Bibliotheca Alexandrina



0539009

